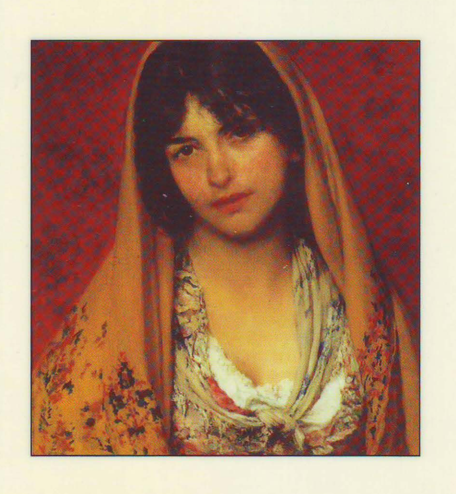
لوكاس هارتمان

وداعاً زنجبار



ترجمة :

نيفين فائق

منشورات الجمل

لوكاس هارتمان

وداعاً زنجبار

ترجمة :

نيفين فائق

منشورات الجمل

لوكاس هارتمان: وداعاً زنجبار، ترجمة: نيفين فائق
الطبعة الأولى ٢٠١٧

تلفون وفاكس: ٣٥٣٣٠٤ ـ ٠١ ـ ٠٠٩٦١
ص.ب: ٥٤٣٨ ـ ١١٣ بيروت ـ لبنان

Lukas Hartmann: Abschied von Sansibar, Roman

Postfach 1127 - 71687 Freiberg a. N. Germany
www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

ساهمت مؤسسة **بروهلفتسيا** في بعض تكاليف ترجمة هذا الكتاب

تركت وطني عربية كاملة ومسلمة صالحة، فماذا أنا اليوم؟ مسيحية غير صالحة وأكثر قليلاً من نصف ألمانية.

إميلي رويته
«رسائل إلى الوطن»

إن الشخص المخلص من أعماق قلبه، هو من يحب وطنه كما تفعلين أنتِ.

عبارة مقتبسة من تيودور فونتانه،
مكتوبة على شاهد قبر إميلي رويته

١

إلى حضرة صاحب السمو، السلطان برغش بن سعيد بن سلطان.
السلام عليك يا أخي. أتوسل إلى الله وإليك ألا تُدِر وجهك عني قبل أن تقرأ خطابي هذا. لاتجعلنّ قلبك يقسو عليّ وعلى أبنائي. ولا تظننّ أنني أعيش في أوروبا امرأةً سيئة السمعة. بل العكس هو الصحيح.

كان جالساً، حيث يجلس كل يوم خلال فترة ما بعد الظهيرة منذ وصوله. كان يحب المنظر المطل على البحيرة والجبال. في شهر مارس لايزال الطقس رطباً بعض الشيء للجلوس في الشرفة بالأعلى في الطابق الرابع. لكنه كان قد قرّب الكرسي من النافذة ذات الزجاج المزدوج، الذي يتيح رؤية منظر الجبال، من جبل ريغي حتى جبل بيلاتوس. هبت ريح خفيفة بالخارج. كست وجه البحيرة بعض التموّجات، تهادت فوقها ظلال السحب. وكلما اندلعت أشعة الشمس تحولت صفحة الماء إلى مرآة ساطعة، وظهرت في الوقت نفسه على زجاج النافذة ـ الذي كست الظلال ناحية منه ـ بعض ملامح وجهه التي لم يكد يتعرف على نفسه فيها. فمن الصعب على المرء تصديق أنه يتقدم بالعمر. كان يضطر لأن يلقن نفسه أنه شارف على الثمانين، ليس لديه الكثير من الوقت. فوق البحيرة وزرقة الجبال الداكنة راحت السحب تتداخل مع ـ وتتنسل من ـ بعضها، كأنها تمتثل لا إرادياً

لتوجيهات مخرج سينمائي. أغمض عينيه فلم يعد يرى البحيرة أمامه، بل الصحراء في الصباح الباكر. مساحات من الكثبان الرملية، مقسمة بدقة بين الظلِ والنور، وقد امتطى شخص حماراً ناصع البياض، في مقابلة الشمس. كم قضى من وقت في الصحارى! كان ينبغي على البريطانيين تطوير شبكة ري قوية في فلسطين، فإن فكرته عن التوسّع في مزارع القطن كانت ستحد من الصراعات بين اليهود والعرب. لقد كان حالماً، كم اتهمَته أمه وأخواته بذلك فتى رخو. كما أنه لم يبلغ أبداً المكانة التي كان يطمح إليها.

الساعة الرابعة، سريعاً حسبما دقت أجراس كنيسة البلدة، التي جعلت زجاج النافذة يرتجف، استشعرت أصابعه ـ التي كانت تلامس الزجاج البارد ـ الذبذبات. في الأفق البعيد لاحت السفينة التي كانت تأتي عادة خلال فترة ما بعد الظهيرة، فتتوجه صوب الرصيف المقابل لفندق شفايتسرهوف. كانت تلك عادةً إشارة لحلول موعد عودته للجلوس على المكتب. لكنه اليوم لم يفعل ذلك. إلى جانب خطابات أخرى هناك واحد كان قد تسلّمه بالأمس. شهادة الوفاة ظلت تائهة حوالي عشرة أشهر في ألمانيا المدمّرة. كان يشكّ بالأمر، والآن عرف الحقيقة: ماتت أخته أنطوني يوم ٢٤ أبريل ١٩٤٥، خلال القصف الجوي البريطاني، الذي دمر بلدة باد أولديسلوي بالقرب من هامبورج قبيل انتهاء الحرب. الإنجليز ـ الذين كان قد صار بمحض إرادته رفيقهم في الوطن ـ قتلوا أخته الألمانية النصف آرية. يالها من مفارقة مؤسفة!

ظلت أنطوني لوقت طويل بالنسبة له هي طوني فحسب. تلك الفتاة ذات المئزر الأزرق ذي المربعات. كان حبه لها يفوق كل الحدود، كانت تواسيه ـ رغم كونها لا تكبره سوى بعام واحد فقط ـ حين كانت أمه في أيام الشتاء المعتمة لاتريد التحدث إلى أحد، وترتجف من

الصقيع في سريرها رغم أنها تتغطى ببطانيتين. من حين لآخر كان الولد الصغير يفرش عليها بطانية ثالثة.. بطانيته هو.. لكنها في حالتها تلك لم تكن حتى تلحظ ذلك. بعدها بدت له أنطوني غريبة عنه، فقد تزوجت براندايس الشوفيني المتعجرف، ثم رحلت معه إلى الجنوب واختفت سنين طويلة في منطقة المستعمرات الألمانية. لم يكن قد رآها مرة أخرى منذ ليلة البلور[1] عام ١٩٣٨، كما لم ير روزالي، الأخت الأصغر. عائلة مشتتة مثلها مثل مئات الآلاف الآخرين في تلك القارة الأوروبية المشئومة. عندما انتهت الحرب ودّ لو عرف على الأقل إن كانت أختاه لاتزالان على قيد الحياة. كان قد أرسل عدة خطابات من لندن ومن سويسرا إلى عنوانيهما القديمين حيث كانتا تسكنان قبل الحرب، وإلى سلطات الاحتلال، وإلى جهات البحث عن المفقودين. وهاهي الإجابة وصلت، وكانت قاطعة.

لقد مرت عليه أيام وأسابيع كانت طوني خلالها هي أهم سند له. غاب الأب عن البيت؛ لم يكن يَعرف عنه سوى الصور الفوتوغرافية الموضوعة داخل الإطارات الذهبية الرفيعة على المَنضدة الصغيرة بجوار السرير. كم كانت طوني لحوحة في التنبيه على الإخوة ألا يصخبوا حين كانت أمّهم تعاني من حالة الحنين للوطن! كم مرة حاولوا أن يكبحوا ضحكاتهم، بينما كانت الحيوية تدبّ في نفوسهم! البيوت التي تذكّرَها

(١) ليلة البلور Krystallnacht: مصطلح يستعمل للإشارة إلى عمليات نظّمها ونفذّها النازيون ضد مصالح وبيوت يهودية في ألمانيا بين التاسع والعاشر من نوفمبر ١٩٣٨، حيث قامت قوات من الشرطة وقوى الأمن الألمانية بتحريض النازيين على القيام بأعمال ضد اليهود أينما تواجدوا في ألمانيا، فقام الألمان بالهجوم على الكنس اليهودية والمتاجر والمحلات التابعة لليهود ودمروها وأحرقوها في الليلة المذكورة، وأُطلق على هذه الليلة هذا الاسم لكثرة الزجاج الذي تكسر فيها.

كانت قاتمة. كان المرء يتخبط بين أثاثها، إلى هذا الحد كان مكدساً في الغرف الصغيرة. نوبات الحنان التي كانت تصيب الأم، حين كانت تنهض أخيراً مرة أخرى.. يكاد المرء يظن أنه يختنق في أحضانها. «أنتم كل ما لي»، كل مرة تكرر هذه الجملة بألمانيتها التي كانت خشنة ومع ذلك غنائية. باستطاعته أن يعيدها على نفسه بصوت شبه مسموع: «أنتم كل ما لي»، فيعاوده على الفور ذلك الشعور بالضيق، حتى بعد سبعين عاماً. يريد أن يرُدّ هذا الحنان، يشعر بالخوف منه، يترك ذراعيه يتدليان. «سعيد يا بُني! سعيد يا بُني! يالك من فتى هادئ!». وجوه الخادمات تتدافع أمام وجه أمه لتصير كلها واحداً، بحيث لم يعد بإمكانه التعرف على أيٍّ منها. إن ما كان يريد أن يتطلع فيه هو وجهها هي: كان شاحباً جداً في كثير من الأحيان، ذلك الأنف الطويل الدقيق، «أنف أميرات»، هكذا قال لنفسه لاحقاً، وكم كان مجرد التلويح بابتسامة يمكن أن يزيد من شعوره بالسعادة. كانت طوني تحضر لها الشاي إلى السرير. لم تكن تحب القهوة الخفيفة التي يشربونها في ألمانيا: «مرق. ألا يُسمّى هذا مرقاً؟» كان يسأل نفسه أحياناً إن كانت طوني تعادلها، إن كانت تريد أن تصبح مثل أمها، لأنها كانت تسير مثلها بهدوء داخل الغرفة، تبقي رأسها مائلاً بعض الشيء، مطأطأً بعض الشيء، مثلها تماماً. في حين كانت روزا ـ الصغيرة ـ تكافح من أجل لفت الانتباه، كانت أضخم من طوني، تحشر نفسها في المقدمة، كلما سنح لها ذلك. وكانت الأم توبخها، فتبكي بنبرة عالية وحادة.

أما هو ـ سعيد ـ فلم يبكِ أبدا بصوتٍ عالٍ، كانت دموعه تجري على وجنتيه فحسب. مع كل رحيل كانت دموعه تبلل ياقة قميصه. كانت الخادمات يوبخنه على ذلك. وكانت طوني تجفف وجهه بمنديلها؛ كانت لديها مناديل مطرزة، تفردها ثم تعيد طيّها بعناية. هذه العناية على الدوام.

كان سعيد في الرابعة من عمره، حين رحلوا من هامبورغ.. صورة غير واضحة لرحلة القطار إلى دريسدن، صوت قعقعة، ورائحة دخان، وفظاظة نبرة صوت الكمساري. لم يرِد سعيد تناول سمك السردين، ولا الخبز الجاف، كان لابد من زجره بحزم. ضوء خافت جداً في المسكن الجديد. سيدة عجوز كانت تترد عليهم باستمرار، ترفع ذقنه، وتذكُر أمَّه باسمها الأول: إميلي، كانت بارونة، سيّدة خيّرة، فهم هذا لاحقاً. علَّمَت طوني سعيد الأبجدية، التي كانت هي نفسها قد تعلمتها من إحدى المربيات، كانت تغني له أغنية الحروف، وكانت روزا تغنيها معهما، ولكن مليئة بالأخطاء. كانت أمهم قليلة الصبر، حين كان يتعين عليها أن تعلم سعيداً شيئاً ما، فقد كانت هي نفسها تجد صعوبة في الكتابة أحياناً كانت تكتب شيئاً برموز ملغزة، وفي الاتجاه الخاطئ. كانت تلك أوقات كانت تبدو خلالها مفعمة بالأمل، بل فيّاضة. حين كانت إميلي تغني، كان لصوتها جرس غريب، نغمات حادة، أصوات من الحلق؛ لم يكن المرء يفهم عمّا تدور أغانيها. «عن الحب» ـ هكذا قالت هي ذات مرة ـ «ليس عن أي شيء سوى الحب».

لم تكن تحب الذهاب إلى الكنائس، لكن الإخوة ـ ثلاثتهم جميعاً ـ كانوا يحبون أن تغمرهم أنغام الأرغن في «كنيسة السيدة العذراء» وسط وهج الشموع. كانوا يجلسون هناك أيام الأعياد الكبرى، تحت سماء حجرية. عندما غادروا دريسدن كذلك، كان أكثر ما افتقده سعيد هو وهج احتفالية عيد الميلاد ذاك. الصورة التي رآها مؤخراً في مجلة مصورة، أظهرت أطلالاً وقبة منهارة. هو ـ رودولف ـ كما سمّى نفسه منذ زمن، كان قد تنبأ بقدوم ذلك، وكان قد حذر من المذابح الجديدة، لكن جدار الجهل، والتعصّب، والغطرسة كان قد صار منيعاً. من كان ليظن أن آلاف القنابل سوف تمطر ألمانيا.

سعيد - الأنا الأولى لرودولف - كان قد أدرك الكثير بينما لم يتخطّ عمره ثماني سنوات. كان على الأم أن تقتصد في المصروفات، حتى الغسيل صارت تغسله بنفسها، وكانت تُرِي أبناءها - نصف ضاحكة، نصف غاضبة - يديها المحمرتين المتورمتين. في مدينة رودولشتات الصغيرة التي استقروا فيها آنذاك، كان يمكن الحصول على كل شيء بسعر أرخص. في دريسدن كان الناس أساساً يتحدثون بلهجة مختلفة عن لهجة هامبورغ، أما هنا فكانوا يقولون «ما» بدلاً من «لا»، ويكادون يغنون أثناء الكلام، حتى أن إميلي ظنت إن عليها تعلّم اللغة الألمانية من جديد.

كانت لديها أسرار، هذه الأم، أما الأخوة فقد كانوا يحاولون كشفها همساً بالليل في غرفتهم. إميلي جاءت من بعيد، من أفريقيا، كان اسمها في الأصل سلمى، أو سالِمة، هذا ما كانوا يعرفونه، وكان لذلك هناك بعض من يحملقون فيها في الشارع، أو يقفون لإلقاء التحية عليها بودّ مفتعل.

صار الإخوة الثلاثة الآن يذهبون إلى المدرسة. كان الطريق اليومي عبر حارات مدينة رودولشتات يجعلهم يتلاحمون معاً في مواجهة المستهزئين والفضوليين الذين كانوا يتتبعونهم، ويطوّقونهم، ويسألونهم لماذا لم يكن لهم أب، ولماذا كانت أمهم تختبئ. كانوا أذكياء ومجتهدين. استطاع سعيد وطوني اللحاق سريعاً بما فاتهم من المناهج الدراسية، أما روزا، الأخت الأصغر، فكانت قد التحقت لتوّها بالصف الأول الابتدائي. أراد صبي يكبرهم في السن الانضمام إليهم. كانت رائحته كريهة، فقد كان والده مُعلّم دباغة، إلا أنه كان موهوباً في الرسم، بل كان الأوفر موهبة بين الجميع. كان باستطاعته رسم الوجوه ببراعة تتيح التعرّف على صاحبها على الورق، فطلب من الأخوة في

الأسبوع الثاني أو الثالث من بدء الدراسة أن يقوموا بدور الموديل، لمدة نصف ساعة فقط، قال: «إن أمهم إن كانت أميرة حقاً، فإن اللوحة ستكون ذكرى جميلة لأبناء الأميرات».

قالت طوني: «دعك من هذا، إنك معتوه». مثل هذه الكلمات كانت قد تعلمتها في دريسدن. ثم هزّ الثلاثة كلهم رؤوسهم وتركوه واقفاً. ناداهم الولد: «على كل حال فهي أميرة زنجية، هكذا يقول الجميع. فلا حاجة للتفاخر بذلك». وفجأة كانت فتاتان قد وقفتا إلى جواره - كأن سحراً أسود جاء بهما - فطغيا عليه بقولهما: «إنها الحقيقة - ما يقوله - إنها الحقيقة!» - فصرخت طوني: «ليست حقيقة، بل خطأ تماماً!» قبضت روزا على يد سعيد ولم تعد تريد تركها؛ لم يتبادلوا ولا كلمة واحدة، حتى وصلوا إلى البيت، حيث حكوا ماجرى - متداخلة أصواتهم - لأمهم، وسألوها كيف توصل الأطفال في المدرسة لمثل هذه الفكرة الغبية. أليس للأميرات - كما في كتاب في الأساطير الوحيد الذي كانوا يمتلكونه - بشرة لامعة وشعر طويل أشقر، الاميرتدين أثواباً من الحرير بشرائط ذهبية؟! خفق قلب سعيد خفقاناً، حين أجهشت أمه بالبكاء، ثم قالت: «بلى، إنها الحقيقة». قالت إنها وُلِدت أميرة، وإن أباها كان حاكما على جزيرة زنجبار. قالت إنها تخلت عن حياة الأميرات وغادرت وطنها من أجل هاينريش، وإنها سوف تحكي ذلك للأبناء بالتفصيل لاحقاً، لكن ليس الآن، ليس قبل أن يكبروا، لكي يستطيعوا استيعاب كل شيء. ثم أضافت إلى ذلك جملتها المعتادة: «أنتم كل ما لي» ضمتهم إليها ولم تكن تريد أن تتركهم. وسط هدير الكلمات تطايرت كلمات غريبة، وأخرى منطوقة بشكل خاطئ، تقطعت جملها، واختنقت خلال بعض التنهدات. كان الاستماع إليها مؤلماً للغاية، بحيث كان الأطفال يبدأون في البكاء معها، بصوت خفيض في

البداية ثم بالنشيج، ثم بصوت مرتفع. بدا لسعيد كأن أحداً كان قد رفع حجاباً عن أمه، وكأنها تظهر نفسها له، كما لا يحب أن يراها أبداً. صار ينظر إليها الآن بعين جديدة، يبحث عن سمات الأصول الملكية في وجهها النحيف، ثم سألت روزا فجأة: «لماذا لا يحصلون ـ إن كانت أمهم أميرة حقاً ـ سوى على ذلك القدر القليل من الحلوى»؟ كان ذلك هو اليوم الذي فقد سعيد فيه حياده تجاه أمه؛ لم ينجح في استعادته مرة أخرى طيلة حياته. والآن، بعد بلوغ الشيخوخة، صار يسأل نفسه إن كان قد استطاع في أي وقت من الأوقات أن يدرك، من كانت هي حقاً في أعماقها.

هل طرق أحد الباب؟ فزِع رودولف، أرهف السمع إلى الخلف باتجاه الباب، دون أن يحيد عن النافذة. سُمع طرق الباب مرة أخرى، أقوى وأكثر إلحاحاً. هل كان ذلك النادل؟ أم السيد زاراسين الذي وعد بأن يلعب معه الشطرنج؟ هل هو طبيب الفندق؟ همهم رودولف: «ادخل»، بصوت خفيض جدا يستحيل سماعه بالخارج في الرواق. مع ذلك فُتِح الباب، اقترب صوت الخطى، خطى رجالية، كان لها وقع قوي في البداية على الأرض الخشبية، ثم كتم صوتها البساط الكثيف. وقف شخص ما وراءه وألقى التحية، لكن حتى ذلك الحين لم يستدر رودولف، مع أن انعكاس الصورة على الزجاج أظهر صورة غير واضحة لشخص ظن أنه يعرفه.

قال: «فلتجلب لنفسك كرسيّاً، ولتجلس بجانبي».

أنبأ الضجيج بأن كرسي المكتب رُفِع، وحُمِل، ثم وُضع بجوار مقعده؛ في الوقت نفسه جلجل صوت بوق سفينة الركاب التي كانت على وشك الوصول. سمع رودولف أنفاس الضيف المتسارعة، فقد

كانت قدرته على السمع أفضل من قدرته على الرؤية، تكاد تقترب من قدرته حين كان شاباً، بإمكانه تمييز أي خروج على الإيقاع في خطى الجنود ـ الذين كان يتولى قيادتهم ـ وتوبيخهم على ذلك.

قال: «ماذا تريد؟»، ثم فَزِع من نبرة الوهن في صوته.

استغرق الضيف بعض الوقت حتى أجاب: «أودّ التحدث إليكم، ياسيد سعيد رويته». وشدد على الاسم كأن الأمر يتعلق بأحد ألقاب النبالة.

قال رودولف: «هذا الاسم المزدوج كان مجلس الشيوخ في هامبورغ قد سمح لي باستخدامه بناءً على الطلب الذي كنت قد تقدمت به، كان ذلك منذ عام ١٩٠٦».

ـ «أعلم ذلك». قرّب الضيف الكرسي بضعة سنتيمترات. «ولكنْ هناك الكثير مما لا أستطيع تفسيره في سيرة حياتكم».

أبدى رودولف ضحكة: «أتظن أنني أنا نفسي أستطيع تفسير لعبة الحلزون تلك؟»

كانت سفينة الركاب قد رست في تلك الأثناء، لم ينزل منها سوى بضعة ركاب. بُعيد الحرب، وفي هذا التوقيت من العام لم يكن هناك سوى القليل من السائحين في لوتسيرن.

قال الضيف: «مع ذلك، يمكنك أن تحاول الإجابة عن أسئلتي».

التزم رودولف الصمت. سُمع ضجيج جديد، خشخشت بعض الأوراق، تم إشعال عود كبريت، تصاعد دخان سيجارة في أنفه. امتد نظره بعيداً خارج النافذة إلى السحب، وإلى السفينة، التي تأرجحت أمام الرصيف خالية من الركّاب. لم يكن يودّ رؤية أي شيء آخر.

قال: «سأضطر لأن أطلب منك إطفاء السيجارة، فإن رئتي مصابة».

اعتذر الضيف وهمّ بالوقوف، ثم عاد بعد قليل، بعد أن وجد مطفأة السجائر التي كانت على المنضدة غير مستخدمة. فقد كانت أولجا ـ الابنة العنيدة ـ تنفض السيجارة المشتعلة في المرحاض أو تغرقها في كوب من الماء؛ كان الوقع القصير لذلك الحفيف الخبيث الذي ينشأ في تلك الأثناء لايزال يرن في أذن رودولف. أما حالياً فقد تزوجت من صحفي أمريكي. إنها زيجتها الثانية. كم هي غبية محاولة تجنيب الشخص أبناءه الوقوع في الخطأ! حتى الابن ـ فيرنر ـ كان الآن يود الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية.

لم يعد يُسمع شيء من الضيف، لم يكن يتحرك، لكنه كان لايزال موجوداً.

ـ سأل رودولف دون مقدمات: «من أنتم؟ ماذا تريدون مني؟»

ـ «يمكنكم صرفي، سأغادر على الفور إن كنتم تفضلون ذلك».

التزم رودولف الصمت ونظر إلى الخارج. سحابتان لهما امتدادات نصف كروية راحتا تتدافعان فوق بعضهما البعض، كأنما أرادتا أن تتزاوجا.

همهم: «فلتبقَ! يكفيني ما أقضيه من الوقت بلا صحبة».

ـ «إذا كنت سأبقى يا سيد سعيد رويته، فلتحكِ لي».

ـ «عن ماذا؟»

ـ «عن نفسك».

«وما نفع ذلك؟ لقد ظللت طيلة حياتي مشتتاً بين الجبهات. أردت التوفيق بين المتناقضات، وفشلت كل مقاصدي. هل في ذلك ما يستحق أن يُحكى؟»

«ألم تكن التناقضات بداخل أمكم أكثر حدةً وألماً مما هي بالنسبة لك؟»

«لقد أخذتها عنها بدرجة كبيرة. لكنني لا أتحدث عن صراعاتي الداخلية. فهذه مسألة انتهى أمرها».

تمطّى رودولف، فشعر بمقاومة حشو المقعد في ظهره.

قال الضيف «حسناً. فلنركز إذَن على المحطات الخارجية في مشوار حياتك. أفلم يكن من الممكن أن تصير سلطاناً؟ سلطان عُمان وزنجبار؟»

كاد رودولف يستشيط غضباً: «هذه فرضية ساذجة. حتى لو كان بيسمارك فعل كل ما بوسعه ليفرضني وريثاً للعرش لما نجحت محاولاته. كان البريطانيون ليحُولوا دون حدوث ذلك».

« ألم تقل لبيسمارك إنك لن تقايض موقعك ملازماً أول مقابل العرش في زنجبار».

«كيف عرفت ذلك؟ لم يكن مستشاراً حين قابلته، كان يشعر بالأسف لأن ألمانيا اضطرت للتنازل عن زنجبار مقابل جزيرة هيلغولاند. وقد وصف ذلك الاتفاق مع إنجلترا بالشائن». تسارعت أنفاس رودولف، وشعر بوخز في صدره، فوضع يده عليه. «دعنا من ذلك. فأنا لا أحب التهويل».

مضى الضيف في حديثه: «ولماذا تخليت عن عملك العسكري بينما لم تتم الثلاثين؟»

«لأن الحياة العسكرية اليومية أخذت تثير استيائي أكثر فأكثر. التدريبات، والصيحات. كون الأمر يتعلق في الأساس بتعلم القتل. أليست هذه هي الحال؟ كان عليك أن تسأل ترومر - زوج أختي روزا -

فقد كان جنرالاً في معركة فردان، بالكاد كان ينطق بكلمة واحدة بعدها».

«بعد تركك الخدمة العسكرية عملت مفتشاً بالسكك الحديدية في مصر، ثم بعدها صرت رئيساً لبنك المشرق الألماني. ألم تكن تلك نقلات كبرى في حياتك؟ كيف حدث هذا؟»

«كنت منفتحاً على كل جديد، أبحث عن التحديات، وكان لدي أمل في أن أخدم قضية السلام بهذه الطريقة».

«لكن ذلك لم يكن يؤهلك لتلك المناصب. على الأرجح كان الأهم أن تكون لديك العلاقات الصحيحة لتحقيق ذلك».

«كما يحلو لك. إنك تستخف بقدرتي على التعلّم».

«ربما يكون الأمر كذلك. والمفاجئ أيضاً، هو أنك تزوجت يهوديّة من بيت غني».

«لقد تزوجت عن حب، ليس عن طمع في المال، كما ظن البعض آنذاك».

«حسناً لكن على أي حال كان بمقدورك بعد تلك السنوات الأربعة في القاهرة أن تعيش من استثماراتك الخاصة. أغلب الظن أن الفضل في ذلك يرجع لثروة زوجتك».

أخذت يدا رودولف تنفتحان وتنقبضان كأنهما تشكلان شيئاً من الصلصال. «أسئلتكم تصير متطفلة، أيها السيد المجهول. لن أجيب عليها».

«لم يكن هذا سؤالاً، يا سيد سعيد رويته، بل كان افتراضاً. ولازالت له بقية، إذا سمحتم لي. عم زوجتك، كان لودفيغ موند أحد أغنى رجال الصناعة في إنجلترا. يحق للمرء أن يفترض أنه أوصى لابنة

أخيه بتركة ما، فقد كان ـ كما هو معروف عنه ـ يهتم جداً بأفراد عائلته وعشيرته؛ وإلا فماذا غيّر ذلك تلك الحياة البدوية التي تعيشونها كان ليتيح لكم أن تقيموا كل هذه السنوات وحتى الآن في أرقى الفنادق؟»

كاد رودولف يلتفت للضيف. لكنه تمالك نفسه، إلا أن الكلمات خرجت من فمه على عجل، في غضب مكتوم: «أتريد أن تحصرني في مربع الانتهازي المنتفع؟ لن تفلح في ذلك. هل تعلم كم من المهاجرين اليهود دعمنا ـ أنا وزوجتي ـ في لندن؟ هل تعرف كم من المال أنفقت خلال رحلاتي من أجل التوسّط بين الصهاينة والفلسطينيين؟ كما أنني بالطبع كنت أعول أمي. لكنني لم أتفاخر بذلك على الملأ أبداً».

بقي الضيف هادئاً، بل بارداً. «ما أعرفه عن ذلك ليس سوى معلومات غير دقيقة. وهذا سبب وجودي هنا».

«فلتذهب الآن». قالها رودولف، بينما حاول جاهداً تهدئة أنفاسه. «أيّاً كان ما تقصده، فإنك سوف تكذب على أيّ حال بشأن ما تريده».

هم الضيف بالوقوف: «ربما آتي مرة أخرى، فإنني لحوح. أو بإمكانكم أن ترسلون إليّ إذا كنتم ترغبون في ذلك».

رأى رودولف ظلاً أعتم الزجاج للحظة، شكلاً بيضاوياً شفافاً لوجه شخصٍ ما، استمع إلى وقع الخطى المتباعدة، كانت أكثر تروّ من الصوت الغريب بلكنته الخشنة.

«اسمك؟» ـ سأل رودولف بصوت لا يكاد يكون مسموعاً ـ «ماذا كان اسمكم مرة أخرى»؟

لكن وقت الإجابة كان قد فات. أُغلِقَ باب الغرفة برفق، وفجأة لم يعد رودولف متأكداً إن كان قد استسلم لحلم من أحلام اليقظة، وفيما إذا كان ذلك الحوار لم يدر سوى في رأسه فحسب. صارت السماء

أكثر عتمة، كان بالإمكان استشعار حلول الشفق. مع نهاية شهر مارس كانت أشجار الكستناء على طول كورنيش البحر قد اكتسبت بعض البراعم اللزجة؛ كان الأمر ليستغرق بعض الوقت حتى تتدافع الأوراق من داخلها، وتتناثر التويجات الحمراء على كئوس الزهر. ظل صدى الاستجواب ـ الذي كان قد عارضه ـ يتردد بداخله. كان قد نحّى أمه في مقابل الشخص المجهول جانباً، ومع ذلك ظلت أفكاره خلال هذه الأيام تدور حولها أكثر مما ينبغي، وحول لغز حبها الطائش، ورحلة هروبها من زنجبار، ومرارتها فيما بعد. بينما كان يتعين عليه في تلك الأثناء ـ منذ الأمس أو حتى أول أمس ـ أن يعتني بتيريز المستلقية على بعد بضعة كيلومترات في مشفى زونمات. أن يمسك يدها على الأقل لبعض الوقت، فهذا واجب على المرء بعد أربعة وأربعين سنة من الزواج. كان يشعر بالإعياء الشديد تجاه رحلة الذهاب بالتاكسي، كما كان في الوقت نفسه يتهرّب منها؛ فقد كان من الصعب عليه أن يتعرف ـ في ملامح زوجته البالية ـ على نفسه هو في نهاية الأمر كما كان الأصعب تحمّل النظرة المباشرة في عينيها الشاحبتين.

همّ واقفا وهو يتنهد، حاول أن يتجاهل ألم الكتفين وأن يتجاوز *برجولة* هذه الكلمة جالت في رأسه بسخف ـ تصلّب الخطوات الأولى.

كان وقت شاي ما بعد الظهيرة قد حان. كان يحب حلوى الإكلير التي تُقدّم يوم الثلاثاء، يحب قضْم الحروف المقرمشة، وكريمة الفانيليا الباردة على اللسان. كان يتحاشى المصعد الذي يشبه القفص. مترجلاً ينزل الدرج، ويداه على الدرابزين. كان البساط الأحمر الذي غطى درج السُلّم المكشوف مزخرفاً طرفه بأشكال تشبه تلك التي يمكن رؤيتها على بعض السجّاد الشرقي. كان المستشار شرودر قد شرح له ذات مرة في بيروت أنها تُظهِر أرض الفردوس. أما رودولف نفسه فقد كان يتصوّر

النسيان الكبير بعد فنائه؛ كانت تصورات المسيحيين والمسلمين حول التوق لما سوف يكون بعد الموت قد تلاشت بداخله منذ زمن. لاحظ مستاءً أن سرواله قد صار واسعاً عليه؛ فقد فقد بعض الوزن في الأسابيع الأخيرة الماضية، والآن صار القماش يطوّق فخذيه بثنيات قبيحة. لكن ربما كان الوقت قد حان لكي يتخلّى عن فكرة التأنّق بالشكل الأمثل كما كان الحال لدى كل الدعوات التي كانت توجّه إليه خلال السنوات اللندنيّة، حيث كان بين الحين والآخر قد تبادل الحديث حتى مع بعض الوزراء. لكنهم مع ذلك لم يأخذوا بنصائحه القيّمة، أمّا بياناته المكتوبة فقد كان بالكاد يتم الرد عليها بين الحين والآخر بشيء من المجاملات الدبلوماسيّة.

على الطاولة في ركن الصالون الأزرق كانت السيدة بلوخ، من زيوريخ، جالسة بالفعل ومعها الدكتور فايسمان، من تورين، ثم انضم إليهم ـ بعد أن كان رودولف قد جلس بالفعل ـ السيد زاراسين، من بازل، والأمريكي جيمس بيكوك، وهو أحد ضباط قوات الاحتلال، جاء من معسكره في ميونيخ ليقضي فترة إجازته هنا. ألقى كلٌّ التحية على الآخر، واستطلع أحواله. كان رد زاراسين المعتاد هو أن يرفع الحاجبين ويتنهد، بينما كانت السيدة بلوخ تهزّ رأسها في تردد، بشعرها الفضي المهندم، كأنه لا توجد إجابة على الأمر. كانت نسبة إشغال الفندق لا تتعدى الثلث، وهو ما يحدّ على أية حال من حدوث أي ضجيج في الصالون. كان رئيس الخدم رجلاً قصيراً من كانتون جراوبوندن، يهرول من طاولة إلى طاولة، ينوح على الأوضاع الاقتصادية البائسة، بُعَيد انتهاء الحرب؛ يقول إن النزلاء الأجانب لازالوا بمثابة عملة نادرة، على خلاف ما كان في أوائل الثلاثينيات تماماً، حين كان فندق شفايتسرهوف في معظم الأحيان محجوزاً بالكامل.

أضافت السيدة بلوخ بنبرة شبه تقريرية: «كان معظم النزلاء من اليهود الأثرياء. كانوا يتوقفون هنا أثناء رحلاتهم، حين كانت سويسرا لاتزال تسمح لهم بالدخول».

لم يكن على الطاولة ما يمكن إضافته بهذا الشأن؛ حوّل الجميع تركيزهم إلى شاي دارجيلينغ الهندي، الذي قام النادل بصبّه، ثم قسّم بالسكين الصغيرة حلوى الإكلير، التي تم تقديمها على أطباق الخزف الصيني الرقيقة. كان فندق مثل شفايتسرهوف يحصل على ما يكفي من اللبن كامل الدسم، رغم أن معظم المواد الغذائية حتى في هذا البلد الذي نأى بنفسه عن الحرب كانت لاتزال تخضع لقوانين الترشيد الصارمة. كان رودولف لذلك يبذل جهداً لكي لا يشعر بتأنيب الضمير. كان مناسباً أن يحاول المسئولون تنشيط السياحة؛ من أجل ذلك كان لابد من بعض مظاهر الرفاهية، التي كان هو ـ حفيد السلطان المُعَظّم سعيد بن سلطان ـ يستسلم دائماً لإغراءاتها.

دار الحديث حينئذٍ حول الرحلات السياحية التي يمكن القيام بها، بمجرد أن يستقر الطقس. قال رودولف إنه يحب أن يصعد إلى جبل بيلاتوس مرة أخرى، لكنه يخشى ألا يسمح له ضيق التنفس المتزايد بذلك. استعاد ذكرى الإقامات الصيفية في لوتسيرن مع تيريز والأولاد، والمنظر الأخّاذ من على قمة جبل بيلاتوس. مثل طائر جارح يودّ المرء لو يهوي إلى الأعماق، في مقابلة زرقة مياه البحيرة، ثم يفرد جناحيه ويظلّ سابحاً بين زرقة السماء وزرقة الماء، آمناً فوق كل الهوّات. كانت المنطقة المحيطة ببحيرة لوتسيرن بالنسبة له هي سويداء قلب أوروبا، ليس فقط بسبب أسطورة شيلر عن وليام تل، التي كانت أمجادها تُستعاد برياء في المدرسة العسكرية البروسية، كلا، بل إن منطقة وسط سويسرا كانت تعدّ بمثابة مصغر لما تمثله أوروبا: وديان ومرتفعات، مياه جارية

وأخرى راكدة، فنون البناء عبر قرون عدة. كما أن النظر إليها من أعلى ـ في تعدديتها الشكلية ـ ينبئ عن وحدة مسالمة، كانت قد تنبأت بما تحتّمَ على هذه القارة الممزقة المدمرة أن تصيره الآن. بقدر ما بدت هذه الرؤية غير محتملة، إلا أنها مع ذلك كانت تخفف قليلاً من وطأة الاستسلام، الذي أخذ يتسلل إلى أعضاء جسده منذ أيام.

سأل السيد زاراسين إن كانت المجموعة تودّ أن تشغل الوقت المتبقى حتى موعد العشاء بلعبة «البريدج». وافقت السيدة بلوخ على الفور، أما الرجال فقد أبدوا تردداً، وأوضح رودولف أنه يفضل أن يستلقي لبعض الوقت، لاسيما أنه أتعب عينيه اليوم أثناء الكتابة أكثر مما يجب.

سأله السيد زاراسين: «هل تكتب كثيراً إلى هذا الحد؟»

نهض رودولف بصعوبة: «أحاول العثور على بعض أفراد العائلة».

على غير المتوقع قال الدكتور فايسمان الصامت عادةً: «هذا ما يفعله الكثيرون اليوم، يا سيد سعيد رويته. يستطيع المرء بلا شك أن يتحدث عن شتات جديد للشعوب».

هز رودولف رأسه، ثم سار بين الطاولات إلى باب الخروج. بدا له أنه صار متثاقلاً، وأكبر سناً بكثير مما كان يود أن يكون. كان عازف البيانو للتو قد بدأ عزف مقطوعته الموسيقية؛ كانت أصوله من المنطقة الشرقية، اسمه زيلبرشتاين، أومأ إلى رودولف بالتحية، وكأنما كان يعزف تكريماً له. بدأ مثل كل مساء بمقطوعة من مؤلفات المازوركا[1]

---

(١) المازوركا: إحدى الرقصات الكلاسيكية التي أخذت مكانة ملحوظة في مجلدات الغرب، ويرجع أصلها إلى بولونيا، حيث كانت تؤدى في شكل هادئ، موزون على=

لـ«شوبان»، تلك التي كانت تربك رودولف. زيلبرشتاين ـ مدهش كمّ الأسماء التي صار رودولف يحفظها ـ سوف يعزف لاحقاً مقطوعة «لندلر» لشوبرت، وبعض موسيقى الرقصات المجرية، و«أغاني بلا كلمات» لماندلسزون، وبين الحين والآخر بعض الارتجالات التي تميل إلى موسيقى الجاز. كان لذلك الرجل ـ الأصلع، ذي الندبة على الجبهة ـ ماضٍ صعب، كان هذا مرسوماً على وجهه، لكن رودولف لم يكن يودّ التعرّف عليه، فإن ما يكفي من ماضيه الخاص كان يطارده في تلك الأيام. عادت طوني تقترب منه من جديد. تُرى كيف صار شكلها ـ تلك الأخت ـ في سنواتها الأخيرة؟ كانت ملامحها قد صارت بالفعل أكثر قسوة منذ ما قبل انفصالها عن برانديس. كان الإخوة قد التقوا مرة أخرى عند قبر أمهم بمدافن أولسدورف بمدينة هامبورغ، في مارس ١٩٢٤، وقد اكتشف وقتها بشيء من الفزع كيف زحفت الخصل البيضاء على شعر أنطوني كان رأسه هو قد اصلعّ على كل حال منذما قبل ذلك بكثير، وكانت طوني وقتئذٍ قد أبدت رغبتها في أن تُدفن هي الأخرى هنا، في مدافن عائلة رويته. في ذلك الوقت كانت خطابات إيميلي قد ظهرت بالفعل للنور، في بيت روزالي، في مدينة يينا، حيث ماتت. كان ثلاثتهم قد قرأواها في تلك الأثناء. لم يكن هو يعلم شيئاً عن تلك المخطوطات أثناء حياة أمه. تلك الخطابات ـ المكتوبة بخط منمق ـ كانت موجهة لامرأة مجهولة، رفيقة من زنجبار لم يُذكر اسمها،

=إيقاع ثلاثي، يتقارب أحيانا مع فالس بطئ، ثم تطورت الفكرة وأ خذت المازوركا طابعاً خفيفا مرحا. ومن نماذج المازوركا ماطبق في الكتابة لآلات الأوركسترا. ومن أشهر القطع الغنائية عليه النشيد الوطني لدولة بولندا وهو من وضع الضابط الموسيقى (دمبروفسكى). (المصدر: مازن المنصور، الحوار المتمدن ـ العدد: ١٢٣٨ ـ٦/٢٤/ ٢٠٠٥).

لكنها لم تُرسَل أبداً. كان رودولف مطضرباً جداً من أثر ما طالعه، حتى أنه فقد شهيته أياماً، إذ ظل يحاول بكل ما وسعه من الجهد أن يتحول مرة أخرى إلى سعيد، ذلك الفتى العاجز، الذي كاد يموت خلال الشتاء الأول في مدينة رودولشتات. ماذا يمكن أن تكون الأم قد أخفت عنهم بعد؟! وكم مرة كان عليها أن تكرِه نفسها على الابتسام، وعلى قول كلمات المواساة، بينما كان كل شيء مصبوغاً بذلك الحنين اللانهائي إلى وطنها، جزيرة زنجبار!

٢

حتى الحاكم الألماني وعائلته يشاركون في مصيري، ويسدون لي النصائح الجيدة. الحاكم نفسه منح ابني سعيد الموافقة حظوة أن يصبح جندياً ألمانياً. أما بنتيّ طوقة وغادة فهما أيضاً على ما يرام؛ لا ينقصنا سوى فرصة لرؤياك.

نصف نائم على الأريكة. إلى أين يغوص، أين ينجرف الآن؟ هواء بارد يأتي من النافذة المفتوحة. لكنّ رأسه ـ الذي غاص تماماً داخل الوسادة ـ ساخن، وحلقه يؤلمه، حرَقان ولسع بالداخل شعور بأن كل شيء متورّم، لسانه يملأ الحلق، من المفترض أن يبلع، لكنّه لا يستطيع. النفس عذاب، يسمع صفيراً، صفيره هو. يتكوّر على نفسه بسبب نوبة السعال المفاجئة، يبصق بلغماً، ممزوجاً بالدم. يد الأم على جبينه، يرى ـ كأنما من وراء حجاب ـ مظلة المصباح البنية المموّجة، المطرزة أطرافها، وفوق اللون البني تزحف ذبابة. ثم الوجه الملتحي، الذي يفرض نفسه على بقية الأشياء جميعها، صوت ذكوري متجهّم: «بالكاد سوف يصمد الليلة». يفهم أنه المقصود بهذه الجملة، هو صاحب المرض الخطير. هل سيموت؟ ساعتها لن يعود يشعر بذلك الألم الرهيب في الحنجرة، كم يتمنّى ذلك! مظلة المصباح مرة أخرى، بضوء خافت الآن، الذبابة تنقص. طعم حلو في فمه، تتفجر من داخله

نافورة دم، هكذا يقال له لاحقاً. صيحات هلع، يتم تنظيف المكان من حوله، وتغيير الوسادة، والملاءة. من الذي يفعل ذلك كله؟ الآن يمكنه أن يبقي عينيه مفتوحتين لوقت أطول، إنها أمه، على مقربة منه. أما أن تحتضنه وتقبله حقاً فهذا ممنوع، خوفاً من العدوى، هو يعرف ذلك بالفعل، فهو في الثامنة من عمره، كما أنه ذكي جداً. أختاه أيضاً غير مسموح لهما بالدخول إليه. يتمتم: «أمي»، ويعلق بصره بها. لم يكن معتاداً أن يقول «أمي»، رغم أن الأطفال الآخرين، الألمان، يسمون أمهاتهم هكذا، لكنها تريد أن تسمّى «بيبي»، هكذا كان أبوه يناديها، مع ذلك فإن شفتيه لا تنطقان الآن سوى بـ«أمي»، وهي تهز رأسها قليلاً، تبتسم، لكن بعينين مغرورقتين، فيبدو له أن نظرتها المتوسلة تلك، هي الشيء الوحيد الذي يستطيع أن يخفف ألمه. أم أنها هي التي حكت له كل ذلك فيما بعد؟ يسأل رودولف نفسه. هل استنهضت خطاباتها التي لم ترسل أبداً خياله. فقد كتبت: «لقد تنازعت روحي مع الله القديرلإنقاذ ذلك الطفل الذي كان بالكاد يتنفس. فتح الطفل عينيه وتعرف عليّ». نعم، كان قد شارف على الموت؛ كم شعر بالخفة، كاد يكون عديم الوزن تقريباً، عندما اختفى الألم أخيراً.

ذكريات هزيلة عن فترة النقاهة. لمدة أسابيع لم يُسمح له بالخروج، قرأ مغامرات البارون مونشهاوزن، و*روبينسون السويسري*، و*رحلات جاليفر*؛ كتباً كثيرة، كانت راعية إيميلي ـ البارونة ـ قد أهدته إياها في دريسدن. مع مجيء الغسق، كان يظن أحياناً أنه مع عائلة فيس المستقرة، على جزيرة استوائية وليس في رودولشتات؛ كان يتمنى لو كان هو فريتس البارع، الذي كان يجتاز كل المخاطر، وليس سعيد الوهِن، الذي كانت أنفاسه تتقطع بعد بضعة خطوات. في خضم الأحداث كان قد نسي أن أمه كانت هي الأخرى وقتها قد لزمت

الفراش، لابد أنها أنهكت بعد ليال السهر المتواصلة. تجرأت الخادمة ثانية على الدخول إلى سعيد بالطعام، فلم يعد مرضه معدياً، كما قام اثنان، أو ثلاثة من زملاء الدراسة بتزويده بالواجبات المدرسية.

لكن لم تكن تلك هي نهاية المحنة. فما كادت إيميلي تنهض على قدميها، حتى أصيبت أختاه بالحمى القرمزية. سمع روزا تئن في الغرفة المجاورة، وأمه تنوح، أما طوني فلم يُسمع لها صوت. أبى الطبيب أن يخطو عتبة الغرفة. سمعه سعيد يقول إن هذا البيت ملعون، ولا بد من إبعاد الفتى، حتى تجتاز الفتاتان فترة المرض، قال إن استعداده لالتقاط العدوى كبير، ليست لديه المناعة الكافية. أطاعت الأم، أرسلته للإقامة عند الأستاذ فيرت المدرس. لمدة شهرين؟ أو لفترة أطول؟ بدت تلك الفترة لسعيد فترة لانهائية. القليل من الذكريات الواضحة فقط. سرير الضيوف تحت السلم، مفصولاً عن غرفة المعيشة بجدار أسباني، ومكانه بالأسفل على المائدة. فيرت سمين الخدين كان صارماً، إذا لم يوضع الطعام على المائدة في تمام الساعة السادسة، يتعكر مزاجه على الفور. كان يتعمد معاملة سعيد بتعالٍ، فالأصول المَلَكيّة الشرقية ـ كما كان يقول بوضوح ـ لا تضمن له أية امتيازات في الإمبراطورية الألمانية. كان ابناه ـ وهما أصغر سناً من سعيد بقليل ـ يسخران من الاسم الغريب بمطه: سااعييد، وفيما عدا ذلك كانا يتركان الولد المقيم لحاله، لكنهما كذلك لم يكونا يدعوانه لمعاركهم الحربية بالجنود المعدنية. مع ذلك كان ثلاثتهم يقطعون الطريق إلى المدرسة معاً؛ غالباً ما كان فيرت يتقدمهم بقامة مستقيمة، على مسافة خمسين متراً. إلا أن سعيداً كان قد اتقى شر الشجار بفضل هذه العزلة. أما من كانت أكثر ودّاً معه فهي السيدة إينجه، سيدة المنزل. كانت حريصة على أن يستعيد الوزن الذي كان فقده. كانت تغرف له حصة إضافية من هريسة الشوفان المُعَدّة

للعشاء في طبقه، وترش عليها القرفة والسكر بسخاء. وحين كان فيرت ينوه عن أن ما يحصلون عليه من السيدة رويته ليس سوى بعض المصروفات القليلة، حيث كانت هي نفسها تعاني من ضيق الحال، كانتِ زوجته تسكته بردها المستهجِن: «دعك من هذا!». أما ما لم يكن بالإمكان إسكات فيرت عنه فهو تعبيره عن ولعه بالإمبراطورية الألمانية. كان يعتقد أنه وجد في سعيد ـ نصف الأجنبي ـ مستمعاً طيّعاً، وقد أقرضه الأطلس الكبير الخاص به، لكي يمكنه أن يتتبع كيف تكوّن، من مجموعة ممالك صغيرة ومتوسطة، كياناً كاملاً، ألا وهو الرايخ الألماني الثاني، والذي صار يلعب دورا نديّا في جوقة القوى العالمية. كان حينئذٍ يضم شفتيه، ويصفر بصوت خفيض، المقاطع الأولى من نشيد «تحية لك بتاج النصر»[1]، الذي نقف لنغنيه كل صباح في المدرسة. حين كان سعيد يشعر بأن أحداً لا يراه، كان يتصفح الأطلس حتى موضع أفريقيا، حيث كانت الألوان تشير إلى أنه لم يكن بعد هناك أي شيء ألماني. وجد زنجبار على الساحل الشرقي وتعجّب، كم بدت الجزيرة صغيرة، صغيرة لدرجة مخيبة للآمال، بالكاد أكبر من زبيبة طويلة؛ كان السلطان الحالي، وهو خاله، يحكم مملكة متناهية الصغر. حتى أفريقيا بأكملها لم تكن أكبر من ألمانيا التي تأتي بعد عشرين صفحة. ومع ذلك فقد راق لسعيد أن يحلم بالسفر إلى زنجبار، وأن يتخيّل النخيل الذي كانت أمه تحكي عنها، والبيوت الحجرية على البحر. لم يكن يتخيل أبداً أن يجد نفسه بعد ستة أعوام هناك، مستلقياً على متن سفينة حربية راسية هناك، الشريط الساحلي أمام عينيه، ونداءات المؤذّن ترنّ في أذنه.

---

(١) النشيد الوطني البروسي.

حلّ الليل في غرفته بالفندق. بعض الأشعة المضيئة كانت لاتزال متبقية فوق جبل ريغي، انعكاساً لليوم المنقضي. كان قد قضى حياته بأكملها يبحث عن المساحة الخاصة، التي تخصّه وحده بلا منازع. هل كان مكانه في الشرق، أم كان مكانه في الغرب؟ دائماً ما كان يعود يجد نفسه في منطقة البين بين، في الحيز الرمادي حيث لا هذا ولا ذاك. لم يعد ألمانياً ومع ذلك يغلب عليه الطابع الألماني. ليس بريطانياً حقيقياً رغم أن جواز السفر يجعله واحداً من البريطانيين. بعيداً كل البعد عن أن يكون عربياً، ومع ذلك لا ينفكّ يتوق لأن يكون أحدهم.

في الأسابيع التي قضاها عند الأستاذ فيرت المدرس، كثيراً ما كان يتأمل ـ جالساً على عند حافة النافذة ـ الصور التي تتكون وسط السحب الشتوية، أشكال منتفشة، تتطاول على بعضها البعض عندما تشتد الرياح، تدفع بعضها بعضاً، أو تخربطها قوى خفية، أتون حرب مثير في السماء. كم كانت بريئة أحلام الفتيان الذين ماتوا في الخنادق الموحلة من أجل الوطن. كانت طوني تفضل اللعب بالدمى. وقد حاكت لإحداها، بمساعدة إيميلي، ثوبا شرقياً طويلاً، يصل إلى الكاحل، وأسمتها فاطمة.

لم يتخلص أبداً من نهايتها العبثية تحت أنقاض القصف. يالها من وحشية، أن يتم إعدام المواطنين المدنيين في نهاية الحرب! كانت الحدود بين الصالح، والضروري، والبغيض قد طُمِست منذ زمن. أما هو ـ رودولف ـ فكان قد نأى بنفسه عن إراقة الدماء، كان قد خلد خلال الحربين الكبريين إلى أرض محايدة. بينما كان إيمانه راسخاً بشأن المسيرة المهنية العسكرية. هل كان الجبن هو الذي قاده؟ الفطنة؟ النفور من كل أشكال العنف الحربي؟ نقر زر المصباح الكائن عند رأس الأريكة. ضوؤها الدافئ هيّأ له حلماً يواسيه، لطالما كان يفضل

المصابيح الجانبية الموضوعة على الطاولات وعند الأسرة، على النجف المعلق في قصور لندن، حيث كان من المفترض أن يشعر هو - ابن الأميرة - كأنه في بيته.

نظرة إلى الساعة، عرف من خلالها، أنه في تلك الأثناء كان قد فوّت موعد العشاء. بإمكانه أن يطلب بعض المرق، فهو لا يحتاج لأكثر من ذلك، ومعه كأس من النبيذ البورغندي، من النوع الأخف. شدّ الجرس. لم يكن يودّ التفكير في الحساب البنكي الذي كانت تيريز تلومه دائماً على تراجعه، كان لايزال فيه ما يكفي؛ فلم تكن الغاية من حياته أن يورّث أبناءه أكبر قدر ممكن من المال. هل يتصل بتيريز الآن؟ لابد أنها نائمة بالفعل في هذا التوقيت، إلى هذا الحد كانت قد صارت تعِبة، ومنهكة. حالة متزايدة من ضعف الرئة مثل إيميلي، غريب أن الأشياء تتكرر أحياناً. كلا، أجّل المكالمة الهاتفية للغد، فقد كانت مسألة التقاط الخط، من خلال سنترال الفندق للاتصال بمشفى زونمات، معقدة على كل حال. لم يكن ينوي زيارتها قبل نهاية الأسبوع، فقد كان هو نفسه مريضاً، ولكن ليس لدرجة تدعو للقلق، كما كان طبيب الفندق قد أكدّ له. فلا أحد يموت بالروماتيزم، لكن كان عليه أن يقلق بشأن قلبه، لم يكن مسموحاً له بأن يجهد نفسه أكثر من اللازم.

جاءت عاملة تنظيف الغرفة، سويسرية من منطقة وسط سويسرا، التي لا يفهم لهجتها. طلب طبق حساء. أومأت الفتاة، أشعلت الشمعة الموضوعة على المكتب، أسدلت الستائر المخملية الصفراء الداكنة، أعادت ترتيب اللحاف على السرير. كان رودولف قد فقد الأمل في بدء أي حديث معها.

كان إيمانه راسخاً بشأن المسيرة المهنية العسكرية. كل ما يتعلق بها

كان قد سيطر عليه ثم بعثه على التمرد. شع بعض من ضوء القمر داخل الغرفة، كان حجاب السحب قد انفض، وكانت سلسلة الساعة تلمع على المنضدة الصغيرة بجوار السرير. منذ ما يقرب من ثلاث سنوات كانت العائلة تسكن في برلين، وكانت أمه تأمل في تحسين دخلها من خلال تدريس اللغة العربية. متى كان ذلك؟ بعد ١٨٨٠، إن صحت حسبته. أربع غرف رديئة، صغيرة جداً، في الطابق الأرضي، بالكاد يدخل شعاع ضوء إلى فنائه الخلفي. كان سعيد يذهب إلى مدرسة القيصر فيلهيلم الابتدائية؛ كان تلميذا هادئاً ومجتهداً، يخفي أصوله قلقاً. بعدها دخل مدرسة بنسبرغ الحربية، التي كانت في السابق استراحة صيد، مزودة بالتجهيزات الإسبرطية، وكان لابد أن تسع ٤٠٠ شاب. لم يدرك سوى بعد مرور وقت طويل، حجم الظروف السيئة التي أجبرت أمه على إيجاد مكان شاغر له. لم تكن تحب المناورات البروسية. لكن ابنها ـ كما قيل لها ـ بإمكانه أن يجد له موطئ قدم في المجتمع، وأن يصل إلى مكانة مرموقة، في الجيش أو في إحدى الوظائف. وقد نصحها بعض المعارف ـ على رأسهم العم يوهان، أخو أبيه المتوفى ـ بأن تكتب إلى القيصر مباشرة، وأن تشطب أصول الفتى. وقد نجحت تلك المحاولة، وتم قبول سعيد. لكنه لم يكن يعلم بعد، ما كان بانتظاره، كان عمره ثلاثة عشر عاماً، وكان ضعيفاً بعد نجاته من المرض. ومع ذلك فقد أقر له الكوميسيون الطبي بحالة صحية جيدة، وكانت له في الأصل ميول عسكرية، كان بإمكانه أن يعدّد الغزوات البروسية بالترتيب، كما كان ولعه يزداد مرة بعد مرة بالانتصار في معركة سيدان على الفرنسيين المهزومين الأذلاء. ولتخفيف ألم الفراق على سعيد، قررت إيميلي أن تسكن مع البنات فترة في فندق صغير رخيص

في كولون، ليس بعيداً عن بنسبرغ؛ هكذا أمكن لسعيد أن يقضي إجازة أيام الآحاد، كل أسبوعين مع العائلة.

يوم خريفي عاصف. تصحبه أمه عبر الزقاق حتى بوابة المدرسة الحربية. يحمل سعيد الحقيبة التي بها بعض الأشياء المسموح بها. ينزلها لكي ينفض الأوراق الرطبة عن كتفه وقبعته. يتجنب نظرة الوداع في عينيها، فهو لا يتحمل دموع أمه. ألم تكن هي التي أصرت على المجيء معه؟ تقول: «كوا هيري» وتكرر تحية الوداع بصوت لا يكاد يُسمع: «كوا هيري». يتنهد تنهيدة حارة، ثم يبتعد عنها، إذ يتعجله جندي الحراسة. بعد ذلك تأتي كل أسباب الهلع. الأعظم: عنبر النوم الطويل، حيث صفا الأسرّة، هكذا يكون السجن حسب تصوّره. يستلقي المرء هنا، بلا حماية، وقماش ملابس النوم الخشن يحك الجلد، ذلك الشعور الدائم بالقلق، والأصوات الكثيرة بالليل، أنّات، وشهقات، وضراط بصوت عالٍ، وشخير، وسط صيحات ترويع، وضحك، أوامر التزام الهدوء من الحرس؛ يتوق المرء للبيت، ولا يسمح له بإظهار ذلك. صيحات النظام صباحاً ومساءً، حيث يقف المرء منتصب القامة في مكانه، غير مسموح له أن يحرك إصبعاً. مزراب المبولة المسدود، ذو الصنة العضوض، التي تتصاعد إلى الأنف في كل مكان، حتى في الفصل قاعة الدرس. القهوة برقع الحليب الفاسد على وجهها. كم يشتاق إلى الشاي المعتاد! طابور الصباح في فناء القصر، مهما كانت حالة الطقس، بتنورة طلبة المدرسة الحربية الزرقاء، شديدة الضخامة، ذات الأزرار النحاسية، والتي تمتص المياه بالكامل، عندما يهطل المطر، وتثقل على المرء كأنها درع. صراخ ضباط الصف بالأوامر. كل شيء يجب أن يتم تنفيذه بالسنتيمتر. إذا حاد شيء واحد في أي مكان ولو قليلاً، بسن الحذاء أو بالكوع، عن الطابور المستقيم

كالعصا، كان ذلك يعني عقاباً قاسياً، وقوفاً عقابياً بلا حركة. مذلة في كل مكان، في كل وقت. فقط خلال الدرس يتنفس سعيد بحرية أكثر، لاسيما خلال الدروس التي يقوم بتدريسها مدنيون. يثبت جدارة في اللغة الإنجليزية والجغرافيا. يعد خطه نموذجياً، لذلك فهو يعدُّ طالباً مجداً. بينما يتعلق الأمر بالنسبة لكل الطلبة بالحصول على شارة الملازم بأقصى سرعة ممكنة. هذا طريق يستغرق ستة أعوام، منها السنتان الأخيرتان في الثكنة العسكرية المركزية في ليشترفيلده. يحاول سعيد ليلاً أن يتخيل كيف سيتجاوز هذه السنوات، لكنّ محاولاته لا تنجح. كثيراً ما يتجمّد من البرد في سريره، لابد أن تظل الأيدي ـ لأسباب صحية ـ فوق الغطاء؛ من يخالف ذلك، تُربط يداه إلى هيكل السرير لمدة ثلاث ليال. لحسن الحظ فإن جار سعيد في الفراش من الناحية اليسرى فتى طيب، سمين بعض الشيء، أكثر خمولاً، حتى من سعيد في مضمار الحواجز. كلاهما لا ينتميان إلى المراوغين الذين يتسللون إلى كل مكان، ويعرفون كيف يحمون أنفسهم من الأذى. بعد إطفاء الأنوار يتهامسان أحياناً، يحكي هو وبرند لبعضهما، كلٌّ عن بيت عائلته، عن أخوته، عن كتبه المفضلة. يصوّر سعيد أباه تاجراً، ناجحاً في مجال تجارة التوابل، هكذا يعيده بكذبة إلى الحياة. يحاول أن يخلق ـ من الصور القليلة المتوفرة لهاينريش رويته ـ إنساناً حيّاً. تظهر في إحداها الأسرة الشابة، بينما تنقصها روزا: سعيد بالكاد في عامه الأول، بتنورة صغيرة منشّاة، على ركب إيميلي، وبالجوار الأب مع طوني، وجه ملتح، عليه تعبير غامض، ومفرق شعر مفروق بصرامة.

يقال إن أم سعيد أصولها من زنجبار وقد ولدت أميرة في الأصل: انتشرت تلك الشائعة بين الطلبة، ولكن لم يتم تأكيدها من قبل القيادة، ولا يتم منح وضع خاص لسعيد. برند هو الشخص الوحيد المحظوظ،

تروق له مسألة أن يكون صديقاً لابن إحدى الأميرات. فهو يريد أن يلتحق فيما بعد بالعمل في الخارجية، في أفريقيا، مثل الباحث غوستاف ناختيغال؛ يريد أن يصبح قنصلاً في إحدى المستعمرات الألمانية الجديدة. ولكن لا أحد يثق على الإطلاق في قدرة برند على إنجاز كل ذلك، لكنه ورث تلك القدرات من أبيه الذي جاب العالم من خلال عمله طبيباً على السفن.

عطلة الأحد كل أسبوعين، هي نقطة ضوء في مسار المدرسة الحربية الممل البائس يصبو إليها، ومع ذلك يأتي العذاب مرة أخرى. يذهب سعيد إلى كولون، في كامل هندامه، ولا فتلة شاردة من في تنورته، تستقبله أمه وأختاه في محطة القطار، ويمطرنه بالأسئلة. وهو بالكاد يعرف ماذا يمكن أن يحكي، كل مرة تتكرر مقولتها: «لونك شاحب جداً»، كل مرة يكون متعباً جداً، ينام في الفندق الصغير نصف نهار الأحد. أما أن تجلس أمه إلى جواره لتربّته بلطف، فهو أمر كان عليه ـ وهو في طريقه لأن يصبح رجلاً ـ أن يرفضه، لكنّه يتصرف كأنه لا يلحظ الأمر، وكأنه لا يلحظ كذلك أنها تهمس بكلمات حنونة باللغة السواحلية، والتي يستطيع بالطبع أن يخمّن معناها. يعقد النية على أن يتعلم تلك اللغة ذات يوم، كان أبوه يتحدثها بطلاقة، فقد كان يسافر إلى زنجبار بالفعل منذ كان متدرباً. لاتريد أمه أن تحكي عن هاينريش سوى القليل، لا شيء عن ظروف تعارفهما، وكيف هربت وصارت مسيحية. تبرر موقفها بأن ذلك يهيّج أموراً أكثر من اللازم. تقول: «كل الآن يا سعيد يا بني!». تضع أمامه الجريش الأحمر بالقشدة الرائبة، فهو يحبه، ومع ذلك تتقلص معدته بعد الملعقة الأولى. تضحك روزا عليه بفمها الملطخ بالأحمر، وتبدو الجدية على طوني. ثم تلمّح أمه أنها ربما تبحر قريباً إلى بلادها، بعد الحصول على موافقة من السلطات.

لكن لماذا؟ للمطالبة بميراثها، تقول إن لها حقاً في ذلك، وإنها إن حصلت عليه سوف تنقضي همومها. حينئذٍ يسود التسيّب برهة على المائدة. تصيح روزا: «نريد أن نأتي معك!» يرسمون في خيالهم طريق السفر الطويل، يعيّنون المحطات المختلفة التي سيتقفون عندها، الإسكندرية، بورسعيد، عدن. صار سعيد الآن يعرف أن زنجبار أكبر مما كان يعتقد ذات يوم، ٢٦٥٠ كيلومتراً مربعاً. هكذا كان مكتوباً في الأطلس الكولونيالي، وقد حفظ ذلك عن ظهر قلب. ومن المهم أن الجزيرة تعد قاعدة تجارية. فإن إنجلترا وألمانيا تتسابقان للهيمنة على شرق أفريقيا. كان لوالد سعيد كذلك علاقة بتجارة جوز الهند والتوابل. أما تجارة العبيد التي كانت مصدر ثروة زنجبار، فقد حرّمها الأوروبيون على السلطان، كانت الإمبراطورية الألمانية والبريطانية متفقتين: إن بيع وشراء البشر كالحيوانات فعل غير مشروع. هو لا يتحدث مع أمه عن ذلك، فهي تتحاشى هذا الموضوع.

في الساعة الخامسة من بعد الظهيرة يكون عليه أن يستعد للرحيل. عند مدخل محطة القطار في الطريق إلى المدرسة الحربية يكاد لا يستطيع رفع ساقيه، ولولا أنه يسير وسط حشد من العائدين، لكان جلس وشد أطنابه، كل شيء يهون الآن، إلا صيحات الأوامر الليلية، ورفرفة الأعلام. لكن المرء يطيع الواجب، يخضع للمكتوب، كما أنه كذلك لَيفخر بألمانيا تلك. رؤية برند تدخل السرور على قلب سعيد. قال إن أهله كذلك وجدوه شاحباً، يقولون إن يخنة الخضروات المعروفة لا تكفي لتغذية طلبة المدرسة العسكرية، وإن المرء يحتاج الكثير من اللحوم في هذه المرحلة العمرية. في الليل يتخيلان معاً جبالاً من شرائح اللحم، لحم خاصرة الخنزير، فخذ خنزير كامل، هكذا يكون لديهم ما يضحكون عليه، تماماً مثلما سيفعل قبل بضعة ساعات

على مائدة الطعام الصغيرة في الفندق الصغير. يقول برند إن الأمر إذا وصل للملازم ذات مرة، لكان ثمن المأدبة أغلى بالتأكيد. هذا تصور يُشعر سعيد بالانتعاش؛ فهو يشعر ببعض الذنب، إذ يفكّر في أن أمّه لا تأكل لحم الخنزير. عندما يخلد للنوم تسيل من عينيه الدموع فجأة، لا يستطيع كذلك أن ينسى، أن أمه سوف ترحل مع أختيه قريباً إلى برلين. كانت قد أبلغته بذلك قبيل انتهاء الزيارة عابراً، على عتبة الباب: قالت إن عليه أن يعوّد نفسه على طول البعد بينهم، وأنه لابد أن يكون قد تعوّد في تلك الأثناء على الحياة الجيّدة. «كلا» ـ أجابها رودولف لاحقاً بعد مرور سنوات طويلة، إنه لن يتعود عليها أبداً، بل إنه في الحقيقة سوف ينحني أمام إيقاع تلك الحياة، لأنه لا يملك خياراً آخر.

آخر مرة في بنسبرغ كانت أمه وأختاه قد جئن لحضور عرض مسرحي أقيم على شرف القيصر. كان طلبة المدرسة الحربية قد قضوا أسابيع في التدريب ـ حتى خلال ساعات الراحة ـ على مشاهد من *«مؤامرة»* شيلر. أما الأدوار النسائية القليلة فتولى القيام بها بعض من الفتية الأصغر سناً، الذين لم تكن مرحلة تغير الصوت قد أتتهم بعد، وهو ما كان مصدراً للضحك أثناء التدريبات. أظهر مدرسا اللغة الألمانية اللذين توليا الإخراج تنافساً واضحاً. كان أحدهم مدنياً، والآخر نقيباً، أحدهم اهتم بصقل الإلقاء، والآخر بقوة تأثير الظهور الجماعي على المسرح. لم يفهم سعيد أحداث المسرحية بالكامل أبداً؛ لم يستطع أحد أن يفسر له بشكل قاطع، إن كان فييسكو ـ كونت لافانيا ـ يدين بالولاء للجمهورية أم للإمبراطورية، ومع ذلك فقد عقد الأمل على أن يُسند إليه أحد الأدوار الهامة. لم يكن يودّ لعب دور المغربي الأسمر الخبيث، حتى وإن كان بعض زملاء الدراسة يتندرون على أنه بحكم الطبيعة هو الأنسب له. في النهاية كان عليه أن يكتفي بدور

هامشي، أحد مواطني البندقية، الذين يرتدون السراويل الضيقة جداً، يطأ المسرح بخطى محسوبة متتالية ثم يغادره. حاول أثناء العرض أن يتعرف على أمه وأختيه في صالة العرض شبه المظلمة. عبثاً، فلم ير شيئاً سوى بقعاً غائمة، بالكاد تبرز عن الخلفية. وقد أفسد مشهد الخروج بسبب ذلك، وكان على وشك أن تتعثر خطاه في أندريا دوريا، الذي كان يتشاجر مع ابن أخيه عديم الضمير. انحنى سعيد في النهاية مع مجموعة ممثلي الأدوار الثانوية؛ كان التصفيق ضعيفاً، ولم يشتد سوى حين خرج أبطال المسرحية، يداً بيد، وتقدموا للأمام على خشبة المسرح.

في قاعة الاحتفال التقى طلبة المدرسة الحربية لاحقاً بعائلاتهم. ترددت التهاني بين الحشد، كان الطقس حاراً بشكل خانق. كان الكبار يشربون الشامبانيا في الكؤوس الزجاجية، كما سُمِح للممثلين المتحمسين ـ من باب التسلية ـ بأخذ رشفة منها؛ لمرة واحدة أظهرت إدارة المدرسة سخاءً. ماذا عسى المرء يقول لأمي إن كان يعلم أنها ستعود خلال يومين إلى برلين، إلى الظروف القديمة، وإن كان يحوطنا هذا الضجيج من الأصوات؟ استحى حين ملست على خده، وهمست في أذنه بأنه بدا وسيماً جداً، وتراجع بوضوح مبتعداً عنها. كانت الأمهات الأخريات ترتدين ثياباً أكثر فخامة، وعقوداً مزدوجةً من اللؤلؤ. حتى أختيه اللتين تعلقتا بذراعه بلطف، بدا مظهرهما رثاً بين الحاضرين. كان واضحاً بشكل يدعو للأسف أنهم لا ينتمون إلى طبقة الأثرياء، رغم أصولهم النبيلة. أن يخلق شيئاً من كل تلك الظروف.. كانت تلك هي نية سعيد، الصعود ـ لكن إلى أين؟ هل كان يعرف آنذاك أن مسار الحياة العسكرية سيؤدي به إلى طريق مسدود؟ هو: رائداً، أو

جنرالاً؟ غير معقول. خلال التدريب كان المرء يكاد يختنق، سواء كان هو الذي يقوم به بنفسه، أو يعطي الأوامر بتنفيذه.

لا عناق عندما يودعون بعضهم، فقط ضغطة يد ذكورية. كان وقتها لن يرى أمه حتى عطلة عيد الميلاد. ولا مرة شعر سعيد بأنه وحيد هكذا في عنبر النوم، لم يشعر في حياته بأنه مغدور مثلما شعر في تلك الليلة. مع ذلك كان يعلم أن إيميلي ليس بوسعها فعل شيء آخر. كان يعلم أنه تسبب في أن تقوم بخفض نفقاتها المنزلية، كان يعلم أن على فتى في سنه أن يسيّب ذيل مئزرها. لكنه ظل مع ذلك يعدّ السنوات، والأشهر، والأسابيع التي كان لايزال عليه أن يقضيها في بنسبرغ.

الليلة كذلك في شفايتسرهوف، بعد ثلاثة وستين عاماً، بدت كأنها أبدية. يال هذه العتمة! أصوات متعددة كالمراقبة الجماعية ترفرف في رأسه! في مثل هذه الليالي كانت الأصوات الكثيرة التي تزوره تصير غير محتملة، أسوأ من كل أوجاع المفاصل التي كانت تثقل عليه طوال النهار. نهض بحذر، تحسس خطاه حافي القدمين، دون أن يضيء النور، إلى النافذة. بالكاد يمكن تمييز سواد الجبال، من السواد المخملي للبحر، الذي لا يخلو من بعض خيوط الفضة، ليأتي بعض الضوء من جبل ريغي، مواساةً بسيطة. فتح النافذة، ليدع الهواء البارد يداعب وجهه وصدره. قرقرة الأمواج القصيرة عند مرسى السفن تُسمع أعلى مما هي في الحقيقة في ظل هذا السكون. من بعيد يأتي صهيل الخيل دخيلاً على المشهد. المبنى كله بغرفه المئة بدا كأنه يتنفس بلا صوت، معه، وضده.

فجأة راح يفكر في تلك الأيام، حين كانوا في السفينة الحربية قبالة زنجبار. كانت تلك الأوقات الأكثر إزعاجاً في حياته. إيميلي مغمورةً

بالماضي، لتعود سلمى مرة أخرى. منذ كان في لوتسيرن، لم يكد نهار أو ليل يمر، حيث إنه لم يعد إلى هناك، على متن تلك السفينة التي وقفت قبالة زنجبار، في ذلك الوعاء الزمني الزجاجي، حيث بُعثت كل مساعي قدره، وتحطمت. لو أنه وقف هنا لوقت أطول، فلسوف يصاب بنزلة برد. كان عليه أن يعود إلى سريره الآن. صيحة مكتومة، كانت قد اخترقت الجدار إليه، ثم تلاها صمت على الفور، كان أحدهم بالجوار قد رأى كابوساً. أغلق رودولف النافذة، كان بطنا قدميه قد تجمدا.

٣

أريدك أن تفهم شيئاً ما، يا أخي: يريد الإنجليز تقليص سلطاتك، ولا يكادون يتحملون انتظار أن يسلبوك زنجبار، تماماً كما قاموا بالاستيلاء على مصر. أنت تعيش في زنجبار ولا تدرك ما يحاك في أوروبا. في تلك الأوقات، عندما لم أكن أفهم لغتهم بعد، كانت نواياهم كذلك محجوبة عني. لكنني الآن أتحدث الألمانية والإنجليزية بنفس الكفاءة التي أتحدث بها العربية، وأتبين ما يرمون إليه.

مُهرولةً مع الآخرين، للمرة الثالثة خلال هذا الأسبوع، فالقصف لا يتوقف. رويداً يلتقط المرء أنفاسه. ألم في الساقين. كنت بالخارج أتسوق، فهذا أمر ضروري. كم كانت الساعة، حين بدأت صافرات الإنذار بالعويل؟ إن المرء يفقد الإحساس بالوقت هنا بالداخل. قد يكون الوقت قرب الظهيرة. المكان أكثر إظلاماً من أن يسمح برؤية الساعة. شخص ما يصلي، صوت نحيب، وبكاء أطفال خافت. كم يبلغ عددنا هنا؟ حوالي عشرين، في تقديري. باد أولدسلوه صارت الآن مكتظةً بالبشر، جنود في محطة القطار، مرتحلون، يودّون السفر إلى كيل أو هامبورغ، متطوعات بالقوات المسلحة، أسرى روس، تم تكليفهم ببعض الأعمال الخدمية. على الأرصفة قطارات البضائع، لم يعد بوسعها استكمال الطريق، وقطار الإسعافات الطبية، يحمل بعض

الجرحى وممرضات الصليب الأحمر. كنت أودّ أن أظفر بالحصول على بعض البطاطا بأي شكل، وربما بيضتين أو ثلاث. ستكون هذه الهجمة شرسة، بالإمكان استشعار ذلك. ألابد من ذلك الآن؟ إن بلادنا في الحضيض على أية حال، فقط ليس على المرء أن يقولها بصوت عالٍ. عويل صافرات الإنذار لم يكن يودّ أن ينتهي، بدأ الجميع يركضون. السماء صافية تماماً، وقد رأيت سرب الطائرات، التي أخذت تقترب، لابد أنها كانت مئة طائرة أو أكثر. ركضتُ إلى أحد المباني، بالقرب من مصنع النقانق، صاح لي شاب أن به مخبأً. استسلمت ركبتاي الوهنتان، فخررت، سندني الرجل، جرّني خلفه. أين هو الآن؟ عليّ أن أشكره. رأيت قنابل قوات الاستطلاع الجوي الأولى تُقصَف، أججت الريح سحب الدخان. كدت أسقط من على سلم الخندق أثناء النزول، على أية حال هو ليس أكثر من قبو قديم، مكتظ تماماً في تلك اللحظة. مصباح زيت وحيد، السقف معزز بدعامات خشبية، والأسوار متشققة. تم تخصيص مكان لي على إحدى الدكك، حيث كبار السن، الذين أنتمي بدوري أنا أيضاً إليهم. بصعوبة يغلق أحدهم الباب. لا يلبث الهواء يصير خانقاً، يكافح المرء من أجل النفس. يقولون إن الوضع في هامبورغ أسوأ، هكذا يسمع المرء من كل اتجاه، يقال إن وسط المدينة صار مجرد ساحة حطام وحيدة. ربما يكون من حسن الحظ أنني رحلت. صحيح أنني لست يهودية، لكن أمي عربية، وإن هذا يجلب بعض النكايات، حمداً لله ليس الترحيل.

لقد صارت الأموركلها بائسة. غريب، إنني أرجع الآن مرة أخرى إلى براندايس، مثلما حدث مراراً في الأسابيع الماضية. لماذا لا أرجع لأمي، أو لسعيد، أو لروزا؟ لكن الأفكار لا يمكن استبعادها، كان براندايس هو مصيري المشؤوم. كيف كنت سأصير من دونه؟ كم هي

عبثية هذه الزيجة. لقد اخترته على سبيل العناد، تحديداً لأن الكثيرين حاولوا إثنائي عن ذلك. كيف استطعت التخلص منه، هذا ما كتبته على آلتي الكاتبة القديمة منذ نصف عام، بالإضافة إلى أشياء أخرى، تتعلق بموت أبي. كتبت ذلك لنفسي، أو ربما أيضاً لبنتيّ. هل ستقرآنه ذات يوم؟ أم أن بيتي قد قصِف؟ هل احترق الورق الرقيق بالفعل؟

حفل الاستقبال آنذاك لدى القنصل الألماني في بيروت: كانت تلك هي البداية، ١٨٩٧. كان عليّ أنا وروزا قبل أعوام عدة أن نتعايش مع أسى أمّنا، مع نحيبها، الذي كانت كثيراً ما تستهل به: «لقد خذلتني الإمبراطورية الألمانية! وزنجبار لا يمكنني العودة إليها!» لم أكن أودّ أن أجعل من مأساة حياتها مأساتي أنا. ومع ذلك فقد أصابتني بالعدوى. يكفي هذا الالتزام بالبقاء معها طوال هذه المدة، بدلاً من أن يسلك كلٌّ مسلكه. هل كنت أشعر بالشفقة عليها؟ على الأرجح بالضجر من كل مظاهر العطف، وبالسخرية، شعور خفي بالتمزّق تجاهها. لم أدرك سوى لاحقاً كيف كان شعورها بالحنين للوطن هائلاً. وقتها كنت فقط أريد أن أرحل بعيداً، بعيداً جداً، رغم شعوري بوخز الضمير، وهنا ظهر - في يناير ١٨٩٨ - أويغن براندايس؛ كان اسمه أويغن بالنسبة لي في الفترة الأولى فقط، لكن ذلك لم يلبث أن تغيّر.

براندايس إذن، كان مدعواً - خلال رحلة عمل في مهمة غامضة - لدى القنصل شرودر مثلنا، ومعنا بعض البيروتيين الألمان الآخرين. لايزال المشهد جلياً أمام عينيّ. كان بين الحضور بريطانيان أو ثلاثة. يوجد ما يشبه علاقة صداقة متوتّرة بين الشعبين، فإن القيصر هو في نهاية الأمر حفيد الملكة فيكتوريا. أقنعنا أمنا بأنه لا يمكنها أن تساوي بين جميع الألمان. لذلك أتت معنا إلى حفل الاستقبال، على ما أعتقد: لكن أيضاً لأجل خاطر ابنتيها، متتبعة بنظرها كل المرشحين

المحتملين للزواج. فقد أوشكت أنا على بلوغ الثلاثين، وروزا تصغرني بسنتين. ولا رجل ممن أبدوا اهتمامهم بي حتى الآن، استطاع أن يثير إعجابي، إنني أتمنى لنفسي بمنتهى السذاجة رجلاً وسيماً يتميز بالذكاء الشديد. وفي الوقت ذاته أريد رجلاً يستحوذ علي، وينتشلني بعيداً.

لكن براندايس قصير القامة، ويبدو لونه أكثر سمرة على عكس المتوقع بسبب لحيته؛ لاحقاً سوف يكتفي بشارب مهيب. لحظة دخولنا للصالون كان هو محط اهتمام مجموعة صغيرة، يقوم بالترفيه عنها ببعض الحكايات الطريفة. مع ذلك تقع نظرته المتسائلة عليّ، يطلب من القنصل أن يعرّفنا. يقبّل يدي، تماماً كما يفعل رجل لبق عن حق. يشرب من كأس الويسكي. يوضح أنه يعرف قصة أمي. أما أختى فلم يعجبها كثيراً لحسن الحظ، ألاحظ ذلك على الفور، وإلا لكان رد فعلها أكثر رهافة. إنه جذّاب، ويصير لايقاوم، عندما يبرز المغامر بداخله. أنا لا أحب الرجال المملّين، فقد ظللت طويلاً أشعر بأن ذلك هو ما يزعجني في أخي. قضى سعيد عاماً معنا في بيروت، قليل الكلام كما كان في السابق، وهو طالب في المدرسة الحربية، بالكاد يمكن للمرء أن يبعثه على الضحك. ولاحقاً تحول إلى واعظ، يبالغ في شرحه لنا، كيف للمرء أن يصلح العالم.

يضع براندايس كأساً من الخمر بالنعناع في يدي، يومئ لي لنتجه إلى الشرفة، حيث تقينا أواني زهور الدفلى عيون الضيوف الآخرين. هدير مياه البحر، ونعيب النوارس، وهو يوجه ناظريه إليّ أثناء الحديث، صوته منغم وخشن معاً. يعجبني جرسه الألماني الجنوبي، ولا ألبث أتعرف على حياته حتى الآن، كم كانت زاخرة، وخطرة. يبدو أنه كان قد شاهد العالم كله، خاض المعارك على الجبهة خلال حربين، وعمل بالتجارة في هاييتي، كما شارك في بناء قناة بنما، وكان

مستشاراً لملك ساموا من خلال عمله في الجيش الألماني، ومفوضاً من القيصرية في منطقة جنوب المحيط الهادئ، وقاضياً في جزيرة غينيا الجديدة ـ الألمانية. والآن؟ ـ أسأل مشدوهةً، كلا بل مفتونةً. يتولى مهمة هامة، لكن في موقع سري في إدارة المستعمرات البرلينية، هو دائماً على سفر، على أمل المزيد من الترقيات. يقول: «لا أستطيع التخلص من التوق إلى الترحال». لديه ما يكفي من الجرأة، لكي يسترق لمسة من معصمي بين الحين والآخر بسرعة. صحيح أنني أسحبها كل مرة بحذر، لكن ليس بحزم يجعله لا يقدم على محاولة جديدة للاقتراب. أسأل ـ بلى سأفعل! ـ عن مبادئه، يجيب بأنه على المرء أن يحاول إنجاح مساعيه من دون قيد أو شرط، أينما يكون الحق في صالحه، يقول إنه تعلّم أن سكان البلاد الأصليين تحديداً يعرفون كيف يمتنّون للقبضة الحديدية. عابراً يشير إلى أنه لايزال غير مرتبط، لكن هذا وضع لا يمكن أن يستمر على المدى الطويل. بينما يتفحصني بشكل ملحّ، وهو ما يدفعني للتهكم على هذا التعليق أو ذاك. أقول إن المرأة التي سترتبط به لابد على الأرجح أن تكون بدوية. فيرد بسؤال مفاجئ: «ألست كذلك في أعماقك؟». ثم يضيف كيف يتصوّر زوجته المستقبلية» على دراية واسعة بإدارة الشؤون المنزلية جميعها، حتى في ظل الظروف الصعبة. يال صفاقته، حين يرفع من شأني، ويحاول تصنيفي على مقاس ربة منزله، ومع ذلك يصيبني ذلك بقشعريرة حلوة. أردّ عليه القول: «إنني أرى نفسي شريكة حياة لرجل، وليس خادمة له». أومأ على غير ماتوقعت، بوقار: هذا أيضاً، هذا أيضاً، بالتأكيد، كما أن الجدل بين ندّين متساويين ـ كيف خطر له هذا؟ ـ مسألة لا يمكن تفاديها، قال إنه يحرص على احترام الحجج الأقوى.

حينئذ كانت أمي وروزا قد لمحتانا أخيراً خلف زهور الدفلى

تخرجان إلى الشرفة، يتحول الكلام إلى حديث غير ملزم، بينما ترمقني إيميلي بنظرة متفحصة مثلما كان براندايس يفعل قبل قليل. نتعجب لجمال المساء، ولون البحر الفيروزي. يقفز براندايس بالحديث إلى وصف شعري مناسب لشواطئ النخيل في منطقة جنوب المحيط الهادئ، هذا أيضاً أمر لم أكن أثق في قدرته على فعله.

«إنه مهتم بك جداً» ـ قالت لي روزا في البيت، بأسلوب أقرب إلى العتاب ـ «احترسي على نفسك منه، فإن بداخله شيئاً شرساً».

«ما هذا الهراء!» ـ صرفتها عني بضحكة ـ «إنه شخص متهوّر، ليس أكثر».

يطول الوقت داخل المخبأ. كم مضى علينا ونحن جالسون هنا؟ دويّ محركات الطائرات مخترقاً الأسوار، يقترب، يتلاشى، ثم يقترب مرة أخرى. قصف، انفجارات، مكتومة في البداية، ثم تصير أشبه بالضربات الطنانة على خشب ومعدن. السيدة الجالسة إلى جواري على الدكّة تتحدث إلى نفسها. بدأت رائحة البول تفوح. شيء غريب ألاّ يخاف المرء، حين يتعيّن عليه أن يشعر بالخوف. ينغلق على نفسه ببساطة. يصير أهدأ. يعود إلى ماضيه الخاص.

رأت براندايس في مناسبتين أخريين، قبل أن يغادر عائداً إلى برلين. أما ما كان يفعله في بيروت بالتحديد، فقد بقي لغزاً بالنسبة لها. من المحتمل أنه كان يتفاوض مع الوالي العثماني حول خطوط جديدة للسكك الحديدية، لإضافة صفقة جديدة للصناعة الألمانية. حتى فيما بعد لم تتمكن أبداً من رؤية ما بداخله، بينما زعم هو أن بوسعه قراءة ما في قلبها كما لو كان مكتوباً بخط ضخم. ما من شيء تقريباً جعلها تنقلب ضده مثل ذلك الادعاء. وعدها أن يكتب إليها، ولكنها لم تكن

تعرف على الإطلاق، إن كانت ترغب في ذلك، أو ما إن كانت لتردّ. الغريب أنها رأته في المنام، في أحلامها كانت ملامح وجهه تبدو خبيثة، ثم تعود تبدو طيبة، أما ظهر يده الذي كان في الواقع مشعراً، فقد بدا أملساً، كما لو كان قد حلقه من أجلها خصيصاً. كانت خطاباته فَكِهةً، مكتوبة بأسلوب بليغ، وكانت تدور حول الحياة الثقافية في برلين. في الخطاب الثالث طلب يدها؛ من باب اللياقة جاء خطاب إلى أمها في الحافظة البريدية نفسها، حيث أعلن فيه عن نواياه. كتب إنه قد تم تعيينه والياً قيصرياً على جزر مارشال في منطقة جنوب المحيط الهادئ، وإنه يتمنى زوجة تعينه على أداء مهمامه. كانت موافقة أنطوني تعني أنه سيتعين عليها الذهاب إلى برلين على وجه السرعة لعقد الزواج، ثم تلج البحر معه بعد ذلك مباشرة. في المنزل البيروتي حدثت جلبة صغيرة. كانت روزا تعارض بشكل قاطع أن تتعجل أختها الارتباط على هذا النحو، بمحدث النعمة المتعجرف هذا، وتفرّ معه إلى الناحية الأخرى من الكرة الأرضية. أما أمها فقد نأت بنفسها عن الموضوع. قالت إن براندايس لا يبدو لها شخصاً لطيفاً في المطلق، لكن على أية حال فإن تعيينه في ذلك المنصب يضمن ظروفاً آمنة. استعارت الأختان أطلساً من القنصلية، بحثتا عن جزر مارشال، التي كان حجمها لا يتعدى حجم رأس الدبوس، على اتساع المحيط الهادئ. كل هذه المسافات! قضت أنطوني ليلة أرقة. بحلول الصباح كانت قد قررت أن تقبل العرض. كان الخوف يتملكها، لكنها كانت تريد فعل ذلك. لماذا؟ عشرات الأسباب تضافرت معاً. كانت هي ابنة عوالم مختلفة، بلى، ربما كانت فعلا بدوية. لعبت الجاذبية التي مارسها براندايس عليها دوراً في تأجيج شعورها بالنزوع للخروج من قفص النساء الثلاث ذاك - بل ربما كان لها الدور الأكبر - وبالتأكيد كذلك التوق إلى تكوين أسرة.

لكن مع هذا الرجل؟ كان يكبرها بثلاثة وعشرين عاماً، وقد ألحت روزا على مواجهتها بذلك الأمر. صورت براندايس على أنه شبح مرعب عجوز، فعارضتها أنطوني بإصرار أكبر. أرسلت إليه برقية: «**عرض مقبول، لكن الزواج في بيروت. والسفر بعد ذلك من هنا عبر قناة السويس**». جاء رده بعد يوم واحد: «**موافق. سأكون عندك خلال أربعة أسابيع. سآتي بأمتعتي جميعها، فلتحزمي أمتعتك أنت أيضاً، فسوف نغيب طويلاً**». أما كلمة «أنت» غير المتوقعة فقد أزعجتها وأسعدتها في الوقت آن، كما ملأتها في الوقت ذاته بالعديد من التوقعات المخيفة.

كانت تلك لحظة تحوّل في حياتها. ليس جذرياً كما حدث مع إيميلي، عندما تحولت في عدن إلى الديانة المسيحية وتزوجت هاينريش، ومع ذلك بالقدر الذي يجعل الأمر يبدو كأنما كانت أنطوني تكرر ما فعلته أمها ولكن بصورة أهون.

سارت التحضيرات للعرس والسفر بصورة محمومة. برقيات أخرى راحت وجاءت، كما وعد أيضاً سعيد ـ الذي كان قد ودّعهم لتوه ليبدأ عمله ملازماً ـ بأن يجيء لحضور العرس. تعيّن عليه أن يحضر، فهي التي كانت تداعبه وتواسيه حين كان فتىً صغيراً بائساً. وقد كانت تظن أنه لن يمانع في العودة إلى بيروت؛ فهي المدينة التي عاشوا أربعتهم فيها كعائلة للمرة الأخيرة، مع القنصل شرودر الذي حل محلّ الأب الغائب.

بعد إقلاعه من جنوة حرص براندايس على إبلاغنا بانتظام، بموقع «بروسيا» ـ السفينة التي كان على متنها ـ وأين رست: في نابولي، ومسينة، وبورسعيد. ثم وصل فجأة، معتمراً قبعة بيضاء، تتخلل اللحيةَ خيوط الفضة، كما لاحظت أنطوني في الضوء الساطع. بدايةً ضمها إليه

عند التحية، فشمت تلك الرائحة التي تفوح من الرجال، والتي يصعب تعيينها، ففيها من الجلد، ومن العرق، وقليل من اللافندر. بعده بيومين وصل سعيد كذلك إلى بيروت، كان قد تغيّر كثيراً خلال تلك السنوات الأربع ـ ولكن بِم عساه قد تأثّر؟ ـ كان قد صار أكثر لباقةً بكثير. كان الرجلان مثل النار والثلج، لم يكن أحدهم يطيق الآخر، فما لبثا أن تشاجرا في الليلة الأولى حول سياسة التوسّع الكولونيالي الألماني، التي كان براندايس يؤيدها بشدة، بينما انتقدها سعيد بتعقل وحذر.

كان العرس بسيطاً، والخاتم الذي وضعه براندايس في إصبع عروسه، كان حسب ذوقها ينم عن بزخ زائد، كما كانت المأدبة في فندق «أوتيل ألمان» مكتظة بالأطعمة. أطباق ألمانية، حتى أن براندايس طلب مخلل الملفوف مع لحم الخنزير المقدد. كانت هناك رقصة مع العروس على أنغام آلتي الهارمونيكا والفلوت، وقد أدركت كيف ترتبك خطى براندايس بسرعة، وكيف كان رغم ذلك يصر بصرامة على أن يقودها خلال الرقصة.. كلا، بل أن يحجّمها. لم يكن براندايس مع ذلك عنيفاً في ليلة العرس، لكنه لم يكن رقيقاً، دفع بذكره بداخلها، كأنها قطعة خشب، بينما ظنت أن الأمر لم يكن يخلو من الشهوانية، إلا أنه كان من الممكن إيقاظها ببعض الرقة. كانت لديها الكثير من التوقعات والآمال المتناثرة، أي شيء غير هذا الشكل الآلي لفض بكارتها. لم يكن يعرف أسلوباً آخراً، وقد ارتضت فكرة أنه تلقى هذا الدرس من على يد عاهرات عديمات الإحساس. ولم يلبث أن بدأ في الليلة الثانية ـ بينما لم يكد نزيفها يتوقّف ـ يوجهها لرغبات، رفضت تنفيذها بثبات.. لكن أوان التراجع عن قرارها كان قد فات.

أما وداع ذويها فقد كان حزيناً، فلم تكن حالة الانطلاقة الكبيرة التي كانت تتوق إليها تريد أن تتهيأ. كانت تداري ألم الفراق بالنشاط الزائد.

المدهش أنها شعرت فجأة بأنها صارت أقرب لأخيها - لاسيما فيما يتعلق بطريقته المتشككة - كما كانت خلال كل الأعوام السابقة. وعدته بأنها أينما كانت سوف تأتي لحضور عرسه، إذا ما حدث ذلك في أي وقت. ضحك، فقد كان بإمكانه فعل ذلك وقتئذٍ، لكنه قال إن بداخله شيء ما يميل إلى حياة العزوبية، وإنه يعتقد أن روزا سوف تدخل قفص الزوجية على الأرجح قبله.

استغرقت الرحلة الأخيرة من سيدني، مروراً بجالويت، حتى جزر مارشال سبعة وثلاثين يوما. بدت لأنطوني طويلة بشكل مؤلم، كما أنه في السفينة الشراعية النرويجية - التي لم يكن هناك بدّ من اتخاذها لعدم توافر حلول أخرى - كان ضيق المكان لا يكاد يطاق. وفي الكوخ التي شاركت زوجها إياه، تعرفت على كل صفة من صفاته (كلا، بل معظمها) عن قرب، على شخيره كما على أسلوبه المتقلب في برم شاربه. بدا تلاطم الأمواج كأنما يضاعف من وزنه الذي يثقل عليها ليلاً. حين كانت ترفض الخضوع له، كان يصر على حقوقه الزوجية. لم يتبق لها وقتئذ سوى أن تتخلى هي الأخرى عن أحاسيسها، وأن تتحمل أن يتم استخدامها أداةً للمتعة. لم يكن ينقص سوى أن تتقاضى المقابل. ذات مرة في السابق، في أحد الحفلات في برلين - كان ذلك منذ زمن طويل - كانت قد سمحت لأحد الفرسان أن يقبلها في ركن مظلم؛ عوضتها تلك القبلة عن كل ما كان يفعله بها برانديس.

واجهتهم عاصفة استمرت ثلاثة أيام. استشعرت أنطوني بدايةً خوف برانديس. أكد لها أنه لا يجيد السباحة، وأنه في بادن لا يكون التدريب سوى على خوض بعض الجداول والأنهار الصغيرة. هذا ما قاله هو، الرحّالة المخضرم، الذي كان قد قضى أسابيع، بل أشهر على متن السفن. استمر الأمر كذلك أيضاً فيما بعد: كل نقطة ضعف كان يفصح

عنها كانت تصالحها عليه بعض الشيء. حتى أنها كانت تواسيه في مثل تلك اللحظات، كما كانت تلف رأسه بالكمادات الباردة، حين تصيبه نوبات الصداع التي كانت تهاجم رأسه بين الحين والآخر.

ذكرتها العاصفة بالآخرين، بأول عاصفة تشهدها في البحر، حيث كانوا جميعهم، عائلة رويته التي ينقصها الأب، والآنسة لابوسكه، في الطريق إلى زنجبار، في صيف عام ١٨٨٥ الساخن. بعد عدن بقليل اندفعت الأمواج عليهم بكل قسوة، وألقت بالسفينة بلا هوادة في كل اتجاه، لطمت المدخنتين اللتين صارتا فيما بعد بيضاوين إثر تبخر المياه المالحة، بعد أن كان لونهما أسود في الأصل. كانوا جميعاً مستلقين على أسرتهم، مصابين بدوار بحر مزرٍ. أخذوا يراقبون بلا حيلة، كيف راحت المياه تتسلل من كل شق، حتى بللت كل أمتعتهم وبللتهم هم أنفسهم. لكنها مرت.

كذلك هدأت العاصفة التي مرت بها أنطوني مع برانديس بعدها بثلاث عشرة سنة هي الأخرى. وبمجرد أن توقفت معدته عن العصيان، وزال خطر غرق السفينة، تولت «الأنا» المعتادة بداخله مقاليد الأمور، فكان يتحدث لزوجته بالدرجة الأولى بنبرة إما ساخرة أو آمرة. كلا، لم يكن هو الآخر مغرماً بها ذات يوم، كان يعاملها في نهاية الأمر كما يعامل كل رجال رعيته، كفريسة تفقد قيمتها بمجرد إتمام الغزو.

قبل جالويت كانت هناك شعب مرجانية بها فجوة وحيدة عبروا من خلالها إلى البحيرة. أشجار جوز الهند في كل مكان، بينها بضعة مبانٍ حجرية مخصصة للألمان، وأكواخ ضعيفة البناء، لها أسقف مصنوعة من حُصُر جوز الهند، وهي مخصصة للسكان الأصليين وبضعة من المستخدمين الصينيين القلائل. طبيعة فردوسية، مع ذلك كان ينقصها

تربة خصبة، فاستلزم الأمر تحسينها بالاستعانة بروث الطيور، وبالفضلات المتعفنة، كان لابد من ركْمِها، لكي تجد الجذور أرضية كافية لها. حينئذ كان كل شيء تقريباً ينمو عليها، وبمنتهى الوفرة، وقد كان الأسبان قد جلبوا معهم المانجو والبابايا، وزرعوهما هنا بالفعل. من المستحيل نسيان ذلك الخليط من الروائح، التي كانت تستقبل المرء في الصباح الباكر، حين يخطو إلى الخارج، بدءاً من رائحة الياسمين الحلوة، حتى الرائحة النفاذة لثمرات فاكهة الخبز المتشققة، ومن رائحة ملح وأصداف البحر، حتى رائحة نتانة فضلات الدجاج. كان بالإمكان التعود على ذلك، مثلما يتعود المرء على طنين الأمواج، بل ويشتاق إليه إذا ما فقده.

كان براندايس حاكماً على ما يزيد عن حوالي ثلاثين جزيرة، وجزيرة مرجانية. كانت برلين بعيدة، مما سمح له بأن يصير مستبداً ماكراً صغيراً. كان يقلّب القادة الصغار ضد بعضهم البعض، ويحاول أن ينتزع المغانم من كل صفقة، لصالح شركة هامبورغ التجارية. عندما طالب السكان الأصليون برفع الأجور مقابل تحميل جوز الهند، لم يستمع حتى إليهم. أشار عليهم بعض المبشرين الأمريكيين بالإضراب، فأنهاه براندايس بواسطة عدد من رجال الشرطة، وفرض على إدارة الجزيرة غرامة مالية مرتفعة. حتى في حالة السرقات الهيّنة من قبل السكان الأصليين، كان يوقع عليهم عقوبات، ما كانت الإدارة في برلين لتسمح بها سوى في الحالات القصوى. كان الجناة يُجلَدون في ميدان عام، وقد تصل العقوبة خمسين جلدة، كانت تكسو ظهورهم بشبكة دامية. كان ذلك يتم استخدام السوط المسمى بـ«القطة ذات التسعة أذيال» كما في سلاح البحرية البريطانية؛ فهو على الأقل ـ كما يزعم براندايس ـ يحفظ الكلى والكبد، ويكفي البشرية أنها توصلت للمرهم المطهّر. كان

سكان الجزيرة يشهدون تنفيذ العقوبة في صمت. مرة وحيدة كانت أنطوني شاهدة عيان، فرأت جدية الموقف والسخط الكامن في نظراتهم؛ وقد ارتسمت على ملامح براندايس نظرة رضى قاتمة. لم تنجح في إثنائه عن مثل هذه الأعمال الوحشية المحرّمة. كان يتهمها بأنها تتهاون مع سكان جزر جنوب المحيط الهادئ، ويقول إنهم مجرمون بطبيعتهم. ذات مرة باغت طباخها مصادفة، بينما كان لتوه قد دس شرشفاً عليه حروف اسم أنطوني تحت عباءة السارونج التقليدية التي كان يرتديها، فأمر بالقبض عليه، وجلده في الليلة ذاتها دون حكم قضائي أمام مبنى البريد. سمعت صرخاته التي وصلت إلى داخل بيتها، وقد اضطر بعدها أن يستلقي لمدة أسبوع على بطنه، أما هي فقد تضاعف عملها. تسبب ذلك الموقف في شجار حاد بينها وبين براندايس؛ كان قد رفع يده بالفعل، لكي يصفعها، ثم أرخاها في اللحظة الأخيرة.

أخذ يوبخها في اليوم التالي: «لو تركت الأمور لك، لخسرت ألمانيا كل مستعمراتها في أقصر وقت. هل تريدين أن تصل الأمور إلى التمرد والعصيان كما حدث في الهند؟ كان البريطانيون هناك لفترة طويلة يتعاملون برخاوة زائدة. ولا يجب أن يحدث ذلك معنا».

قالت: «علينا أن نتصرف بناءً على مثلنا العليا. فالأمر يتعلق بمجموعة من البشر. خطوة علينا أن نعرفهم بثقافتنا، التي لم يكن السوط فيها في المقام الأعلى».

«حقاً؟ أتظنين أن باستطاعتك تغيير أولئك السمر، والسود، عن طريق الإقناع بالحسنى؟ إنهم في العادة لا يفهمون سوى لغة واحدة فحسب: لغة الترهيب. وسوف ألتزم بذلك، سواء أعجبك أم لم

يعجبك». ضحك؛ كانت ضحكاته في حضرتها قد صار لها غالباً دويّ منفر أو دنيء.

ستة أعوام إجمالاً، كانت هي فترة إقامتها على جزيرة جالويت - تخللتها فترة سفر مدتها سنة ونصف - أنجبت خلالها ابنتين. أخذ الشعور بالاغتراب بينها وبين براندايس يتزايد، رغم زياراته الليلية لغرفتها؛ فقد أصرت على أن يكون لها غرفتها الخاصة. ولكن وسط المجتمع المحدود من الأوروبيين على الجزيرة، كانت تلعب دور الزوجة المطيعة والأم الحنون. كانوا يتناوبون العزائم. والحاكم أيضاً كان عليه أن يقيم ولائم العشاء، وأن يقدم لضيوفه الأطعمة الفاخرة. حينئذٍ كانت أنطوني تبرع، فقد كانت تمتلك الموهبة اللازمة لتصنع من القليل الكثير، تبدع في استخدام المنتجات المحلية، التي كان البيض عادة يتحاشونها. علمها طباخها الملايوي - الذي كان براندايس يتحاشاه فزعاً - أن تصنع خلطة الكاري الخاصة بها؛ كانت تعدّ أطباقاً حارّة من اليام، ونبات أكيبيا كويناتا، والبامية؛ ابتكرت طبق الأرز بالأناناس، وقد حازت كريمة جوز الهند التي كانت تصنعها على إعجاب الجميع فيما عدا براندايس، الذي لم يكن يحب من الحلوى سوى بودينغ الشيكولاتة. من بين كل المحاصيل التي تخرجها أرض الجزيرة، كانت تفضل البابايا. كانت تحب هيئتها، وصلابتها، وخضارها الجميل مع النقاط الذهبية الداكنة، التي كانت تنبئ بتطور مراحل نضجها، ولحم ثمرها الأحمر الريّان، الذي يمكن توظيفه بطرق كثيرة، فهو يحتمل الملح والسكر على حد سواء، والليمون والزنجبيل، والقرفة وجوزة الطيب. لكنها كانت تفضل أكلها بلا أي إضافات على الإفطار، بينما يلتهم براندايس عادة بيضاته الثلاث في صمت وعلى عجل.

كان جميع أفراد النخبة الكولونيالية الذين كانوا يتجمعون عند

براندايس، يشيدون ببراعتها في فن الطبخ. كانت الأحاديث في تلك الأمسيات تدور حول وقاحة السكان الأصليين، والخدم، وعن خدع القوى الاستعمارية الأخرى، التي تحاول بكل السبل التشكيك في نجاحات ألمانيا. كانوا يرددون هتافات «يعيش الملك، والقنصل»، البيرة ونبيذ النخيل، باردان، يسيلان أنهاراً في الحلوق. كانت أنطوني أحياناً تكون هي المرأة الوحيدة وسط ثلاثين أوروبياً؛ لم تكن تستجب لمحاولة هذا وذاك مغازلتها، وبكل تأكيد ليس في ظل نظرات براندايس اليقظة. أما نائبه شني الذي كان يعاني من المالاريا، فهو الوحيد التي منحته الرعاية التي كان بحاجة إليها. كان قد أنهِك لدرجة أن صار أشبه بالشبح. لذلك لم ير براندايس أي تهديد من جهته.

كان تجريب الأصناف الجديدة، يلهيها عن قائد البلاد، كما صار بإمكانه تسمية نفسه. كتبت الوصفات، وأعدت الخطة لتأليف كتاب طبخ عن الأكلات الاستوائية، لكل زوجات مسئولي إدارة المستعمرات، اللاتي كن تقفن في المطابخ الميدانية، وليس لديهن فكرة، كيف يمكنهن الاستعاضة عن الأغذية المعلبة غير الصحية في مخازنهن. لحسن الحظ كان براندايس يتغيب طويلاً، كان يبحر مع أتباعه المقربين إلى الجزر المجاورة، لكي يبيّن، من الذي له الكلمة العليا هنا. في تلك الأثناء كانت هي تكتب ـ من خلال برلين ـ للمسئولين في إدارة المستعمرات في تنجانيقا، وجنوب غرب أفريقيا، والكاميرون، وغينيا الألمانية، وساموا، ونيوبوميرن. كانت تسجل أمنياتها، وتطالب بالعثور على أشخاص ثقات، يستطيعون أن يرسلوا إليها بوصفات الطبخ المختلفة من مستعمراتهم. وبالفعل جاءتها بعض الردود بعد بضعة أشهر، منها القصيرة ومنها المفصلة. إذن كانت خدمة البريد الألمانية تسير بشكل جيد، فقد كان هناك بالفعل كذلك مكتب بريد صغير على

الجزيرة. أزاح ترتيب الوصفات وصياغتها صياغة واضحة الضجر الزوجي. بدأت في تدوين ملاحظات حول ذلك: حول اختيار الطباخين ومعاملتهم بحزم مصحوب بحسن النية، وحول بناء المطابخ والأفران التي تعمل بالنفط، وحول مطابخ المخيمات، وحول الغذاء المتوازن والصحيّ، وحول أفضل وسائل الحفظ في المناطق الاستوائية. نشأت عن ذلك قوائم بأهم الكلمات، وفهرس مبدأي، وصارت أنطوني مقتنعة بأنها حال عودتها سوف تجد ناشراً ألمانياً لهذا الكتاب. حطّ براندايس من شأن مشروعها بوصفه تافهاً، وهكذا لم تلبث أن قررت - بعد مشادتين أو ثلاثة - ألا تضيع الوقت في المزيد من الكلام عن الأمر. عندما عادو إلى برلين لم تكن دهشته بالقليلة، إزاء النجاح السريع للكتاب، الذي رفعها إلى منزلة أمها التي كان كتابها *«مذكرات أميرة عربية»* يصدر في طبعته السادسة آنذاك.

شيء آخر أخذته معها من جالويت: كانت تجمع بشغف معلومات إثنوغرافية. كان الدافع الأول هو ما أهداها إياه فيكه، مدير متحف علم الشعوب في فرايبورج، حيث كان براندايس قد أتم دراسته. فقد التفت راجياً قائد البلاد، أن يرسل إليه بعض الأدوات، التي قد تثير اهتمام رواد المتحف. نقل براندايس ذلك الرجاء بشكل عابر كمهمة كلف بها زوجته. فأخذت تتنقل على الجزيرة من بيت إلى بيت، وتتعرف على طرق تصنيع الأدوات واستخدامها، وتراقب كيف يتم تصنيع الحلي من الأصداف، وكيف تتشكل التماثيل الصغيرة والأقنعة من الخشب والخيوط. كان الناس يشرحون لها - بواسطة الإيماءات والكلمات البسيطة - ما كانت تعنيه لهم. فقد كانت تلك التماثيل - التي كانت مكتنزة، ومع ذلك مصقولة بدقة - تسمى بأسماء الرسل والقديسين، ولم تلبث أن أدركت، أن الإيمان القديم بالأصنام لا يزال حيّاً في قلوب

نحاتي الخشب. لكنها حرصت على ألا تنقل هذا القول للمبشرَين العاملَين على الجزيرة. كثيراً ما كانت تنجح في مقايضة أصحاب الأدوات التي تعجبها عليها، مقابل علبة باذلاء أو قميص قطني. كانت تكتب على ملصقات صغيرة كل ما يتعلق بتلك الأشياء، وتضيف ورقة هنا أوهناك بها تعليقات مفصلة. انتشرت الأحاديث حول ما كانت تبحث عنه، فجلب لها البعض هذا الشيء أو ذلك، أيضاً من الجزر الأخرى، بالطبع أملاً في الحصول على ثمن مناسب. كان اهتمام براندايس ينصب على الرماح فحسب؛ كان يرى أن الرماح غير المزخرفة، حادة النصل، التي كانت أنطوني تجمعها حقيرة، وتلك المزينة بالزخارف، التي كان السكان الأصليون يمتلكونها، عديمة الفائدة، إذ كانت ثالمة. كان يتهكم على اجتهاداتها، للتفرقة بينها بدقة، لكنه سمح لها باستكمالها، وهكذا أرسلت بعد عام واحد، صندوقاً خشبياً به مجموعتها وملحوظاتها عبر الطريق الطويل إلى فرايبورغ في منطقة بريسغاو، بينما ادعى براندايس في خطاب مرفق أنه هو الواهب الفعلي لهذه المنحة. في القاعة الرئيسية عند مدخل المتحف، كما رأت نطوني بعد سنوات، كان اسمه ـ وليس اسمها هي ـ منقوشاً على لوحة شكر.

صارت الانفجارات الآن مدوية لدرجة تؤذي الآذان. هل كانت ثوان التي تفصل بينها، أم دقائق؟ أم أنها بالفعل الموجة الثانية من الهجمات؟ تشبثت جارتي على الدكّة بي، برغم الضجيج أسمع دقات قلبها، أو قلبي أنا، تلقّفت يدي وطوّقتها: «يارب، يارب، أتوسل إليك!»

براندايس، دائماً براندايس مجدداً. وماذا أيضاً؟ الولادة الأولى، فهي تقودني إلى حدود المحتمل، يهيأ لي أنني سوف أموت حتماً، إلى هذا الحد الآلام شاقة، ورهيبة. يوجد طبيب على الجزيرة، الدكتور

فينك، الذي يتقاضى نصف أجره بوصفه مسئولاً حكومياً، مدمن خمر يصعب تحديد سنه، يصف الأسبيرين لعلاج الحرارة، وأقراص الفحم لحالات الإسهال، فيما عدا ذلك لا ينفع في الشيء الكثير. ومع ذلك فهو يعرف كيف يخيط الجروح، إذا لم تكن يداه ترتعشان بشدة، إثر لذّة كأس الخمر المسائي الأول. أما السكان الأصليون فلا يثقون به؛ يفضلون التوجه إلى معالجة على دراية بطب الأعشاب. مع بدء آلام الطلق، يستدعي براندايس الدكتور فينك. يفحصني بطريقة محرجة، بيديه تحت الغطاء، الذي كان ممدّداً فوقي، وقد ارتأيت الأمر مناسباً، ألا أتعرى أمامه تماماً. يتضح فيما بعد أنه لا تكاد تكون لديه أية فكرة عن أمراض النساء والتوليد؛ كل ما تبادر إلى ذهنه هو أن يطلب مني الدفع. أسمع نفسي أصرخ بصوت أعلى مع كل نوبة ألم جديدة. وجه الطبيب ذو اللحية الخفيفة فوقي، وقلة الحيلة في عيني براندايس، الذي يهرب مبتعداً عني ثم يعود مجدداً، لكي يسألني في كل مرة آمراً ومستجدياً في آن: «ألن ينتهي الأمر أخيراً؟» مع الوقت أفقد وعيي، والرجلان لايجدان سبيلاً سوى استدعاء المعالجة. إنها مسنة وممتلئة ولها يدان ساحرتان. ترسل الرجلين ـ على حد وعيي ـ اللذين يخضعان لأوامرها بمنتهى الوداعة إلى الخارج. بالتدليك بصورة متمرسة تقلب الطفل في وضع مختلف، بحيث يدخل الرأس أخيراً مجرى الولادة، تستدعي سيدتين من الخارج، تقفان على السرير لتضغطان كتفي إلى أسفل، بينما تجلس هي فوقي، فتعجّل الولادة عن طريق الضغط على الموضع الصحيح. في لحظة ما خلال ساعات الفجر أضم مولودتي قبل غسلها بين ذراعي. إنني متعبة حتى الإعياء، لا أريد سوى أن أنام، أن أغوص في النسيان. هذا المخلوق الجديد غريب علي. سوف تسمى ماري مارغاريتا، غريتشن، هذا هو ما يخطر ببالي. لا تتحمل القابلة

بويما فكرة أن يقوم الطبيب فينك بخياطة الجرح، تقول إنه سوف يبرأ من تلقاء نفسه، حسبما تترجم الخادمة، التي تعلمت قدراً معقولاً من الألمانية. المدهش أن الطبيب انصاع لأمرها في تلك المسألة أيضاً. صارت عينا براندايس المغرورقتين فجأة فوقي. لم أعد أقرأ فيهما قلة حيلة، بل خيبة أمل مُرّة، فقد كان ينتظر ـ وكيف يكون الأمر غير ذلك ـ ولداً. أشم رائحة الويسكي في أنفاسه، أشم رائحة دماء ومخاط، أشم رائحة زيت جوز الهند، الذي دلكت به بويما بطني، أرى ألواناً تتلألأ، عندما يرتفع جفناي الثقيلان، أسمع ديوكاً تصيح، وقبل كل شيء الأمواج: كل هذا يتحد في كواليس غريبة، أنا فيها أهذي وطفلتي المتسخة فوقي. حين أستفيق، يكون اليوم مشرقاً، تجرعني بويما شاياً مُرّاً، لم أثق يوماً في حياتي بأحد مثلها. كانت الطفلة حينئذ قد خمّمت، كما كانت ملفوفة على طريقة لف حديثي الولادة بشرشف ناعم. أسمع غريتشن تصرخ للمرة الأولى، صرخات ليست قوية، بل متذمرة ومتوسلة، تشعرني بألم في روحي.

لم أتعجب من عدم قدرتي على الإرضاع. تم العثور على مرضعة بسرعة، كانت غريتشن تُسلّم إلي في الأسابيع الأولى شبعانة وهادئة، كنت أهز الطفلة على ذراعي، حاولت أن أحبها من قلبي. كان الأمر يتحسن تدريجياً، وحين لاحت أول ابتسامة على وجهها الصغير، شعرت بسعادة غامرة. بدءاً من الشهر الثالث بدأت أرضع الصغيرة من الزجاجة، تعلمت أن أحملها في الوشاح مثل ساكنات الجزيرة، صارت بمثابة ما يشبه درعاً واقياً من براندايس، الذي خرمت جسدي عليه لفترة طويلة.

في تلك الأوقات كنت أفكر كثيراً بأمي، تخيلت كيف بدا الأمر بالنسبة لها، أن تنجب في تعاقب سريع ثلاثة أطفال، في هامبورغ، التي

بقيت غريبة عليها. لم تكن هناك بويما، بيدين متمرستين إلى جوارها؛ كانت قابلات ذلك الزمان مجرد مساعدات لأطباء النساء والتوليد المتسلطين. صحيح أنهم أعطوها القليل من مادة الكلوروفورم، لتسكين الألم. لكنها لم تحك عن ولاداتها سوى نفس القدر القليل الذي كانت تذكره عن هروبها من زنجبار. كلاهما طغت عليه الحادثة التي أدت إلى موت زوجها؛ فقد كرست له صفحات كثيرة ضمن الخطابات التي تركتها، كانت مفجعة، بحيث لا يكاد المرء يستطيع قراءتها حتى النهاية. ومع ذلك أريد ـ نعم، حتى الآن ـ أن أعرف، ماذا كانت تعني الولادات لأمي، بأي مشاعر استقبلتنا ـ نحن أبناءها الثلاثة ـ وكيف نجحت في تدبير أمورها قبل وفاة هاينريش مع ذلك العبء المضروب في ثلاثة. هل قامت بإرضاعنا؟ لم تتحدث عن ذلك أيضاً. رغم وجود خادمة بصحبتها طوال الوقت، إلا أنه كان يتعيّن ليل نهار تغيير الحفاضات وغسلها، وطهي الهريس، وتبديل القمصان الصغيرة، ومسح الدموع. كان أبي يعود في المساء من مكتب المحاسبة مرهقاً، يود أن يضع أطفالاً مهذبين ونظيفين على حجره برهةً، ثم يعيدهم بمجرد أن يضجروا؛ فإن تاجراً مجداً مثل هاينريش كان لديه ما يشغله خلال ساعات المساء كذلك. الصورة التي كنت أجلس فيها ـ أنا ذلك الشيء المنتفخ ـ متعرشّة بركبتيه، وهو يمسك بي بثقة، تبدو مصطنعة مثل كل الصور العائلية في العصر الفيلهيلميني. أكاد لا أتذكر أي شيء عن تلك الفترة. ولا حتى تلك الأيام القاتمة التي كان أبي خلالها يرقد محتضراً في المستشفى. نجحت إيميلي في الحصول على إذن استثنائي، لتقضي الليل والنهار إلى جواره. من الذي كان يتولى شؤوننا؟ زوجة أب هاينريش المتشددة، أم ليوني التي كانت تخدم في بيتنا وحدها؟ كنت ـ أنا الطفلة التي تبلغ ثلاث سنوات ـ أفتقد أبي، هكذا حكت لي ليوني،

عندما التقيت بها مجدداً بعد عدة أعوام، قالت إنني كنت أبحث عنه في كل مكان، كنت أكرر قول: «بابا، بابا»، ولم أكن أعي أنني كنت قد فقدته إلى الأبد.

كانت ابنتي الصغيرة تبلغ خمسة أشهر، حين انطلقت معه بصحبة أوربيين آخرين سئمين من المنطقة الاستوائية لقضاء فترة استجمام في ألمانيا، وحضور حفل زفاف سعيد على اليهودية ماريا ـ تيريزيا ماتياس. فقد كنت وعدته بذلك آنذاك في بيروت. لكن براندايس ما سمح بهذه الرحلة إلا لأن الدكتور فينك ـ الذي أراد أن يفلت من ولادة أخرى لأطول فترة ممكنة ـ نصح بذلك. كان براندايس دامع العينين فعلاً حين ودعنا بعضنا، لم أكن أتوقع منه ذلك. قبّل غريتشن على وجنتيها، وقبلني أنا قبلة رسمية على جبيني، لوح لنا عندما انطلقت السفينة، من على المرسى بمنديل كبير، بينما قرع بضعة من سكان الجزيرة الطبول، وفي هذه اللحظة بدا لي وحيداً مثلما لم أره في حياتي. لماذا عدت إليه بعد ذلك؟ أجل، كان بوسعي أن أنفصل عنه. لكنني خشيت الفضيحة، والجدل مع أمي، التي كانت وجهة نظرها، إن على المرء أن يثابر حتى في ظل حياة زوجية فاشلة. هكذا كانت النتيجة أن أحبلني براندايس مرة ثانية. في شهر أغسطس ١٩٠٤ ولدت ابنتي يولي يوهانا. غريتشن ويوهانا، لقد انغمستا منذ زمن في حياتهما الخاصة. أما حياتي فتبدو لي أحياناً كحالة فريدة من الحيرة. ربما لم أعرف أبداً الأرض التي كنت أقف عليها في واقع الأمر.

غريب كيف تتداخل الذكريات. مدرسة رندسبورغ الكولونيالية التي ساعدت في تأسيسها. الطالبات بالقمصان البيضاء المنشّاة، بالمئازر الزرقاء الطويلة التي تلامس الأرض، وغطاء الرأس، تلوّحن مبتهجات. نشر الثقافة الألمانية في الخارج، كُتب ذلك بالطبشور بخط منمق على

إحدى اللوحات على الحائط. تتدربن بحماس ـ متأرجحة أذرعهن ـ على السير في أربعة صفوف. تطعمن الأوز، تمشّطن ذيول الخيل، وتطبخن حساء اللحم. تحيين السفن المارة من قناة كيل بين بحر الشمال وبحر البلطيق بالأغاني. الإسعافات الأولية اثنتين، اثنتين، تضميد الجراج بالطريقة الصحيحة، تلك الضحكات شديدة الابتهاج. وأنا؟ هل أريد ـ بكل هذا القدر من التعليم ـ أن أرحل مرة أخرى إلى منطقة جنوب المحيط الهادئ؟ هل كنت لأستطيع في المحاولة الثانية أن أعرّف براندايس حدوده؟ هل كنت لأصير أماً أفضل وأطيب لبناتي؟ دائماً ما تأتي متأخرة تلك الحقيقة المرة، أن الإنسان يستطيع أن يعيش حياته مرة واحدة فقط. ليس هناك تداخل كما في الأفلام، ولا إعادات كما في التدريبات المسرحية. يتقدم المرء في الحياة ويكون أحياناً أعمى. الإخوة يتباعدون ويفوّتون على أنفسهم فرصة التقارب مرة أخرى. كان من الممكن أن يحدث ذلك عند قبر أمنا. البرودة في مدافن أولسدورف، كانت الريح تلدغ وجوهنا بحزم. لكن ماذا عساه يكون ذلك النخيل المتجلى فجأة أمام عيني؟ وغريتشن على ذراعي؟ لماذا يطلبني لودفيغ موند البغيض للرقص؟ هناك تلك القبلة في ركن القاعة المظلم، تلك القبلة الوحيدة. الرحلة إلى ترييستي، ضجيج عربات النوم. العاصفة في البحر الأحمر. إيميلي التي تعود تتحول إلى سلمى، وخطواتها شبه الراقصة. الأم دائماً. وأنا بكل خجلي.

أزيز، وصافرة، وانفجارات، قوية جداً لدرجة أن أسوار المخبأ تتحرك، والدكّة تقفز مقدار شبر إلى الأعلى، أنا وهي، صراخ. أحتاج للهواء. الآن يصير الفزع قهّاراً بالفعل. فرقعة تصم الآذان. أسمع: «السقف، السقف!» طنين، خبطة، فراغ، عتمة.

٤

حين كنتَ في لندن، لم أتردد ساعة واحدة، تركت أبنائي في رعاية بعض الأقارب، وسافرت إلى لندن. كان همي الوحيد، أن أجلب لْك أنت ـ أخي ـ المنفعة. حين وصلت إلى لندن، كنت قد أنفقت بالفعل قدراً لا بأس به من أموالي، وساعتها سد الموظفون البريطانيون أمامي الطريق إليك بكل السبل. ذلك لأنهم كانوا يخشون أن أشرح لك حقيقة نواياهم، وهكذا أعاقوا كذلك إمكانية أن نتصالح من جديد.

الجبال غائمة، يبحث النظر عن محطّ بين خطوط المحيط المألوفة، يتوه في الخطوط البينية الغامضة بين الضباب والسحب. قطعة الغابة التي تفسح لها المجال حتى ذلك الحين: نغمة قاتمة بين مقامات متداخلة.

يجلس رودولف، بالرداء الحريري الأزرق، إلى المائدة المستديرة المجهزة. شعر بالبيضة المخفوقة ثقيلة عليه، بالكاد قضم الخبز، أعاد نصفه داخل المنديل المطوي بعناية. يشرب الشاي على رشفات صغيرة، محلى جيداً، بالذهب الأبيض. شاي آسام على الإفطار، وإيرل جراي أو دارجيلينغ بعد الظهيرة، كان قد تعوّد على ذلك في مصر، لاحقاً في لندن تعلم التمييز بين القطفة الأولى والثانية. في

سنوات القحط مع أمه لم يكن هناك سوى خلطات شرق فريزية فظة من الفرز الثالث، كل ماعدا ذلك كان باهظ الثمن، ومع ذلك ينبع حبه للشاي الأسود من هاتيك الفترة. فأن يضم المرء بين يديه في الشتاء فنجاناً ساخناً، ليشم ذلك العبق المُرّ كالشعير المتصاعد منه، هو أمر يمنح شعوراً بالآمان. حتى لو لم يتحمل السخونة ويضطر لإعادة وضع الفنجان مكانه، فإن كفاه تظلان محتفظتين بالدفء لبعض الوقت، كأن ما يشبه طمأنينة صيفية قد اشتعلت فيهما. يحاول الآن تكرار هذه اللعبة؛ لكن الشاي قد صار بالفعل فاتراً، والخزف صار ملمسه ناعماً ومنفراً.

هل يزور تيريز اليوم؟ هل يجلس إلى جوار فراش المرض الذي ترقد عليه، ليصغي لأنفاسها المتقطعة؟ كلا، إنه بحاجة لسماء مفتوحة، لكي يتحمل هذه الرحلة. إنه يريد أن يكرس هذا الصباح للعبة أخرى، مشهد مسرحي مصنوع، يريد أن يكافئ نفسه به اليوم، لكن ليس قبل أن تكون الخادمة قد رفعت أواني الإفطار؛ فإن ما يخطط له لا يجب أن يقاطعه خلاله أحد. يرن الجرس، ينتظر فتاة كانتون أوري، التي ترفع الغطاء الأبيض برشاقة.

«لم تأكل سوى هذا الكم القليل!» - تقول ذلك معاتبة، وتترك المقطع الأخير في تشكك.

يرد رودولف: «لست جائعاً، فلتتركي الشاي هنا من فضلك». غير مبالية بالقعقعة تعيد الفتاة الأطباق الصغيرة والكبيرة، وأدوات المائدة، وزبديات المربّى والزبد على الصينية الفضية، وتتمنى له قبل أن تذهب، بابتسامة ماكرة، يوماً جميلاً حقاً.

حان وقت ارتداء الملابس الرسمية. في الخزانة كانت بدلة السهرة

معلقة، تلك التي كانت رفيقة السفر دائماً في الحقيبة الكبيرة، حتى وإن كان لم يعد بالكاد يرتديها. كان قد فصّلها منذ عشرين عاماً، خصيصاً من أجل دعوة السلطان تيمور حاكم عُمان ومسقط، الذي كان في زيارة رسمية إلى لندن في شهر سبتمبر ١٩٢٨. بعد العديد من المحاولات الفاشلة تم قبول رودولف أخيراً رسميّاً ضمن عائلة أمه. ولم يعد بالإمكان بعدها تجاهل نسبه أكثر من ذلك إلى شجرة عائلة آل بو سعيد؛ كانت تلك في الحقيقة مصالحة ضمنية مع إيميلي. بعدها بثلاثة أعوام منحه السلطان خليفة حاكم زنجبار لقب «سمو السيد»، وهو ما كان بالنسبة له ـ هو رودولف سعيد رويته ـ بمثابة التتويج؛ كان ذلك أكثر يوم في حياته تمنّى فيه أن تكون أمه على قيد الحياة.

يتعيّن عليه أن يتلوّى بالقدر المناسب، لكي ينسل داخل السروال، والقميص، والصديري. تتمرد مفاصل الركب والأرداف ضد ذلك الجهد، لكنه مع ذلك يضبط الياقة الضخمة، والسترة، وياقة الصديري أمام مرآة الخزانة، ويعقد ربطة العنق البيضاء. صحيح أن السروال صار مشحماً بعض الشيء، لكن أزرار اللؤلؤ احتفظت بلمعتها. يذهب حافي القدمين إلا من الجوارب إلى المكتب، يخرج علبة المصاغ من الدرج الأعلى، ويفتح الغطاء. بداخلها توجد أوْسمته على قطيفة حمراء. عددها ستة، يعرفها حتى وإن كان مغمض العينين، بمجرد اللمس يستطيع أن يميزها: وسام النسر البروسي من الدرجة الرابعة، ووسام الشمس من بلاد فارس، ووسامان من الدولة العثمانية التي لم يعد لها وجود، ووسام النجم الساطع من زنجبار، ووسام آل بو سعيد من عُمان. لؤلؤ، ومينا، وفضة، وزخرف من العقيق والماس، وأشرطة مطرزة بفخامة. يعلق لنفسه وساماً تلو الآخر على السترة السوداء. عمل شاق لأصابعه التي لم تعد بالضرورة مرنة؛ فإن عليه أن يسوق الإبرة

المعقوفة بحرص عبر القماش، حتى يسمع نقرها على قوس التثبيت. أما وسام النجم الساطع فيشبكه على الشريط الحريري حول رقبته. كانت تيريز تساعده في كل ذلك سابقاً، لكنه ينجز المهمّة في ضعف الوقت بمفرده. فكرة أن تبقى الخادمة إلى جواره منتهية، كان ذلك ليجعل من الرجل المسن - الذي يريد كما هو واضح أن يتباهى بنفسه - سراً أضحوكة. بعد ذلك أتم آخر استعداداته، سوّى ما تبقى من إكليل من الشَّعر على رأسه ببعض الفزلين، والآن يقف متخذا وضعه أمام المرآة، بل إنه يضيء نور المصباح الجانبي كذلك، يشده ناحيته، لكي يبرز الضوء صورته بشكل أفضل. رجل مسن جليل، بلا شك، إن به شيء بطريركي، حتى وإن كانت تنقصه تلك الهيبة التي يمتلكها لودفيغ موند، خال زوجته. لكنه بهذا المظهر يشرف جده المُعظّم - سعيد بن سلطان - الذي لا يعرفه سوى من خلال الصور، بالتأكيد. أي نعم، هاهنا يقف هو، رودولف سعيد رويته كشخصية عامة. بعض من ذوي السلطة كانوا يقدرونه. يبدو مرهقاً، عيناه مظللتان وغاطستان في محجريهما، وعلى فمه تعبير مُرّ. كان عليه أن يهذب شاربه، أو ربما أن يصبغه. فيما عدا أنفه الطويل، يصعب تمييز شيء غريب بين ملامحه؛ كونه يشبه أمه فهذا أمر لم يدعيه أحد سوى أختيه، وأحياناً عمه يوهان بنبرة استهزاء. دم ألماني من هامبورغ، وجركسي، وعربي: أثر هذا المزيج على وجدانه أكثر بكثير مما أثر على صفاته الظاهرية ولون بشرته.

الظاهر، ما يمثل المرء. لقد عوّل على ذلك الكثير. ولكن ما نفع ذلك في نهاية العمر؟ حينئذ تتسلل من الباب الخلفي الأفكار الكئيبة، التي كان لتوه يحاول طردها. كثيراً ما كان يساء فهمه، ويُتّهَمُ أنه أراد فقط أن يبرز مجهوداته، للحصول على منصب براتب جيد في عصبة

الأمم أو في إحدى منظمات السلام. كلها حماقات! كان يأخذ الأمر على محمل الجد، كم عانى من أن نسَّرت إنجلترا وألمانيا كل منهما الأخرى في حربين رهيبتين. وصدقاً أعيته مسألة أن اليهود والعرب في فلسطين لم يجدوا أرضية مشتركة للتعايش السلمي. حتى أقاربه المقربين كانوا يهزون رؤوسهم ويتجنبون صحبته. أحد زوجي أختيه ـ ترومر ـ حرّم عليه بيته، والآخر ـ براندايس ـ كان ليتمنّى دعوته للمبارزة.

يلوي فمه لينبئ عن تكشيرة. أجل، هذا أيضاً هو، الرجل المسن في المرآة: شخص فاشل، شخص كان قد حاول أن يسبح ضد التيار، وأن يناضل خلال ذلك من أجل النفس. ولا أي وسام في العالم يستطيع أن يغيّر وجهة النظر تلك. الآن فقط يخطر له أنه نسي أن ينزلق بقدمه داخل حذائه الجلدي اللامع؛ فهو يقف بالبدلة الرسمية والجوارب هنا، ياله من منظر مبتذل يشبه شخصية المهرج هانس فورست! يغلق ضلفة الخزانة، فيخفي بذلك صورته في المرآة. يخلع البدلة الرسمية بسرعة، يرمي القطع المتفرقة على ظهور المقاعد. أما الأوسمة فيتركها تخشخش في العلبة، وكأنها حلي رخيصة لا قيمة لها، ويعيدها إلى الدرج إلى جوار كومة من الصور والبطاقات التي يربطها شريط عريض من المطاط. أما غواية أن يضع علامة على الرجل المهم، فهو يعلم أنها لن تنتابه حالياً، ولفترة من الوقت. يمد يده إلى كومة الصور، ينزع عنها الشريط المطاطي، ويفرق الصور بإبهامه كما يفعل في لعبة الأوراق؛ يسحب صورة الملازم فون دومبروفسكي، مذيلة بإهداء مفعم بالحيوية: «إلى سعيد، الذي أثق به كثيراً. تعيش الصداقة. ـ ف. د». الوجه الطيب ذو السوالف، سترة الزي الرسمي بصف الأزرار المزدوج: لتلك الصورة ذيول متشابكة من الذكريات الأليمة. يدافع عن نفسه في مواجهتها، لكن الطريق يؤدي إلى زنجبار، وإلا فإلى أين؟!

سارت الرحلة في كتمان تام. لم يكن أحد في المدرسة الحربية في ليشترفيلده يعلم، لماذا تم إعفاء سعيد فجأة لمدة غير محددة. جاءت الأوامر من أعلى المستويات، جاء ضباط لم يكن يعرفهم لاصطحابه في الساعات الأولى من المساء، سمحوا له بحزم بعض الأساسيات فقط من أمتعته. خارج المدرسة الحربية أعطوه ملابس مدنية، تعيّن عليه ارتداؤها على الفور في الغرفة الخلفية لأحد الفنادق الصغيرة. كانت في حالة من الفزع الرهيب، لدرجة أن كست وجهه بقع حمراء. عرف أنه حان وقت أن يتحقق، ما كانت أمه قد خططت له منذ زمن. حدث ذلك لأن خططها تقاطعت فجأة مع نوايا الحكومة. كما أنه بدعم ألمانيا القوي سوف تنجح بالتأكيد مسألة التوصل لمصالحة بينها وبين أخيها غير الشقيق برغش ـ الذي كان قد صار حينها سلطاناً منذ فترة ـ والمطالبة بنصيبها في الميراث. صحيح أن الشريعة لا تعترف لمسلمة مرتدة بأية حقوق؛ لكن السلطان بإمكانه ـ إذا ما أراد ـ تجاوز هذه المسألة، على سبيل العفو، هذا ما أكده لها المستشرقون الذين كانوا على دراية بالشريعة الإسلامية.

تم إيصال سعيد إلى محطة ليرتر، وتوجيهه عبر الزحام إلى الرصيف، حيث وقف القطار المسافر إلى بريسلاو. في عربة النوم كانت الأم في انتظاره بصحبة أختيه. كانت إيميلي قد اشترطت أن يأتي أبناؤها الثلاثة معها، فلابد أن يروا ويشهدوا، من أين كانت أصولها. بالإضافة إلى ذلك، فإن الابن ـ وهو ما لم يعرفه سعيد سوى لاحقاً ـ كان بمثابة أداة ضغط بالنسبة للسياسة الاستعمارية الألمانية. كان الأمر يتعلق بالمناطق الشرق أفريقية، التي كانت خاضعة لهيمنة سلطان عُمان وزنجبار منذ عقود. كان الرحالة والمغامر معدوم الضمير كارل بيترس، مؤسس الجمعية الاستعمارية الألمانية قد تعاقد مع مختلف القادة هناك،

وأقنعهم بالتوقيع بالموافقة على الحماية الألمانية. كونهم بذلك يتركون أرضهم تحت تصرف الغرباء بالكامل، فذلك أمر مستحيل أن يكونوا قد فطنوه. بعد شيء من التردد كان بيسمارك قد قرر إعلام مشروعية العقود، وإجبار برغش الغاضب على الالتزام بها، باللجوء للوسائل العسكرية إذا استدعى الأمر، مع الحرص على عدم إثارة سخط إنجلترا بلا داع. لم يكن فقط وجود الأسطول الحربي الألماني، بل كذلك احتمال تنصيب ابن إيميلي وليّاً للعهد، هو ما كان ليدفع برغش للتنازل. الآن، بعد مرور ستين عاماً، بدا هذا التكتيك لرودولف وقحاً، متعجرفاً. كيف لاستعماري غادر من نسل عائلة بيترس بخدعته الدنيئة أن يجعل القنصل ـ وبذلك بلداً كاملاً ـ يسير خلفه؟ ولماذا كان رجال عقلاء في جوهرهم مثل العم يوهان والأستاذ فيرت المدرس يحتفون بكارل بيترس بوصفه بطلاً؟

لم يكن الفتى ذو الستة عشر عاماً، الذي عانق أمه بجموح، يفطن لمثل هذه التربيطات السياسية سوى بصورة جزئية. كان يدرك تماماً جذوره العربية الأفريقية؛ ومع ذلك أبهره شخص مثل بيترس. وفي الوقت نفسه كان قد استنتج من تلميحات أمه، أنه ـ هو حفيد السلطان سعيد بن سلطان العظيم ـ لديه الفرصة نظرياً يوماً ما ـ أو ربما في القريب العاجل؟ ـ أن يعتلي عرش زنجبار. في الحقيقة كانت تلك فكرة عبثية: أن يصير هو، الألماني الذي لا يعرف شيئاً عن اللغة العربية، حاكماً على مملكة لا يعرفها. عبثية ومغرية، أجل، فهو تصور يملأه بإباء قلق.

لكن كم كانت رائحة أمه مألوفة له! الثوب الصيفي المخضّر فاح بعطر صابون اللافندر ورائحة عرقها اللاذعة، والأصابع، التي كانت تمربها على وجنتيه بحنان، فاحت بشيء من عبق خلطة الكاري التي

كانت تستجلبها من هولندا منذ زمن طويل، ومن شعرها الناعم لامع الدكنة، الذي صففته مفروقاً في المنتصف مرة أخرى، فاح عبق زيت جوز الهند مع نفحة من عطر الليمون. أيقظ ذلك العناق الكثير ألف ذكرى بداخله، بحيث شعر للحظة كأنه عاد طفلاً صغيراً، يود أن يُحمل ويُضم. تداخلت أحاديثهم، بعدما رص سعيد أمتعته، لهذه الدرجة كان هناك الكثير مما يمكن سرده على ضوء مصباح الزيت، الكثير مما يمكن استدراكه وتوقعه. سادت بينهم حالة مبهجة من الشعور بالانطلاق الكبير، أو بالأحرى الرحلة إلى المجهول، فحتى إيميلي لم تكن تعلم كيف سيتم استقبالها على الجزيرة.

قالت: «أحياناً يتعين على المرء أن يراهن بكل ما لديه على ورقة واحدة. لقد فعلت ذلك مرة، وسوف أكرر فعله مرة أخرى». ثم ملست على وجنة سعيد مجدداً: «لقد نمى لك بالفعل ـ ما اسمه؟ ـ شعر خفيف، يا بني..».

«زغب» ـ تدخلت روزا في الحديث ضاحكة.

«زغب» ـ كررت إيميلي منخرطة معها في الضحك ـ «كم يمضي الوقت حقاً!»

كانت الأسرة ـ كل سريرين فوق بعضهما ـ ضيقة، كان لابد من فتح السرير الأعلى بدفعه إلى الأسفل بطريقة معقدة. استلقوا بملابسهم نفسها، وأطفأت طوني الضوء. نام سعيد على سرير فوق سرير أمه، التي كانت تتنهد أثناء نومها، وتتمتم بكلام غير مفهوم. أبقته شدة الإثارة مؤرقاً. جعلته شديد الحساسية؛ حين كان يتقلب، كان كل موضع في جسده يؤلمه، وكل الأصوات التي تسللت إليه ـ حديث بعض الركاب في الممر بالخارج، رنة جرس إحدى المحطات، صرير عجلات القطار

ـ كانت تفزعه بشكل مضحك. بعدها مر مجدداً محصل التذاكر الليلي بخطىً ثقيلة. خطوط من الضوء سرت إلى الداخل، أخذت ترتعش وتنزلق مبتعدة عنه. راحت أفكار سعيد تجول هنا وهناك على غير هدى. ماذا سيكون مصيره الآن؟ رجل متميز بارز؟ ألم يكن الأسهل أن يرتضي بمكانه ملازماً في الجيش الألماني، وأن يعرف إلى أين منتهاه؟ شعر بضيق نَفَسه، فنزل من على فراشه، فتح ثغرة صغيرة في النافذة الجرارة، وترك وجهه لريح القطار تبرده. حين عاد ليستلقي على فراشه مرة أخرى، سمع نقراً، حركة أصابع، ثم أُغلِقت النافذة.

«طوني؟» ـ سأل هامساً ـ «هل هذا أنت؟ إن الطقس حار جداً هنا بالداخل».

أجابت بنفس النبرة الهامسة: «أنا لا أحب أن تنفخ الريح في وجهي».

لم يجد بداً من أن يبتسم. «ألا تستطيعين النوم أنت أيضاً؟»

قالت: «ستكون المعجزة لو أننا استطعنا ذلك».

أصغى أذنيه إلى الأسفل، إلى أنفاس إيميلي. «أمنا تستطيع».

«إنها متعبة. ألم تلحظ ذلك؟»

«رجاءً» ـ قاطعتهما روزا ـ «هلا التزمتما الصمت أخيراً؟ لقد أيقظتماني».

ساد الهدوء، إلا أن صخب القطار الماضي في طريقه كان ينبئ عن استمرار الرحلة، وعن أنهم سوف يصلون إلى مكان ما.

في بريسلاو، في الصباح الباكر، بدلوا القطار وسعدوا بأن عاونهم اثنان من الحمّالين، كانا أصغر سناً من سعيد. فإن الحقيبة الكبيرة وحقيبة الظهر الخاصة بسعيد، وكل حقائب اليد والصناديق الإضافية

شغلت مساحة كبيرة وكان وزنها لا يستهان به. أرادت إيميلي أن تصطحب معها نصف البيت تقريباً في هذه الرحلة. أسرت طوني إلى أخيها بما قد يخطر بالبال عن احتمالية أن تكون لدى أمهما نية البقاء في زنجبار، سواء بصحبة أبنائها أو من دونهم.

كانت فيينا هي محطة تبديل القطار التالية بُعيْد الظهيرة. بعدها استمرت الرحلة مروراً بزالسبورغ وليوبليانا وصولاً إلى تريستي. قضوا ليلة أخرى في القطار، كانت الرفاهية أقل، حاولوا أن يغفوا قليلاً على المقاعد غير المريحة. في الفندق التي حجزت فيه إيميلي الغرف عن طريق إرسال برقية، التقوا بالآنسة لابوسكه، كانت قد سافرت من لندن إلى تريستي لتتولى مهمة مرافقة إيميلي في الأسابيع التالية. أما سبب إصرار الأم - في هذه السن - على اتخاذ رفيقة لها خلال الرحلة، فهذا ما لم يكن مفهوماً للأبناء؛ فلم تكن قد رأت أوتيلي لابوسكى من قبل أبداً. أفصحت إيميلي في تصريح مبهم عن أنها كانت تعرفها في السابق، من أيام كانت تعمل موظفة لدى شركة هانزينغ وشركاه. كانتا تتبادلان الرسائل، كما كانتا تخططان منذ زمن لرحلة مشتركة إلى مصر. كانت الأم قد شددت على أبنائها منذما قبل ألا يفصحوا لأوتيلي بعد عن الوجهة الحقيقية للرحلة. لكن الشك كان يراود سعيد في أن تكون الآنسة لابوسكه مراقبة مكلفة من السلطات الألمانية، كان عليها أن تبدو بريئة بقدر الإمكان. إلا أنه لم يلبث أن اتضح بعد فترة قصيرة، أنها تمتلك حساً فكاهياً لاذعاً، وأنها في العموم شخصية محنّكة جداً ولديها خبرة بشئون السفر.

أبحروا على متن سفينة «فينوس»؛ ثم وصلوا بعد خمسة أيام - بعد استراحة في كورفو، وفي ظل أجواء بحرية هادئة - إلى الإسكندرية. كانت تلك أول مدينة شرقية يتملاّها سعيد، أجل، كان إلى جوار إيميلي

منهمكاً، ابتلعته أتراسها، حشود البشر، صخبهم البهيج، الحارات الضيقة، حيث كانت الحمير والماعز تجول بكل حرية. كان كل ذلك غريباً على نحو مخيف، وكان مألوفاً كأنما كانت حكايات أمه عن المآذن والقصور قد رسمت في نفسه صوراً منذ زمن بعيد، أخذت تتجسد الآن. أما هي ـ إيميلي ـ فقد ازدهرت كما لم يكن ليخطر لسعيد أبداً. حولتها اللغة العربية إلى إنسان آخر مفعم بالطاقة، راحت تترجم ضاحكة للأولاد وللآنسة لابوسكه المشدوهة، ما كان الحديث يدور حوله. التف الناس حولها، رجال يعرضون خدماتهم، نساء بأغطية الرأس، وأخذوا يسألون من أين تأتي إيميلي. ربما من بغداد؟ هناك يتحدثون بلهجة جميلة مثل تلك.

يستأجرون عربة؛ بالإيماء وبوابل من المقاطع الرنانة تفاوضت إيميلي على تخفيض السعر. الطريق من غابة الصواري في الميناء إلى قلب المدينة كان محفوفاً بالمباني المتهدمة. طوال الطريق كان العربجي المتذمر يضطر لتفادي كتل الحجارة والحطام، التي لم تكن قد أزيلت بعد. فمنذما قبل ثلاثة أعوام كان الإنجليز قد دمروا المدينة من جهة البحر، وقاموا بطرد القوات المصرية المتمركزة هناك. أخذ سعيد يحاضرهم عن أن مصر التي كانت ولاية شبه مستقلة تابعة للدولة العثمانية، كانت قد راكمت قدرا هائلاً من الديون أثناء حفر قناة السويس؛ وقد أصرّت كل من فرنسا وإنجلترا ـ وهما الدولتان المقرضتان الرئيستان ـ على السداد. أدى ذلك إلى رفع الضرائب بصورة جسيمة، فثارت ضد ذلك حركة شعبية، ووصل الأمر إلى حدوث اعتداءات ضد البريطانيين، ما استتبعه في النهاية تدخّلهم، واحتلال البلاد، وهو ما أثار استياء بيسمارك. بينما كانوا يتخضخضون يميناً ويساراً في العربة، راحت الأختان تهزآن من سعيد بسبب معرفته

الرفيعة، التي كان يودّ أن يلمّع نفسه من خلالها الآن. قالت إيميلي إنه لا عجب أن يكون الإنجليز مكروهين هنا إلى هذا الحد، فإن نائب الملك ليس سوى دمية بين أيديهم، وإن الملامح في كل مكان كانت تشرق، حين يسمع الناس أنهم قادمون من ألمانيا.

وجدوا فندقاً رخيصاً، أخرجوا بعض الملابس الخفيفة من حقائبهم، وخرجوا بعد ذلك يتمشون في ضوء المساء. كانوا يتنقلون من الظل إلى النور ومن النور إلى الظل مرة أخرى. تحت إحدى النخلات على الشاطئ شربوا مشروب الشربات بنكهة النعناع، قدمه لهم بائع متجول، وأكلوا خبزاً عربياً مرقشاً بالبني الداكن. دفعت الأم من النقود المعدنية المحلية، كانت بطريقة ما غير مفهومة قد استقرت في حقيبتها. في البداية سمع سعيد نداءات المؤذن. رأى رجالاً على مقربة منهم يفردون سجادات الصلاة، يركعون، ويستقيمون تماما، ينبسطون بالكامل، ثم ينهضون مجدداً. تعجبت إيميلي؛ فإن الأصل أن يتوجه المصلون إلى المسجد، وأحس سعيد أنه استشعر بداخلها انجذاباً وحنيناً لعقيدة أسلافها. فقد بدت مسحة من البؤس على وجهها، الذي ما لبث أن بدا مرتاحاً ومرحاً.

مراراً أثناء الليل أيقظ سعيد ـ الذي كان ينام على حصيرة ـ نباح الكلاب. سرب كامل بدا أنه يجول المدينة بلا راع. تزايد النباح متعدد الأصوات حتى تحول إلى صياح وعويل محموم، ظل يقترب ويبتعد، توقف فجأة، ثم بدأ من جديد. خطا إلى النافذة المفتوحة، رأى القمر، سابحاً بين السحب الناصعة؛ بحياته لم تبدُ له السماء بهذه الضخامة وبهذا العلو. كانت مدرسة ليشترفيلده الحربية حينئذٍ بعيدة جداً، كأنما غرقت في أعماق البحر.

أكملوا رحلتهم البحرية إلى بورسعيد. تم الآن وضع الآنسة لابوسكه في الصورة، وإبلاغها بالوجهة الحقيقية للرحلة. اضطربت في البداية، وهددت بقطع الرحلة، إلا أنها لم تلبث أن امتثلت؛ فقد قالت إن زنجبار كذلك تعد وجهةً مثيرةً، وإنها تتفهم رغبة إيميلي في رؤية وطنها الأصلي مرة أخرى. اعتبر سعيد هذا التبرير رياءً، كان مقتنعاً بأن الآنسة لابوسكه كانت على علم تام منذ البداية.

في بورسعيد استقبلهم الملازم فون دومبروفسكي، ربان سفينة «النسر»، واصطحبهم على الفور على متن سفينة الإمدادات، ذات الصواري الثلاثة والمحرك البخاري الإضافي، التي كانت بالأساس تخدم هدف نقل الخراف بين ميناء بريمر وإنجلترا. كانت السفينة قد تم استئجارها من قبل القوات البحرية القيصرية خصيصاً من أجل عائلة رويته ومرافقتها، ولم تكن تخصص للركاب سوى بشكل مؤقت. في المساء نفسه أبحرت «النسر» على ضوء كشافات الملاحة البحرية، عابرة المرسى الطويل، إلى داخل القناة. تم تقديم إيميلي للطاقم - الذي تضمن ثلاثة رجال سود - بوصفها السيدة كوهلر، التي كانت في رحلة تجارية من أسبانيا إلى سيلون بصحبة أبنائها الثلاثة. أخذت تتحاور مع البحار الأسود بحماس، وابتهاج تام، وهو ما بدا أنه أثار استياء دومبروفسكي.

الحجرتان اللتان كانتا بلا نوافذ، وكان على المسافرين الخمسة أن يتشاركوهما، كانتا ضيقتين ورطبتين؛ إجمالاً كانت رائحتهما نفّاذة، مثل رائحة السفينة كلها، تفوح بروث الخراف. فضل سعيد البقاء على السطح، حيث كان بإمكانه أن يتنفس بشكل أفضل. وقد أذن له دومبروفسكي - الرجل الاجتماعي، ذو السوالف الكستنائية - أن ينام هناك بالفعل على حصيرة.

حلّ الليل، وكانت أضواء بورسعيد قد اختفت، ولم يبق حينئذٍ سوى وهج نيران المعسكرات. كان دومبروفسكي أثناء دوريات المراقبة التي يقوم بها يقف عادة مع سعيد، يتبادل معه بعض الجُمل. أحياناً كانت السيدات أيضاً يشعرن بحاجة لاستنشاق بعض الهواء، فيبقين - سواء فرادى أو كل اثنتين معاً - بصحبة سعيد لبعض الوقت. الأختان أيضاً لم تكادا تستطيعان النوم، إما بسبب الإثارة أو ارتفاع درجة الحرارة، التي لم تنخفض أثناء الليل الطويل. وحدها إيميلي بدا أن الحرارة لا تزعجها. كانت تشعر بأن ذلك الطقس ينعشها؛ قالت إن الأمر يبدو كأن شيئاً مألوفاً جداً يتلبسّها.

«لعلها تكون روحاً طيبة» - تندرّت عليها الآنسة لابوسكه.

«ولِمَ لا؟» - ردت إيميلي - «في حكاياتنا القديمة توجد الكثير من الأرواح الطيبة، والشريرة أيضاً».

حكايات*نا* القديمة. بمرور ساعة تلو الأخرى - هكذا استشعر سعيد الأمر - كان غشاء إيميلي الألماني يصير أكثر شفافيةً، وتتقدم سلمى إلى الصدارة بوضوح. لكن إلى أين يمكن أن ينتهي ذلك؟

حتى دومبروفسكي كان يشعر بحرارة الطقس، ومع ذلك، ورغم سماحه للبحارين بالتخفف من الزي الرسمي، فإنه لا يجيز لنفسه حتى أن يفتح أزرار السترة الرسمية أو يرخي الياقة قليلاً. قال لسعيد: «يجب عليك وأنت القائد أن تحفظ النظام، في كل الظروف. هكذا فقط تصبح مثالا، يأخذه مرؤوسوه على محمل الجد، سوف تخبر ذلك بنفسك قريبا». هزّ سعيد رأسه، كان سعيداً بكونه يرتدي قميصاً وسروالاً خفيفاً فحسب. إلا أنه كان لذلك عيب، وهو كونه يضطر طوال الوقت لضرب البعوض الذي كان يزعجه.

«هذه القناة هي أحد مشروعات القرن» ـ علق دومبروفسكي بذلك عابراً لدى توقفهم عند المحطة التالية ـ «للأسف لم يكن الفضل فيه لفنون الهندسة الألمانية».

«فرناند دي ليسيبس» ـ قال سعيد بجدّ ـ «هكذا يدعى منشؤه».

«شرطاً أنه فرنسي بالذات. حسناً، نحن الألمان علينا أن نتدارك الكثير. لابد ألا نستهين بالأفكار العملاقة، أما كان مصدرها. وبغض النظر عن ذلك فقد قام مئات الآلاف من المصريين بالحفر في الرمال، لم يكن هذا عمل دي ليسيبس شخصياً».

ضحك الاثنان، ثم انسحب دومبروفسكي ليعود ـ حسب قوله ـ للراحة الليلية القصيرة. ارتجف سعيد حينئذ بالفعل، وهو شيء مدهش إن كانت الحرارة تبلغ ٢٥ درجة مئوية؛ فرد الغطاء الذي كانت إيميلي قد جلبته معها، ولفه حول جسده. حين لاح الفجر، راوده شعور بأنه لم ينم ولا لحظة واحدة. أشرقت الشمس؛ أخذت الشواطئ الرملية المنبسطة على ضفتي القناة تظهر تدريجياً زاهية ألوانها، كانت تتحول بين البنفسجي والبرتقالي المائل إلى الأحمر، ثم إلى الذهبي الساطع، الذي كان يمكث بضعة دقائق قبل أن يتحول بعد برهة إلى الأصفر الشاحب الباهت. سمع أصوات الطاقم المستيقظ لتوّه، سمع الدقدقة والهسهسة من غرفة الغلايات، ورأى سفينتين أو ثلاثة واقفات عند الحاجز، أحداهما كانت قد أبحرت وراء «النسر»، وأخرى كانت أمامها تجر راية طويلة من الدخان، كانت تبحر مبتعدة عنها، ورأى عند الشاطئ جمالاً تحمل البضائع، تقترب ثم تختفي مجدداً، وفلاحين ملوّحين في أردية طويلة بيضاء. انزلاق عبر الممر المائي الشاسع، كنا نتقدم بثبات إلى الأمام ولا ندرك ذلك إلا بقدر. خلفه على مسافة بعيدة

كانت أيام المدرسة الحربية الرتيبة؛ بدت العودة إليها يوماً ما في حكم المستحيل.

من دقيقة إلى دقيقة كانت الحرارة تشتد. بحار شاب، عربي، بالكاد أكبر سناً من سعيد، أحضر له فنجان شاي محلّى بقشدة. بعدها ظهر كذلك دومبروفسكي مجدداً، تحديداً عندما بدأت القناة تتسع منفتحةً على بحيرة. بدا الملازم ناعساً، رغم ذقنه المحلوقة ورائحة كولونيا الحلاقة.

قال: «بحيرة التمساح. مياه راكدة ممزوجة بمياه البحر المالحة، على عمق ثمانية أمتار. سيتبعها بعد البحيرات المرّة، الكبيرة والصغيرة».

عاد سعيد بشكل تلقائي إلى دور التلميذ: «٤٥٠ متر مربع هي المساحة الكاملة حسب النظام المتري الجديد، لكنها لا تقارن ببحيرات أفريقيا الكبيرة».

تبسم دومبروفسكي، واهتزت سوالفه قليلاً: «لقد قمتم بالتحضير جيداً للرحلة»

تجاوز سعيد عن إحراجه: «جغرافياً نعم. بحيرة فيكتوريا تعادل مساحة بافاريا، أليس كذلك؟ لم يمض زمن طويل بعد منذ قام ستانلي بقياسها».

«مرة أخرى شخص غير ألماني، للأسف. القياس كلمة كبيرة في تقدير ستانلي. المؤسف هو أن الإنجليز الآن قد حققوا سبقاً إضافياً حول بحيرة فيكتوريا كذلك. إلا أنهم اضطروا للتراجع أمام ثورة المهدي، يمكن القول أيضاً: إنها جرحت كبرياءهم. من كان ليصدق

ذلك؟ لكن لابد أن أقول: إن هزيمتهم تناسب تصورات بيسمارك عن توازن القوى.

في المدرسة الحربية كان نوقشت أهمية ثورة المهدي على نحو محموم. الجميع تقريباً هللوا حين وصلت الأنباء في فبراير ١٨٨٥ عن احتلال أتباع المهدي للخرطوم. إلا أن سعيداً لم يكن قد كوّن موقفاً واضحاً، لم يكن بوسعه كذلك أن يشعر بالفرحة تجاه مقتل الجنرال غوردون أثناء ذلك. كان البريطانيون قد ساعدوا إيميلي في عهده على الفرار من زنجبار. من دون مساعدتهم كان من المحتمل أن تخسر حياتها؛ كان يشعر بأن عليه التزاماً تجاههم بما يشبه بقية من الامتنان.

أضاف الملازم: «على أية حال فقد ساعدنا القنصل حالياً على التوصّل لفترة هدنة طويلة». ثم خفض صوته: «أما معارك الاقتتال المسلّحة الأصغر في المستعمرات فلا نستطيع تفاديها، هذا شيء واضح. لكن في أوروبا ـ بفضل بيسمارك ـ لن تتناطح رؤوس القوى العظمى. فإنه في ظل الأسلحة الحديثة ستكون العواقب وخيمة».

أومأ سعيد على طريقة التلميذ المجتهد، الذي لم يكن يحبه. شعر بنفحة أنفاس على قفاه. التفت للوراء وأدرك حينئذ فقط أن دومبروفسكي لم يكن يتحدث إليه وحده. كانت أختاه ـ اثنتاهما بقبعاتهن ذات الحواف العريضة ـ قد اقتربتا في صمت، وبقيتا واقفتين خلفه على مسافة قريبة.

«حضرات الآنسات المحترمات» ـ توجّه الملازم بالحديث إليهن ـ «أليس من حق المرء أن يحلم في هذا الزمان؟ كذلك رحلتنا، مهمتنا تخدم السلام. علينا أن نواجه البريطانيين في منطقة شرق أفريقيا بقوتنا، لكي يكبحوا شهوة التوسّع لديهم».

وبعد وقفة صمت مثيرة، قال: «هل أخذتما قسطاً كافياً من النوم أيتها الآنستان؟»

تنهدت طوني وأدارت عينيها. «إن أمكن تسمية ذلك نوما».

تقدمت روزا بحزم: «يمكن للمرء دائماً أن يعوض ما فاته من النوم».

فردت طوني: «في المقابل فإن رؤية الصحراء تمر بجوارنا في الفجر شيء جميل جداً».

«ما نراه هناك مدينة وليست صحراء» ـ قالت روزا وهي تشير إلى صف المباني التي كانت ظاهرة في الأفق.

«الإسماعيلية» ـ قال دومبروفسكي ـ «مدينة جديدة. لقد عبرنا أكثر من نصف القناة. في المساء سنمر بالسويس ونصل إلى البحر الأحمر».

«هل هو شديد الاحمرار؟» ـ سألت روزا ساخرة.

حلّق سرب طيور فوق السفينة، ثم طار مشكّلا هيئة مثلث باتجاه البر؛ كانت للطيور مناقير طويلة، التمع بياضها في ضوء الصباح الباكر. طائر الكركي؟ لم يعرف أحد تحديداً. هبّت ريح خفيفة، رفرفت معها بعض النوارس فرادى، لكنها لم تكن كافية لدفع الأشرعة للإبحار. من الأسفل، من داخل المقصورة، سُمع صوت إيميلي تنادي: «روزا، طوني، أين أنتما؟» كانت هي الأخرى قد استيقظت إذن.

٥

عليك أيضاً ألا تظن يا أخي أن الغرباء يستطيعون أن ينصحوك أفضل من أختك، التي تحبك بصدق. إذا كنت تريد أن تسدي لي ولأبنائي معروفاً، فاسمح لنا أن نسافر إليك. إذا فعلت ذلك لن تخسر شيئاً، ولن تندم على شيئ طيلة حياتك.

استغرقت الرحلة سبعة أيام حتى وصلوا إلى عدن. كانت إدارة القوات البحرية القيصرية قد منعت أي استراحات على الطريق. في تلك الأثناء كانت قد نشأت بين سعيد، البالغ من العمر قرابة الستة عشر عاماً، والملازم الذي يكبره بعشرة أعوام صداقة، أقرب لرفقة أخوية حميمة في المقام الأول، وأحياناً كانت تعادل العلاقة بين المعلم والتلميذ. كانا يتحاوران حول السياسة الألمانية والعالمية، وعن مناهج التعليم في ليشترفيلده، وعن فرصهم المهنية، وحتى عن كيفية العثور على زوجة مناسبة، وعن السن الأنسب لتكوين أسرة. كانا يتناولان المواضيع الشائكة، كان الجنس الآخر متواجداً في الآفاق المستقبلية، وليس ككائن حسي ملموس على الإطلاق، ولا حتى لدى دومبروفسكي، الذي يفترض أن يكون قد جمع بعض الخبرات فيما يخص هذا الأمر. كان يقابل محاولات غنج روزا ـ ذات الخمسة عشر عاماً ـ بمجاملات مهذبة. ومن ناحية أخرى كان يحلو له بين الحين

والآخر أن يلمح بتعبيرات ماكرة إلى أن الملازم سعيد قد يكون مقبلاً على مصير مختلف تماماً، وقد حاول سعيد جاهداً، أن يتغاضى عن حديث الملازم أو يصرف انتباهه عن الموضوع.

كون لعدن ـ المدينة التجارية والميناء، التي كانت هي الأخرى خاضعة لسيطرة البريطانيين ـ معزة خاصة في قلب أمه، فهذا ما كان سعيد يعرفه من خلال بعض شذرات الحكايات، والإشارات، والتلميحات. كانت سلمى قد أتت إلى هنا بعد هروبها بمفردها، كانت ـ عندما قابلها هاينريش أخيراً ـ قد تحوّلت إلى الديانة المسيحية، واتخذت لنفسها اسم إيميلي وتزوجت هاينريش فيما بعد. كيف يمكن لحبٍ أن يكون عظيماً، لدرجة أن يجعل رجلاً يبعث امرأة على أن تغامر بحياتها السابقة كاملةً؟ وهل كان هو ـ سعيد نفسه ـ قادراً على مثل هذا الحب المطلق؟ تردّد، ثم حسم إجابته بالنفي، لكنه أضاف بقلب خافق: بلى، ربما. في كل الأحوال فإنه يرغب في أن يمنح قلبه لامرأة واحدة فقط لا غير. أما صورة الحرملك الشرقي، تلك التي كان قد رآها في صحيفة مصورة، وتلك المجموعة من الجميلات نصف العارية، اللاتي كنّ تقفن أمام سيدهن، فقد كان يراها مبتذلة؛ مع ذلك فقد تأملها طويلاً، بانزعاج متزايد.

أرشدهم قارب صغير إلى مرسى شاغر، من السفن الأخرى دوّى صوت التجار، الذين كانوا يبيعون السمك الطازج، والمخبوزات، والفواكه. وقفت الأم إلى جوار سعيد عند السياج، أمسكت بيده. سألها خجِلاً: «كنتِ هاهنا إذن، مع أبي؟» خانها الكلام، تصارعت مع نفسها، ثم قالت أخيراً: «سافرنا بعدها مباشرة». ولا كلمة أزيد. كان يودّ أن يعرف، كيف كان شعورها إزاء تغيير دينها، وما كان يعنيه لها أن تسافر مع ذلك الرجل إلى مستقبل مجهول، لكنه مع ذلك لم يزد في

السؤال، أخضع نفسه لقانون الصمت غير المعلن، الذي التزمت به أختاه كذلك.

كان عليهم التحلّي بالصبرِ لمدة أيام، قبل أن تصل الأوامر باستكمال الرحلة. لم يكن مسموحاً للركاب بالنزول إلى البر، هكذا بقي محرماً على إيميلى أن تصطحب أبناءها إلى البيت، الذي انتظرت فيه هاينريش لمدة شهور. لم تتمكن - أو لم ترغب في - أن تريهم إياه من على المركب؛ ادّعت أن المبنى مختبئاً وراء الأشجار.

صارت الحرارة غير محتملة، لم يكد المرء يستطيع بعد أن يتحدث عن نسيم الصباح البارد، لاسيما في ظل توقف الريح. حينئذٍ نامت الأختان والسيدتان كذلك على سطح السفينة. تم حجب المساحة المخصصة لهم عن أنظار الرجال، بنصب قماش الأشرعة، الذي سُمِعت من ورائه الأصوات خافتة، والقهقهة، ونداءات البنات، ثم مجدداً شكاوى الآنسة لابوسكه، التي كانت أكثرهم معاناة من حرارة الطقس. كان وجهها الشاحب يفيض بالعرق خلال ساعات النهار، كانت تربت عليه بلا انقطاع بالمناديل، التي كانت تعلقها بعد ذلك على حبل الغسيل لتجف. من كانت هي؟ ظل هذا الأمر ملغزاً كما كان من قبل، لم تبُح بأي شيء عن نفسها، فيما عدا أنها كانت تعمل سكرتيرة في شركة هانزينغ وشركاه، وهو ما كان سعيد يصدقه فقط على مضض.

كان دومبروفسكي وقتئذٍ قد فرش لنفسه حصيرة بجوار حصيرة سعيد؛ صارت محادثاتهم الليلية شخصية أكثر، كانا هما أيضاً يخفضان صوتهما لحد الهمس. حكى الملازم، إن عائلته التي كانت أصولها من دانزيغ، والتي كانت يوماً ما ثرية، قد افتقرت، وإنه يشعر بالمسؤولية، على الأقل تجاه أمه وإخوته الصغار؛ لذلك كان يحاول، أن يصعد في

منظومة القوات البحرية بأسرع ما يمكن. هو أيضاً كان قد عانى عندما كان طالباً في المدرسة الحربية، ولا مفر من المرور بذلك. في الليلة الثانية، اعترف بعد تردّد، أن أباه، وريث متجر الأثاث، كان قد بدّد رأس مال الشركة بسبب تكهنات خطرة، ولم يتحمّل الفضيحة، وقد عُثر عليه ميتاً في مكتبه، والمسدس لايزال في يده. رغم أنه لم ير الميت سوى في التابوت، إلا أنه لم يستطع التخلص من هذه الصورة أبداً. تحوّلت أمه إلى شخصية كئيبة. كانت قد قضت سنين طويلة قبل ذلك تتشاجر مع زوجها بسبب أسلوب حياته. أما هو - الابن - فقد كان مضطراً للاستماع إليهم عبر الجدران، لذلك فقد أسعده في الحقيقة - بعد وفاة والده - توقّف ذلك الشجار الليلي. أما سعيد فقد حكى بحياد قدر استطاعته عن موت أبيه المفاجئ في حادث، والذي لم يكن يستطيع أن يتذكره؛ إذن فقد كان كلاهما بلا أب، وهذا ما قوى الارتباط بينهما.

أخذ سعيد يفكر كثيراً، فيما إذا كان يود أن يصير مثل الملازم، رشيد، ولطيف، ومهذب، له أهداف واضحة يضعها نصب عينيه. أجل، كان دومبروفسكي مثالاً يحتذى به، طريق كهذا بإمكانه أن يسلكه، إن لم يرفعه فجأة مصير مختلف تماماً إلى أبعد من ذلك بكثير. كان هذا التصور أشبه بالألعاب النارية، التي تتفجر في سماء الليل. الألوان تتطاير، وتتوهج، ثم تتلاشى بعد بضعة ثوان؛ وفي الآذان يبقى صدى الفرقعة، ليثير الذعر في نفس المرء. هو سلطاناً؟ مستحيل. ومع ذلك لو حدث ذلك - قال لنفسه سرحاناً - فسوف يعيّن أمه في منصب المستشار الأقرب، سيكون عليها أن تعلمه اللغتين العربية والسواحلية، وأن تعرّفه بتقاليد زنجبار، أما هو - السلطان الشاب - فسوف يسعى لاكتساب سمعة، كراعٍ للسلام ولحل جميع النزاعات على الجزيرة.

أخيرا جاءت الإشارة لاستكمال الرحلة. أبحرت «النسر» بالبخار، فشعر الركاب بارتياح، لأن ريحاً خفيفة هبت فوقهم. إلا أنهم ما لبثوا أن تركوا عدن وراءهم، حتى صارت الريح عاصفة. تكاثفت السحب، وتعالت الأمواج بين الدقيقة والأخرى، وبمجرد أن ضربت سطح السفينة، فر المسافرون إلى الحجرات، وإلى الصالون الصغير؛ لم يبق سوى الملازم يثابر بصحبة اثنين من البحارين مع عجلة القيادة. ارتفعت «النسر»، تقاذفتها الأمواج، كان الأمر أشبه برقصة سكير مترنّحة. تذمّرت معدة سعيد، تقيأ مراراً، حتى شعر أنه يكاد لا يكون على قيد الحياة. الآخرون أيضاً كانت حالتهم مشابهة. حتى إيميلي، التي كانت قد شهدت العواصف من قبل، كانت مستلقية تئن على فراشها. أما الأختان فقد كانتا بين الحين والآخر لا تتمنين سوى الموت؛ لكي تكون لهذا الشقاء نهاية. وكانت الآنسة لابوسكه تتنهد بطريقة مثيرة للشفقة، وتتمنى لو لم تقدم على هذه الرحلة. تدفّقت المياه المالحة وتسرّبت في كل مكان، حتى أنه بعد ساعات قليلة لم تعد هناك بقعة جافة حتى في الطابق الأسفل داخل السفينة. بيد أن الطباخ وحده بلامنازع راح ينتقل مهرولاً من سرير مريض إلى آخر، يقدم المواساة والشاي الدافئ، وكل بضعة ساعات كان دومبروفسكي يظهر عند سعيد، منهكاً ومبللاً تماماً، رغم قماش المشمع الذي كان يرتديه. كان يجلس معه لبعض الوقت (أطول مما كان يجلس عند أخواته)، كان يتكهن أن الطقس سوف يتحسن في القريب، وفي الزيارة القصيرة الثالثة أو الرابعة، حين لم يعد سعيد يستطيع إخفاء خوفه من الموت، انحنى فوقه وهمهم: «يا بني، يا بني، سوف يكون كل شيء على ما يرام».

بعد الليلة العاصفة الأولى تحسنت حالة المصابين بدوار البحر؛ بدا الجسد كأنما تعوّد على الدحرجة والاطّراح المستمرين. حتى أن سعيدا

أكل القليل من البقسماط، من دون أن يتقيأ بعدها مجدداً. روى دومبروفسكي بضحكة متفاخرة، أنه ثبت في غرفة القيادة، لكي لا يُجرف فجأة، وحاول أن يميز بعض الأشكال في زبد البحر، أكاليل بيضاء، شيء من قبيل الجمال وسط كل ذلك القبح المحيط. في مثل هذه اللحظات كان سعيد يراه بطلاً، يتحدّى كل المخاطر.

اجتمع الكلّ في الصالون، ومعهم شمسيات واقية من المطر، وهو المنظر الذي أدخل على طاقم البحارة حالة من الابتهاج. كانوا يشعرون بالبرد رغم أن المياه كانت دافئة، أكثر دفئاً بكثير من مياه بحر الشمال في الصيف؛ اصطكت أسنان الآنسة لابوسكه. لابد أن تبالغ في كل شيء، خطر ذلك لسعيد، رغم أنه هو نفسه كانت كل أطرافه ترتجف. أمكن إشعال الموقد من جديد، شربوا الشاي مع قليل من الروم. في منطقة جنوب المحيط الهادئ ـ كما زعم أحدهم ـ توجد عواصف أسوأ بكثير، وأعاصير ترتفع خلالها الأمواج بارتفاع أبراج الكنائس، وقال إنه رأى بأم عينيه، كيف أن سكان المنطقة يركبون هذه الأمواج، بلا شيء تحتهم سوى مجرد لوح، كأنهم يمتطون فحولاً عملاقة مسعورة.

«ولكن ما غرض ذلك؟» ـ سأل سعيد.

«لكي يثبتوا لأنفسهم أن ذلك ممكنا» ـ ردّ دومبروفسكي، الذي كان يضع غطاءً مبتلاً فوق سترة زيه الرسمي المبتلة ـ «يرغب الإنسان في ذلك: أن يبلغ ما يبدو مستحيلاً. لذلك بلغ آفاقاً بعيدة».

«بعيدة جداً، جداً» ـ قالت الآنسة لابوسكه ممتعضة ـ «وصولاً إلى قلب هذه الكارثة».

هدأت العاصفة ـ بعد أن دخلت يومها الثالث ـ بالفعل، وكما لو كانت قد حدثت معجزة، انبسط البحر في اليوم التالي ببراءة، مستوياً

تقريباً، بلونه الفيروزي الرائع، وسطعت الشمس لاذعة، كأنما كان عليها أن تعوض غيابها الذي طال أياماً. أخيراً جفت الأشياء المبتلة، حتى الملابس على الأجساد، جفت بسرعة شديدة، حتى بدا وكأن الأبخرة تتصاعد منها. فقط قشرة الملح المتبقية على الجلد هي التي كانت مزعجة. ارتأى سعيد أنه تخطى مغامرة كبيرة؛ أليس من المحتمل أن يكون هذا اختبار للشجاعة، لتأهيله لمهام أكبر؟

رفعت «النسر» أشرعتها وتقدمت بسرعة أكبر. مع ذلك كانت الرحلة من وجهة نظر سعيد قد استغرقت أطول من اللازم، نفد صبره، كان ينشد الوضوح، بخصوص ما سوف يحدث معه، وشعر ببعض الارتياح، حين لاحت في الأفق جزيرة بمبا، شمالي زنجبار، أخيراً. في صمت وثبات تطلعت الأم إلى الخط الساحلي، بدت محزونة ومتلهفة إلى أقصى درجة في آن. «لازالت أمامنا ثلاث ساعات حتى زنجبار». ـ قالت ذلك بصوت غير مسموع تقريباً.

قبيل المساء، مع حلول الغسق، كانوا قد وصلوا إلى الطرف الشمالي الغربي للجزيرة، واستمروا في الإبحار باتجاه الجنوب. لم يجترئ دومبروفسكي ـ بسبب الحواجز الرملية ـ على أن يتجه ليلاً إلى ميناء المدينة الحجرية، مدينة زنجبار، لذلك فقد قاد «النسر» ـ بأشرعة مضمومة ـ إلى الخارج قبالة المنارة. أثناء نوم أبنائها بقيت إيميلي ـ كما حكى دومبروفسكي فيما بعد ـ واقفة بعناد عند الدرابزين، كما لو كانت لا تريد أن تفوّت طرفة عين من ذلك الاقتراب. طلع النهار، وظهرت صفوف النخيل وأشجار المانجو ـ التي كانت تحكي عنها كثيراً ـ في خضار بهيّ. في ضوء الصباح حفت المباني الحجرية الساطعة، المرصوصة واحداً إلى جوار الآخر، الشريط الساحلي؛ في الخليج سبحت بعض المراكب الشراعية والقوارب الصغيرة. كان بعض الناس

قد تجمعوا عند الرصيف، في انتظار أن تصل السفينة الألمانية إلى المرسى. نادت إيميلي أبناءها، شدتهم باتجاهها، ابنها على ناحية، وابنتيها على الناحية الأخرى. كان وجهها مشرقاً، كأنما رُفع عنه الحجاب، الدموع التي جرت على وجنتيها، ولّدها الفرح، وليس الأسى (أم أنها ـ كما تساءل سعيد ـ قليل من هذا وذاك؟). قالت: «انظروا. هذا وطني!» هذه الكلمة التي يصعب ترجمتها بدقة إلى العربية، كانت قد تعلمتها منذ وصولها إلى هامبورغ. كانت تعني كل الروائح، والأصوات، والألوان التي افتقدتها لسنوات طويلة جداً. التزم الأبناء الصمت، وشعر سعيد بأن عليه التزاماً، أن يجعل هو الآخر هذه الجزيرة جزءاً منه. ومع ذلك فقد قاوم قليلاً عن غير وعي، حين أرادت أمه أن تقربه منها أكثر.

أخبرهم دومبروفسكي أنه لن يُسمح لهم بدخول الميناء، إلا بعد وصول الأسطول البحري القيصري، أوامر القيادة. كان سعيد ـ وليس الأم ـ هو من سأل كم سيستغرق الأمر.

حاول دومبروفسكي أن يكون متفائلاً: «بضعة أيام على الأكثر».

«هذا كثير» ـ قالت إيميلي ـ «كل يوم إضافي، هو يوم زائد».

استغرق الانتظار أحد عشر يوماً. أبحرت «النسر» باتجاه الجنوب حول الجزيرة، جنحت إلى الساحل الشرقي، ثم صحّحت مسارها فقط، لكي لا ترتطم بحاجز رملي، أو صخرة. وقت غريب مليء بالأمل والمخاوف الغامضة، التي كانت تسلب سعيد أنفاسه في الليل، أو تغدقه بأحلام يرى فيها رجالا ملثّمين يتتبعونه ويخطفونه. في الوقت ذاته تقاربت العائلة، كان يبدو لسعيد أحياناً أنهم محاطون بجدران زجاجية، حيث كانت محاولات الآخرين الاقتراب منهم تنهمر عليها

مثل المطر. أحياناً كانوا يجلسون في الحرارة الحارقة ـ التي كان المرء يتعود عليها تدريجياً ـ في الصالون الصغير، حول طاولة مستديرة صغيرة. هناك لم يكن أحد يزعجهم أثناء النهار. كان على سعيد أن يجد لنفسه بين الحين والآخر مخرجاً من هذا المخبأ، ليتبادل مع دومبروفسكي بعض الكلمات. كانت الآنسة لابوسكه تشعر بالعزلة وقد اشتكت من ذلك؛ فقد سافرت معهم ـ حسبما قالت متذمرةً ـ لكي تكون برفقة إيميلي، وليس لكي تتحاشاها هي.

عمَّ تحدثوا طوال تلك الأيام الأحد عشرة؟ مائة مرة عن الشيء نفسه: عن أفق المصالحة بين إيميلي وأخيها، السلطان برغش، وعن الفرصة المتاحة ـ التي يرجع الفضل فيها للضغط العسكري من قبل الألمان ـ للحصول على نصيبها من الميراث، وعن حماسها للقاء رفيقات الماضي. احتفظت الأم ـ مثلما كانت تفعل طوال الوقت ـ بأسرارها لنفسها، لكنها كانت تثرثر بسخاء بحكايات عن طفولتها: كانت قد امتطت حماراً أبيض كالثلج، وكانت تدير ثلاث مزارع بعد موت أبيها، بينما لم يكن عمرها يتعدى الرابعة عشرة. لكن كان يخطر ببال المرء: في هامبورغ فُرِضت عليها الوصاية بوصفها أرملة، لم يكن يوثق بها لإدارة شئونها المالية بنفسها. يال الظلم! يال السخرية! كانت هناك مجرد تلميحات فيما يخص مستقبل سعيد، ابتسامة خبيثة، تفيد بأنه: أجل، لقد خلقت في الأصل لأمور أعلى، وكان سعيد يهز كتفيه بلا اكتراث، ويومئ بتكشيرة: «انسوا الأمر!» كان كل ذلك يعتمد على نبرة الصوت، ونغمة الكلام، ونظرات الموافقة: نحن ننتمي إلى بعضنا، لن نستسلم لمحاولات أي شخص الوقيعة بيننا.

بدا الوقت كأنه متوقف خلال هذه الأيام الأحد عشرة، التي ذابت في وحدة واحدة كبيرة من التوقعات، في اليقين بما هو آت، ذلك الذي

سيغيرهم جميعاً. الشيء الوحيد الذي كان له معنى في تلك الأرض المحايدة، كانت هي دروس اللغة السواحلية التي أعطتها إيميلي. كان على الأبناء تعلم بضعة كلمات كل يوم؛ كان عليهم - كما قالت أمهم - أن يتمكّنوا من التواصل إلى حد ما مع أهل البلد، قالت إن في ذلك الحد الأدنى من الاحترام، الذي يدينون به لوطنهم الثاني.

في الحادي عشر من أغسطس شوهدت إحدى السفن، وقد تجمّع على متنها الركاب والطاقم، أفاد دومبروفسكي، أن الأمر كان يتعلق بسفينة «صخرة الشرف»، إحدى سفن الإمدادات التابعة للأسطول الألماني، كانت قد انحرفت عن مسارها بسبب الأمواج المتضاربة. كانت الإشارات تروح وتجيء، كانوا يتبادلون البلاغات عن طريق مكبرات الصوت. فهم الملازم أن الأسطول موجود منذ أيام في ميناء المدينة الحجرية، وأن الأوامر صدرت لـ«النسر» للحاق به بأسرع ما يمكن. والآن صار الأمر جدياً، كان سعيد يشعر بالدوار من فرط الإثارة، حتى أنه لم يعد يستطيع تقديم أو تأخير قدم. أصدر دومبروفسكي الأوامر بالإبحار بالمحرك البخاري. بسبب نقص الفحم كانوا يتقدمون أبطأ مما كان الملازم يتمنّى، فاضطر للاعتماد على الريح مرة أخرى. وصلوا في الصباح التالي إلى الميناء، تم إرشاد «النسر» إلى مكانها. أربع سفن حربية ألمانية كانت متوقّفة عند المرسى، موجهةً مدافعها نحو قلعة السلطان. بيد أنه على الناحية الأخرى من الخليج كان بالإمكان رؤية سفينتين حربيتين تابعتين للقوات البحرية الإنجليزية، فقال دومبروفسكي لسعيد إن على المرء حالياً أن يتوخّى أقصى درجات الحذر حين يبدأ في العمل، وإلا فقد يخاطر بإثارة صراع عالمي. فإن القنصل الإنجليزي في المدينة قد يرسل برقيات شكوى إلى لندن، ومع ذلك فإن على الأسطول الألماني أن يفرض على السلطان تسليم المناطق

الشرق ـ أفريقية التي تتبع ألمانيا بموجب عقود موثقة، تسليماً نهائياً. صعد العميد باشن إلى السفينة، كان رجلاً أبياً، بدا الملازم أمامه متضائلاً قولاً وفعلاً. قدم باشن نفسه ببشاشة، حتّى إيميلي بتقبيل يدها، وناداها بـ«سيدتي المبجلة»؛ لكن عينيه الضيقتين كالشقّ كانتا تنبئان عن شيء بارد كبرودة الزواحف. لم يدهش سعيد أنه حرم على العائلة تماماً الاقتراب من الشاطئ حتى إشعار آخر: قال إن وجود السيدة رويته على متن السفينة يجب أن يظل طي الكتمان تماماً، فإن هناك تطورات سياسية مهمة تجري الآن. فإن الأدميرال كنور، الذي كان على مقربة من الجزيرة، على متن البارجة «بيسمارك»، بناءً على أوامر من أعلى المستويات، سوف يقود عملية التفاوض مع السلطان، ثم يقرّر بعد ذلك، ما الذي سوف يتعين حدوثه. بدا كل ذلك ملغزاً، قال دومبروفسكي مهموماً، إن الأمر قد يفضي إلى إعلان الحرب. ويضيف: «ندعو الرب ألا يصل الأمر إلى ذلك!»

مرة أخرى هذا الانتظار، لم يعد ضيق المكان على السفينة حينئذٍ محتملاً. كان شوق إيميلي لدخول البلاد جارفاً، إلا أنه كان عليها الامتثال للأوامر. «ألست امرأة حرة؟» ـ وجهت سؤالها لأبنائها شاكيةً، وللربان الحائر بمرارة. كلا، لم تكن حرة، بل كانت قد وافقت على المشاركة في هذه الصفقة وعلى اتباع الأوامر. نأت الآنسة لابوسكه بنفسها، بأن جلست ساعات طويلة على صندوق خشبي على سطح السفينة تكتب يومياتها. وقد أفصحت لسعيد ذات مرة عن ندمها، لأنها سمحت بإقناعها بالقيام بتلك الرحلة، ثم أضافت بشراسة غير معهودة، أن عليه هو ـ سعيد ـ أن ينزل من برجه العاجي، فقد كان يتم استغلاله سياسياً ليس إلا. تجاهل سعيد كلماتها. نظر مشدوهاً إلى الشاطئ بعيداً، رأى قمم النخيل، التي بدت وهي تتمايل كأنها تلوّح، والمباني

المكدسة خلفها إلى جوار بعضها، رأى القوارب، التي اكتظت بالأغذية والبضائع الأخرى، وكانت تتنقل بين رصيف الميناء وبين السفن، سمع النداءات التي كانت تترنح في الهواء. صار بالكاد يبدي أي رد فعل إذا ما تحدثت إليه أخواته. حتى الملازم لم يكن بمقدوره أن يخرجه من استغراقه.

حين وصل الأدميرال كنور إلى زنجبار، بدا أن الأمور تتحسن. كان على عكس المتوقع من قائد بحري، رغم جديلته الذهبية وقبعته العسكرية، يتصرّف كالمدنيين، يمازح الأطفال وإيميلي، التي يقدر جمالها ـ على حد تعبيره ـ تقديراً فائقاً. ببساطة أذن بالنزول إلى البر، إلا أنه أمر، أن تسير إيميلي في رفقة ضباط مسلحين، لتكون مهمتهم منع أي تعديات غادرة.

بالنسبة لإيميلي كان ذلك الإذن بمثابة شعور بالعتق؛ وقد بدأت ـ منذ أن ركبت الزورق الصغير في اليوم التالي ـ تبكي في ذهول، فردت ذراعيها باتجاه البر، وأخذت بنتاها تهدآن من روعها. أما سعيد فقد ابتعد عنها، فلم يكن يود أن ينجرف وراء نهر الدموع الذي انهمر من عيني أمه. لكن مهما كان ما عايشه لاحقاً من خبرات جديدة، إلا أن لا شيء يعادل وصوله الأول في ميناء المدينة الحجرية، ولا مرة كانت الانطباعات بهذه القوة، الروائح، وتداخل الأصوات، شيء قوي وأخاذ. كان الأمر يختلف تماماً عنه في الإسكندرية أو في بورسعيد. ربما كان الأمر يتعلق بمعرفته أن أمه كانت قد ولدت ونشأت هنا، أو ربما بالشعور المربك بأن جزءاً منه، من طالب المدرسة الحربية الألماني، ينتمي في الأصل إلى هنا.

مالبثوا أن وصلوا ـ من دون أوتيلي ـ إلى البر حتى التفت حولهم

حشود متطلعة مثرثرة بأصوات مرتفعة، سود كثيرون ـ بينهم عبيد، كما أشار أحد الضباط باستياء ـ وعرب بشرتهم فاتحة، وهندوس معتمرين العمائم، هنا وهناك نساء محجّبات، في ثياب طويلة حتى الأرض، وبعض أصحاب المتاجر اليهود بالقلنسوات الصغيرة. تعين على الحرس إخراج سيوفهم، لمنع المتطفلين من الاقتراب من إيميلي. والآن كان الجميع قد عرف من الذي نزل من السفينة؛ «الشحنة السرية» ـ كما أطلق الأدميرال كنور على عائلة رويته على سبيل المزحة ـ كان قد تم كشف النقاب عنها منذما قبل بالفعل. الكثيرون تعرفوا على إيميلي، نادوها باسمها الأصلي: سلمى! سلمى!، ودعوها إلى منازلهم. أخذت إيميلي ترد التحية، وتتهرب من الدعوات، وتتحدث في كل اتجاه بالعربية والسواحلية. كانت تود الذهاب إلى وسط المدينة، لكننا كنا نتقدم ببطء، كما ظل المزيد من المتطفلين وهواة الاستطلاع يتوافدون علينا. بقي كلّ من سعيد، وطوني، وروزا ـ مفتوناً ومرتاباً في آنٍ ـ إلى جوار أمه. لاحقاً حين كانوا قد عادوا على متن سفينة «النسر» اعترفت إيميلي، أنها لم تكن لتصدق أن تتحرك يوماً سافرة، بالملابس الأوروبية، عبر تلك الأزقة المألوفة لها، وأنها كانت تشعر كأنما تكاد تمشي عارية بلا حماية رغم الحراسة المشددة.

لكن ـ سألتها روزا ـ كيف تمكّن الناس من التعرّف عليها؟

«حسنا» ـ ضحكت إيميلي ـ «أنت لا تعرفين كم ننتبه للسلوك، ولأسلوب الحركة، وللصوت. المرأة لا تظهر وجهها إلا داخل البيت». ترددت قبل أن تنطق بالجملة الأخيرة. «أبوكم أيضاً لم يره لفترة طويلة». وكأنما ندمت على هذا الاعتراف، أضافت بجدية أكثر، ولكن بأسى، أنها صارت تعي، كيف يغير الوقت الأشياء، الداخلية والظاهرية. منذ تسعة عشر عاماً كانت قد صارت ألمانية، حين ظنت

أنها كانت كذلك؛ لكن الجذور الزنجبارية لم تختف ببساطة، بل تقطعت فحسب. ثم أكملت: «خلال تلك الأعوام التسعة عشر، تغيّرت المدينة للأسوأ، قذارة في الأزقة، كما تُركت البيوت لتتهدم».

سألها سعيد: «أليس سبب ذلك أنك اليوم ترين الأشياء بطريقة مختلفة؟ لقد تعوّدت الآن بالفعل على نظامنا، لذلك فإنك ترين الأشياء غير المنظّمة بصورة أوضح».

استشاطت إيميلي غضباً. «هراء! لقد رأيت في أحياء هامبورغ الفقيرة بؤساً أكثر من الموجود هنا. ثم أنه..». قطعت حديثها وبكت بكاءً مكتوماً. لفت طوني ذراعها حولها، أما دومبروفسكي الذي كان يستمع إليها، فقد انسحب محرجاً. أحضرت الآنسة لابوسكه لإيميلي كوباً من الماء، سكبت فيه القليل من الروم، لأنها كانت مقتنعة أنه يساعد على تجاوز الضعف والأسى غير المجدي. كانت هي نفسها - أوتيلي - تشرب الروم أحياناً في المساء صِرفاً، كان سعيد قد لاحظ ذلك بالصدفة، وتساءل إن كان لديها هي الأخرى همّ دفين، كانت تحاول أن تنساه.

٦

يعلم الله يا أخي، أنني لا أريد شيئاً، سوى أن أنفعك بكل ما تعلمته في تلك الأثناء في أوروبا. صدقني في ذلك.

تكررت الرحلات إلى البر يوماً بعد يوم؛ كانت بالأساس بمثابة محاولة لتحفيز أخ إيميلي غير الشقيق للقائها، إلا أنها بقيت بلا طائل. لم يرد برغش لا على خطاباتها، ولا على التماس القنصل تخفيف محنة أخته المترملة على الأقل. كانت إيميلي على استعداد حتى لأن تتغاضى عن المطالبة بنصيبها في الميراث، الذي كان يقدر بحوالي ٢٠.٠٠٠ جنيه. كان ذلك يتضمن بالمناسبة الثمن التقديري للعبيد، الذين كانوا ليتبعونها شخصياً. وقد تعمّد القنصل التشويش على تلك الحقيقة المُرّة. في زنجبار كانت تجارة العبيد في تلك الأثناء قد تم منعها، بضغط من البريطانيين، إلا أن ملكية العبيد كانت لاتزال مباحة كما كانت في السابق. هكذا كان برغش قد عرف أيضا، بم يتعلق الأمر. ومع ذلك فقد أبدى استعداده، وضع ٥٠٠ جنيه تحت تصرف القيصر الألماني، ليكون عليه إيصالها لأحبائه، والمقصود بهم: عائلة رويته. رفضت إيميلي آسفةً، هذه الصفقة الرخيصة، بحد تعبيرها، إلا أنها كانت لا تزال تأمل في المصالحة بينها وبين برغش. وقد ساءتها معرفة أنه أمر بجلد الخدم، لاسيما السود منهم، الذين تجرأوا على الاقتراب منها.

وقد كان ضمن الحشود التي تبعتها داخل البلاد كذلك بعض جواسيس السلطان، الذين أدت خبرياتهم إلى بعض الاعتقالات. كان هذا وحده كافياً، لكي يبيّن لإيميلي حقيقة الأمور.

كانوا إذن يتمشون ـ في أغسطس ١٨٨٥ ـ وتتعبهم ذيول المتطفلين، يوماً بعد يوم بطول الميناء، وبين الأزقة، مارين بمباني الحريم، حيث كانت تُفتح أشرعة النوافذ، لتحيي النساء المحجّبات الصديقة القديمة بحذر؛ بينما الأخريات تغرينها: «عودي إلينا يا سلمى، فمكانك هنا بيننا». حينئذٍ كانت الآنسة لابوسكه كذلك حاضرة، في ثوبها الأبيض الناصع، مدهوشة من كم الإجلال التي تلاقيه صاحبتها. كانت باستمرار تتأخر عنها خطوةً، لترفع شمسية فوق رأسها كلما سقطت أشعة الشمس عليها. أما الأخوة فقد كونوا فريقهم الخاصة، فكانوا يتصرفون، كأن تلك الضجة لا تعنيهم في شيء، يطيلون أو يقصرون المسافة ـ كأنما بالمصادفة ـ بينهم وبين أمهم. كانوا بذلك يوفرون لأنفسهم بعض الحرية، بما لا يسيء إليها، ومع ذلك كانوا على الدوام تحت حمايتها. ليس اثنين فقط، بل ثلاثة ضباط ألمان كانوا يرافقونهم بحذر، وكذلك كان شرطة السلطان يبقون على مقربة منهم.

رأت إيميلي أخاها عدة مرات من بعيد، حين كان يخرج في الساعات الأولى من المساء إلى شرفة القصر الملكي، ليستمع بإباء لفرقته النحاسية وهي تعزف النشيد الوطني الزنجباري، ببعض النشاز في المواضع الصعبة، حسبما ارتأى سعيد. كان خاله رجلاً بديناً جداً، بلحية سوداء، وسترة سوداء مشغولة بالقصب، تظهر من تحتها ياقة بيضاء مدوّرة؛ حتى الماسة العملاقة التي يقال إنه يضعها في إصبعه، بدا لسعيد أنه رآها تلمع في ضوء أشعة شمس الغروب. كل جولة من هذه الجولات في البلاد كانت له بمثابة دخول إلى كواليس خيالية، تثبت مع

كل خطوة أنها حقيقية، وفي بعض الأحيان كان يظن أنه وقع في حلم، أوقعه في الأسر.

ذات يوم اتخذت إيميلي قراراً. كانت تريد أن تحاول التقدم مباشرة إلى أخيها، الذي كان بالفعل في يوم ما واحداً من أحب رفاق اللعب إليها. ضابطان فقط ـ هذا ما تفاوضت عليه مع القائد البحري ـ كان عليهما أن يتبعاها في رحلة الاستجداء تلك ومن بين الأبناء لم ترد اصطحاب أحد غير سعيد، قالت إن برغش لن يستطيع صدّها لدى محاولتها أن تقدّم له ابن أخته الخلوق. اعترض باشن بشدة، قال إنها بذلك سوف تثير غضب برغش بالتأكيد. سألته بدورها، ما الذي سوف يتبقى لها، بعد أن ثبت أن دعم ألمانيا ليس سوى دعم فاتر إلى هذا الحد. كانت الرغبة في إثنائها عن رأيها غير مثمرة؛ بالإضافة إلى ذلك فقد كان باشن ـ الذي كان يعلم أكثر من إيميلي ـ على الأرجح يشعر بالذنب تجاهها.

كان الوقت في الساعات المتأخرة من النهار، وكانت الساحة الرملية المائلة للحمرة خالية، والحدود حادة فيها بين الضوء والظل. كل بضعة خطوات كان حرس القصر يحاولون توقيف إيميلي وسعيد. لكن إيميلي كانت تنهرهم؛ تقهقروا أمام صورتها المكتسبة كأميرة وتركوها تمر. أما الألمان المكلّفون بحمايتها فقد بقوا في الساحة الخارجية للقصر، وكانت لديهم أوامر بألا يتدخلوا إلا في حالة الضرورة. عبرت إيميلي مع ابنها البوابة الأولى بأمان. عند الثانية، التي تؤدي إلى الفناء الداخلي وإلى أجنحة برغش الخاصة، تُركت لتنتظر طويلاً، لكن أحد كبار أمناء البلاط استمع إلى رجائها ووعد بإكبار، بأن يبلغ سموه به. نمى إلى سمع سعيد خرير نافورة مياه، وزقزقة عصافير، وفي النوافذ المحيطة ظهرت بعض الوجوه، ثم اختفت مجدداً. كان يشعر بالحرارة الشديدة،

كان عرقه يتدفق من كل المسام. قالت إيميلي لسعيد: «سوف يتم استقبالنا، سوف ترى ذلك». تم إحضار المقاعد لها، وبعض المشروبات المرطبة، التي رفضتها. جلسا ملتزمين الصمت جنباً إلى جنب. وضعت إيميلي قدميها ـ في حذائهما الأوروبي ـ بجوار بعضهما البعض تماماً، كان صوت أنفاسها عالياً ومتسارعاً.

أخيراً ظهر أمين البلاط بملامح آسفة. بأدب زائد وجه إلى إيميلي بعض الجمل العربية، التي لم يفهمها سعيد. بعدها أشار بطريقة لا لبس فيها إلى باب الخروج، انحنى، ثم اختفى، سائراً بظهره إلى الخلف، في البهو الداخلي، حيث أومضت أوراق الشجر الخضراء بشكل جذاب. ترجمت إيميلي بحياد تام، الرسالة التي وجهها برغش إليها: قال إنه لم يعد لديه أخت باسم سلمى، لقد ماتت منذ سنوات طويلة. لذا فإنه يطلب من الزائرة وابنها مغادرة بلاط القصر وعدم العودة إليه مرة أخرى. وضعت يداً على بطنها، بدأت ترتعش، ولولا أن أمسكها سعيد لكانت قد هوت. خلال عبورهما الساحة الرملية، تعيّن عليه أن يسندها. مالت بكل ثقلها عليه، لم يكن يعلم أن أمه النحيفة ثقيلة إلى هذا الحد. في الطريق إلى الميناء أخذت تنزوي إلى نفسها أكثر فأكثر، بدا أنها لم تعد تسمع شيئاً، حتى أن بعض الناس ممن كانوا يحدّثونها ـ كيف أن سعيد قد ورث لفتاتها وأسلوب كلامها ـ أخذوا يسألون قلقين عما إن كانت سلمى بصحة جيدة.

لم تترك مقصورتها لمدة يومين كاملين، امتنعت عن الأكل، ورفضت ـ بنبرة مكتومة ـ كل محاولات طوني والآنسة لابوسكه لإطعامها بعض الأرز. حتى طبيب الأسطول البحري الذي استدعاه دومبروفسكي، لم ترغب في رؤيته. بينما استطاع أبناؤها فقط أن يجلسوا إلى جوارها على الفراش في المقصورة، ويتناوبوا الإمساك

بيدها، التي كانت في الأغلب باردة ومع ذلك مبللة بالعرق. بين الحين والآخر كانت تهمهم: «أنتم كل ما لي». بدا كلامها فارغاً، مثل تكرار بيت شعر ركيك. مكسورة، امرأة مكسورة: كانت هذه العبارة تدور في رأس سعيد، حين كان يتحمل النظر إليها لبعض الوقت في تلك المقصورة شبه المظلمة. بينما كان الصدّ القاسي من قبل السلطان قد أثقل عليه هو الآخر. كان قد لعب دور القوي، بينما انتابه شعور طفولي بخيبة الأمل وفقدان الوعي. تبعثرت كل أحلام المُلك، وصروح الخيال التي بناها الملازم الألماني، الذي يتمنى في قرارة نفسه، الصعود إلى الجاه والمجد. حلم ليلاً بأسوار سجن، كان يطرقها بقبضتي يديه، وفي الصباح الباكر، وهو لايزال نصف نائم، أدهشه أنه لم يكن بالإمكان رؤية يديه.

في اليوم الثالث رفعت إيميلي الغطاء القطني من عليها، شدته إليها، فردته على كتفيها، وهبت واقفة فجأة، من دون أن تترنح. أوقف سعيد نفسه في منتصف الحركة، بعد أن كان قد اتخذ خطوة ليمسكها، وكتمت الآنسة لابوسكه ـ التي كانت قد حلت محل البنتين على السرير ـ صرخة فزِعة. أصدرت إيميلي قرارها بتعبيرات وجه جافة: «لن أسمح بأكل حقوقي بهذه البساطة». كانت تنظر حولها كأنها تتوجه لجمهور أكبر. «لقد فكرت ملياً. سوف أكمل النضال من أجل حقوقي، تذكروا هذا. سأكمل نضالي، حتى وإن تخلى عني الألمان. ومن باب أولى إذا ما كان السلطان يعتقد أنه لم يعد أخي». كانت التجاعيد حول فمها ـ كما بدا لسعيد ـ قد صارت في وقت قصير جداً أكثر عمقاً، كما أنها لم تنفرج حتى عندما قال: «إنك لا تناضلين وحدك يا أمي». ابتسمت ابتسامة خفيفة، لكن لم تكن تلك هي نفسها إيميلي اليائسة المستجدية،

كانت تلك هي الشخصية الأخرى، المغتاظة بشدة، التي كانت قد تصدّرت المشهد الآن، مثل طبقة أكثر صلابة تحت واجهة متداعية.

لكن هذا الموقف الجديد لم يستمر طويلاً. فقد تذبذب بالفعل حين أرادت إيميلي أن تريَ أبناءها قصر بيت المتوني، حيث كانت قد ولدت وعاشت سنواتها الأولى. كان الأدميرال باشن قد حظر هذه الرحلة حتى ذلك الحين، كان بالفعل يخشى من أي اعتداء يحاك من قبل عسس السلطان. لكنه حينئذ ـ وبلا تفسير واضح ـ استسلم لإلحاحها، ووسع نطاق المساحة، التي كان مسموحاً لها بالتحرك عليها، بشكل ملحوظ. أما سكان المدينة من العرب، الذين كانوا يتوددون إليها، فقد حذروا إيميلي: إن مجمع المباني كله كان مهجوراً منذ زمن، وصار آيلاً للسقوط، وإن الزيارة ليست مجدية. لكنها أصرت على أن الأمر مستحيل أن يكون بهذا السوء، وأنها لابد سوف تتعرف على تلك الأماكن التي يرتبط بها كمّ هائل من الذكريات، كما إنه من المهم بالنسبة لأبنائها، أن يكوّنوا صورة حيّة عن منشأ أمّهم. وإلا فكيف يستطيعون الربط بين الجانب الألماني والشرقي؟ قالت إنها لم تنجح في ذلك، وإنها كانت لا تزال منقسمة بينهما.

انطلقت العائلة في الصباح الباكر من دون أوتيلي. كان بيت المتوني يقع خارج المدينة، على الشاطئ مباشرة. وقد ذهبوا بصحبة دومبروفسكي وأحد الحراس، حيث قادهم ثلاثة أشخاص سود أقوياء بمركب شراعي إلى مقصدهم على البر. نظرياً كانوا يعيشون كالأحرار، لكنهم في الحقيقية كانوا يعيشون نفس الظروف القديمة. كانت إيميلي تدافع في كل مناسبة عن ذلك الوضع، وهو ما كان يخجل سعيد؛ كانت تقول إن مثل هذا الشكل من التبعية أهون من عبودية العمال في ألمانيا، حيث يتم استخدام الفراش الواحد علىورديتين.

رحلة غريبة. انتفخ الشراع الكبير في مواجهة الريح، ثم رفرف مثل جناح طائر عملاق، يحاول عبثاً أن يحلق. اتكأ سعيد ـ جالساً على الأرض ـ مسافة إلى الوراء، وأسند رأسه إلى حافة المركب الخشبية. بعينين شبه مغمضتين انتابه شعور بأنه يسقط يهوي إلى السماء؛ خففت السحب الممتدة من وطأة السقوط. حين كانت موجة كبيرة ترتفع به، كان صرير ما يسري في جسد المركب، كأنما أراد أن يحتج.

بعد نصف ساعة اقتربوا من من الموقع المقصود على الشاطئ، وأيقظ دومبروفسكي سعيد بلمسة على كتفه. من بعيد ظهرت في انعكاس الضوء معالم بعض البيوت، كان قد حوطها النخيل من كل جانب. تخيل سعيد مبانٍ فاخرة، حجرات للصلاة، نوافير رخامية، سرادقات وأروقة. كانت حكايات إيميلي عن طفولتها عادة أكثر تفصيلاً، وأغنى ألواناً، عندما كانت أحداثها تدور في بيت المتوني. لكن يالها من صدمة! بعد أن وصلوا، كانت كل خطوة على الطريق شبه المكسو بالنباتات، تبيّن أن القصر قد صار أطلالاً. كانت بعض الأسوار لاتزال مقامة باتجاه البحر، ومن خلفها ـ في الغرف الداخلية القديمة ـ كانت معظمها قد انهارت. صخور فوق بعضها البعض، إلى جوارها أكوام من القرميد. سلالم كانت تؤدي إلى الفراغ. الحمامات القديمة بلا سقف، هنا وهناك طاولة حجرية، مرقطة بوسخ الطير. مواسير مياه ظاهرة، بلا ماء. في الفناءات نمت النباتات الشوكية والحشائش الجافة التي تشبه البوص. فرت بعض الماعز والحمير هاربة من الزائرين. جنديان عربيان ـ كان واضحاً أنهما يحرسان الأطلال ـ تراجعا بناءً على إشارة من دومبروفسكي.

في البداية حاولت إيميلي أن تهتدي بالمكان، دارت حول نفسها داخله، تقدمت بضعة خطوات للأمام، ثم تراجعت إلى الخلف، ثم

حجبت الشمس بيدها عن عينيها. «لابد أنه كان هنا» ـ قالت عن أحد أركان المبنى ـ «هنا جئت للدنيا». وبعدها ببضعة أمتار: «هنا كان جدكم يعمل ويضعني على ركبتيه. لكن هل كان ذلك هنا بالفعل؟» ـ كاد صوتها يختنق، ومع ذلك احتفظ بنبرة شاكية: «تحطم كل شيء، إنهم يتركون كل شيء ينهار، انظروا. لماذا؟ لماذا يفعلون ذلك؟»

في أحد الفناءات الداخلية التي عبروها، وقفت إلى جوار البركة الجافة شجرة مانجو، بالكاد مورقة، وكان الجزء السفلي من إكليلها مائلاً وضخماً؛ كان أحد أفرعها الرئيسية قد اقتحم السور المجاور المتهالك بفعل العوامل الجوية، وبرز خارجه. بقيت إيميلي واقفة أمام الجذع المتشقق، رفعت يدها فوق رأسها قليلاً. قالت: «كان ارتفاعه هكذا، حين رحلت. والآن..». ارتكنت إلى الجذع. أسرع دومبروفسكي إليها ولف إحدى ذراعيه حولها. حاول سعيد تجاهل وخزات الغيرة التي شعر بها؛ فقد كان هو الذي لابد أن يقف إلى جوار أمه، وليس أحد آخر! بدت السحب التي كانت فوقه كأنما تجمدت في مكانها، كانت إحداها شديدة القبح، تشبه سحلية عملاقة بثغر فاغر على اتساعه. أما الأختان فقد أمسكت كلٌّ يد الأخرى ملتزمتين الصمت.

قال سعيد: «إنها قرطاج حقيقية». أراد أن يبهر الملازم، لكن دومبروفسكي لم يعره اهتماماً.

«إنه ذنب الطقس» ـ قال موجهاً حديثه لإيميلي ـ «الأمطار الطوفانية. الجير هش، ليس مثل حجر الغرانيت. الناس هنا يتركون المبانى بعد جيل واحد في مهب الريح. بدلاً من أن يرمموها، يبنون غيرها ببساطة».

«شيء لا يصدق. لقد عاش هنا في فترة إقامتي حوالي ألف

شخص». اتكأت إيميلي برهة على الملازم. كان تصرفاً غير محتشم، أي ابن صالح كان ليتدخل، أما سعيد فلم يفعل.

لكن إيميلي - التي أحست بنظراته - ابتعدت عن دومبروفسكي. «تسعة عشر عاماً مضت على غيابي». - كررت ذلك عدة مرات، غير مصدقة الرقم - «وقد تغيّر كل شيء».

ضرب دومبروفسكي الجذع. «هذه الأشجار تعيش طويلاً، هكذا يقول المستكشف ناختيجال. إنها تعيش أطول منا. تبقى طويلاً».

«أمي» - تقحم روزا نفسها في الحديث - «أتسمعين العصافير؟» كان كونشيرتو صوت العصافير لافتاً حقاً، ومع ذلك فلم يكد يظهر عصفور واحد بين أوراق الشجر المتشابكة خارج الأطلال.

في طريق العودة إلى المركب الشراعي قابلهم رجل كفيف بلحية بيضاء، يسكن كوخاً متهالكاً على الشاطئ. ادعى أنه تعرف على إيميلي - أو سالِمة، كما ناداها - من صوتها. توقفت، ثم أشرق وجهها، وترك هو عصاه تسقط، وأمسك بيديها. كان ذلك مؤذن بيت المتوني، وكانت مهمته الآن أن يصلي على مقابر العائلة الحاكمة يومياً. في البداية فرحت إيميلي باللقاء، لكن المؤذن تكلم - مظهراً أسنانه التالفة - بينما ظل صوته يعلو ويصير أكثر إلحاحاً، حتى تصاعد حديثه إلى عاصفة من الكلام حقاً، تكررت فيها كلمة «الله» عدة مرات. إيميلي - التي نسيت أمر الترجمة، هزت رأسها، تجمدت ملامحها، وفي الوقت نفسه اغرورقت عيناها بالدموع. تراجعت أمام الرجل المسنّ، إلا أنها جذبته معها - حيث كان قد أطبق على يدها بقوة - وقرّب هو وجهه من وجهها، بحيث بدا كأنه يشكل خطراً. بدت إيميلي في تلك اللحظة كأنها لم تعد تمتلك القوة للانفصال عنه. هذه المرة كان سعيد أسرع من الملازم،

تقدم ثلاث خطوات نحو المؤذن. «فلتترك أمي وشأنها!» - صاح في وجهه، وأضفى على صوته - الذي كان منكسراً قبل قليل - نبرةً ذكورية. فزع الرجل الكفيف وترك إيميلي، انصرف عنها في صمت وعاد بخطى قصيرة مضطربة إلى الأطلال.

قالت طوني: «لقد نسي عصاه». رفعته، ولحقت بالمؤذن ووضعته في يده.

«ماذا كان يريد منك؟» - سألت روزا أمها قلقةً.

فردت: «لا شيء».

فعارضها سعيد: «بلى» - وقد بدا صوته أكثر حدة مما أراده أن يكون - «لقد كرر ذكر «الله» مراراً»

مسحت إيميلي وجنتيها بأكمامها. «نعم، لقد طلب مني أن أعود إلى الإسلام، وألا أبقى على كفري. قال إن عودتي سوف تبعث الفرحة في قلوب شعب زنجبار. كما أن أخي السلطان سوف يضمني لعائلته من جديد».

«إذن؟» - سألها سعيد كابحاً قلقه - «هل تميلين لفعل ذلك؟»

«كلا أبداً! إلى أين يذهب عقلك!» أغمضت إيميلي عينها برهة. «لقد تم تعميدي مسيحية. أبنائي مسيحيون. أما الإسلام فهو عقيدتي في الطفولة، كان له أثر عليّ، لكنني لا أستطيع العودة».

ذهبوا إلى الشاطئ. من بعيد كانوا يسمعون السود يضحكون. خاضوا في الماء، ثم ركبوا المركب الشراعي، وعادوا للميناء تحت وطأة الأحاديث المكتومة.

رغم أنه لم يقل أحد شيئاً محدداً لإيميلي، إلا أنه تكشّف لها تدريجيّا، أنها هي وابنها بالنسبة للألمان ليسا سوى دمى في لعبة المكائد

السياسية. إلا أنها لم تجهر بخيبة أملها المتزايدة، لكنها طلبت من الأدميرال كنور أن يأذن لها بالإقامة في أحد الفنادق؛ قالت إنه لا يمكن حبسها في مقصورة سفينة كل هذه الفترة. رفض كنور في البداية، لكنه رضخ بعد ذلك، مع إصراره في الوقت نفسه على أنه لا يستطيع ضمان أمن وسلامة العائلة في ظل هذه الظروف.

بعدها بعقود جمّع رودولف أجزاء القصة وما كان قد حدث. عندما كانت عائلة رويته لا تزال على متن السفينة، أدرك برغش أن معارضته للاستحقاقات الإقليمية الألمانية كانت غير ذات جدوى. كانت المدافع تحدث أثرها، من غير أن تصدر عنها طلقة واحدة. دون علم إيميلي وقّع برغش ما يسمى بعقد صداقة مع الإمبراطورية الألمانية. ولم تكن مطالب الأميرة قد عُرضت عليه، مذيلة بتوصية حسنة من الإمبراطور، سوى بعد ذلك. أعلن السلطان أن ذلك شأن خاص، وأنه لا يمكنه أن يرد على ذلك الخطاب، فقد تركت أخته بلادها وعائلتها بلا رجعة منذ سنين، وقد فعلت ذلك مع رجل كافر من طبقة دنيا. قال إنه بناء على القوانين القائمة هنا، فإنه لا يمكن الاستجابة لمطالبة سيدة متنصرة بحقها في الميراث. وبما أن بيسمارك كان قد حقق هدفه، فقد أرسل برقية، حظر فيها ممارسة المزيد من الضغوط لصالح السيدة رويته، وقال إن عليها ـ كما أبلغ الأدميرال كنور ـ أن تتابع شأنها بشكل شخصي، حتى وإن كان ذلك كما يبدو أمراً ميئوساً منه. من غير المعقول أبداً الآن أن نمارس الضغط عليه بشأن مسألة ولاية العهد، بل إن الإمبراطورية الألمانية ملتزمة فقط بمسئوليتها عن حماية ابنة السلطان وأبنائها، لكونهم ألمان كذلك.

لاتزال ضربات قلب رودولف تتسارع الآن كذلك، حين يفكر في الخدع وحيل التهرب التي مارسها المسئولون حيال أمه. تُرِكَت وحدها،

كما حدث مراراً، وبعد ذلك بثلاثة أعوام، ١٨٨٨، عندما سافرت في رحلة ثانية ـ هذه المرة من دون سعيد، حامل الراية ـ محاولة التوصل للمصالحة مع عائلتها الزنجبارية مرة أخرى، حين واجهها القنصل الألماني على الجزيرة بالفعل بعداوة معلنة.

كانت الغرفة في الفندق الفرنسي واسعة، ولكن متواضعة. استمتع سعيد بأنه رغم وجود الناموسية يمكن الشعور بالهواء الآتي من الخارج. تداخلت الأيام مع بعضها، أخذ شعوره بأنه عديم القيمة يتزايد. تناقشت إيميلي مراراً مع القنصل الألماني أولاً، ثم الإنجليزي أيضاً. لم يساعدها أحد منهما. حاولت أن تجتذب بعض صديقاتها السابقات من الحريم ـ اللائي لم تستطع مقابلتهن شخصياً ـ إلى جانبها، من خلال الخطابات والرسائل الشفهية. لم ينفع شيء، لم يسمح السلطان لأحد أن يجعله يلين. بل إنه أرسل مذكرة دبلوماسية إلى برلين، قال فيها إن وجود السيدة رويته في زنجبار غير مرغوب فيه، وإن عليها أن لا تبقى أطول من ذلك. تبع ذلك برقية عاجلة من الخارجية، جاء فيها أمر بضرورة مغادرة إيميلي ورفقتها دون تأخير. أبلغ باشن إيميلي بتلك الأوامر، قال إن عليها أن تبحر على متن «النسر» على الفور في اليوم التالي.

كانت تلك رحلة عودة حزينة. لم تمضِ بضعة أميال حتى عزلت نفسها على طريقتها؛ كل ما كان يطرأ في الأحاديث متعلقاً بالوقت المشترك في زنجبار، كان يعزلها أكثر. «لقد تخلوا عني. سوف أرفع دعوى ضد أخي، سوف أرفع دعوى ضد ألمانيا». كان سعيد يعتقد أحياناً ـ عندما كانت تجلس على الكرسي القابل للطي على سطح السفينة تقرأ ـ أن بإمكانه استقراء تلك الجمل من حركات شفتيها التي لا تكاد تُلحظ.

علّمت الآنسة لابسكه الإخوة الثلاثة لعبة البريدج، فقضوا ساعات يلعبونها ويتنافسون لإيجاد أفضل الحيل للمراوغة وتقديم الأوراق. لم يشغل سعيد أنه كان هو وطوني الفريق الأكثر خسارة؛ كان باستمرار يفكر في الحياة اليومية في المدرسة الحربية في ليشترفيلده، والتي كان في الطريق إليها حينئذٍ لا محالة. كان قد فوّت أربعة شهور من الدراسة، قد يتعين عليه إعادة سنة دراسية كاملة. أفزعته صورة بركة الطين في آخر فصل الخريف، التي يكون على المرء أن يرمي نفسه فيها بشكل أعمى، والزي الرسمي المكسو بطبقة من الوسخ، الذي يجب محو كل بقعة من عليه بعد ذلك بالفرشاة وخرقة المسح المبللة باللعاب؛ أفزعه الجرموق المربوط بإحكام، الذي يلهب الجلد، وتقرحات أصابع القدمين، والصيحات المستمرة بالداخل والخارج، واللوائح التي لا حصر لها، والتي يعني اختراقها توقيع العقوبات بالحبس ومنع الإجازات. ولكن ماذا غير هذا؟ فلم يكن ممن يتهربون من الخدمة العسكرية - أن يهرب مثل أحد رفاق دفعته الدراسية، الذي قُبِض عليه بعد ذلك في جبال كاربات - كان هذا تصوراً بعيداً عليه. سوف يلتزم بواجبه، وبينما كانت نافذة على عالم الشرق، عالم أمه، قد انفتحت على اتساعها أمامه، كانت أوروبا كلما اقتربت، زاد بريقها وصارت جاذبيتها أقوى. في الوقت نفسه شدّه شيء ما للعودة إلى ليشترفيلده. تذكر شعور الابتهاج حين تحرّك كان مئة وعشرون رجلاً مثل كائن واحد منفرد يميناً ويساراً، عندما يسري قرع المارش العسكري في الدماء. روح الوحدة الألمانية التي كان القادة يقسمون عليها باستمرار، كانت جذورها ضاربة فيه - هو ابن الأميرة العمانية الزنجبارية. فإذا أراد اقتلاعها، سوف يضطر لجرح نفسه.

أبقى دومبروفسكي نفسه في الخلفية، وتحاشى سعيد أن يبادره هو

بالحديث؛ فقد كان الوداع وشيكاً على أية حال، وقد كانت لحظات الوداع تثقل عليه. أما الآنسة لابوسكة فقد كانت تنشد في تلك الأثناء قرب الملازم، أكثر بكثير مما كانت تفعل خلال رحلة الذهاب؛ كانا ينخرطان ـ كما كان يتبادر لأذن سعيد بين الحين والآخر ـ في جدليات فلسفية وأخلاقية. كانت وجنتاها تحمران بعد مثل هذه الأحاديث، كانت تتحرك بخفة أكثر. زعمت روزا هامسةً أن لابوسكه مغرمة به. لكن طوني ردت بأن ذلك مستحيل، فهي أكبر من دومبروفسكي بعشرة أعوام على الأقل. «وماذا في هذا» ـ قالت روزا بنبرة أكبر من سنها ـ «الحب يقع أينما يقع». بالإضافة إلى ذلك ادعت علمها بأن المسكينة كانت قد فسخت خطبتها منذ فترة وأنها الآن حرة. قالت طوني: «أما أنا فسوف أتزوج من أريد مهما كانت الظروف، سواء كان أكبر أو أصغر سناً». ضحكت الأختان، مدتا يديهما لبعضهما، وتعاهدتا على التزام كلتيهما بذلك الشرط.

في عدن كان الوقت قد حان، اختفى الملازم عن الأنظار. كانت بينه وبين سعيد مصافحة بالأيدي، وانحناءة، أما الأختان فقد وضع قبلة على جبين كل منهما، ثم قبل يد السيدتين رويته ولابوسكه قبلة رسمية لائقة. من دون دومبروفسكي زاد شعور سعيد بأنه بلا سند؛ عقد النية على أن يكتب له، أن يبحث عن الجمل المناسبة لخططه ولمخاوفه، لكنه مع ذلك لم يفعل. لكنه كان في المساء على ضوء الشموع، وهو مستلق على فراشه، كثيراً ما يطيل النظر إلى الصورة التي أعطاه دومبروفسكي إياها مع إهداء. أحياناً كان يهيأ له أنه يسمع صوت دومبروفسكي الودود، إلا أنه كان يسمع رنته فقط، لكنه لم يكن يفسر الكلمات. وقد كان يعرف خلال الرحلة بالفعل أنه لن يرى ذلك الصديق أبداً مرة أخرى.

بالسفينة «ليديا» سافروا حتى هامبورغ، حيث وصلوا في منتصف شهر نوفمبر. لم تكن هناك أحداث مميزة في تلك الفترة، لا عواصف، ولا مشاحنات، لا بين أفراد الطاقم ولا بين الركاب. أما مدرسة ليشترفيلده الحربية فقد جرعها سعيد بكل جوارحه.

٧

يتعلم أبنائي الثلاثة الأحباء أشياءً كثيرة يا أخي. نحن جميعاً بإمكننا أن نسدي إليك النصيحة، أفضل من أولئك الذين يسعون فقط لمالك وممتلكاتك. فهم عندما يحصلون على ما يريدون، سوف يتخلون عنك، ويعودون إلى بلادهم، ويتحدثون عنك بطريقة مغرضة.

إحدى الصيفيات في مدينة يينا، يوم ٢٢ يونيو ١٩٤٠، كان الوقت قبيل المساء، في الغرب تمتد بعض السحب بعرض السماء. تقف بلا حركة في نافذة الشرفة نصف المفتوحة، وتصغي السمع إلى الخارج. هناك أصوات، وتصفيق، وغناء، يصير أعلى وأكثر إلحاحاً؛ يأتي من موكب الاحتفالات، الذي يتحرك هناك على بعد بضعة مبانٍ، عبر شارع هومبولد، بالمشاعل، تماماً كما كان قبل سبع سنوات، وإلى جانبه من الراديو بالجوار ذلك الصوت المغروم، الذي تعرفه ولا تحبه. ماذا كان زوجها ـ الجنرال الذي لم يلبث أن توفى قبل أربعة أشهر ـ ليقول عن ذلك؟ إنها تفكر فيه كثيراً هذه الأيام. كان ليتعجب، فقد كان يتابع صعود هتلر بتشكك. لكن لم تكن لتخرج من شفتيه أكثر من جملتين أو ثلاثة. منذ عودته من فردان لم يكن يكاد يتكلم، إلا بما هو ضروري. «لم يكن الأمر سهلاً معك»، قالت ذلك بصوت لا يكاد يسمع، وقت الغسق، وسط الهتافات المتعالية بالخارج تشم الليلك الذي أزهر في

الحديقة المجاورة، ليس هذا متناسباً مع الحرب. تبدأ أجراس كنيسة القديس ميشائيل ترن، فتنضم لها كنيسة السلام بخفقات أكثر بهجة. «هل تسمع ذلك»؟ توجّه كلامها للمتوفى. انتصرت ألمانيا على فرنسا. إننا نحتفل بوقف إطلاق النار. تدرك أنها تتحدث بصوت عال وتفزع. تغلق النافذة فيصير الضجيج الآتي من الخارج أهدأ. تفكر أنهم الآن سوف ينبهرون بهيتلر كأنه نصف إله. لكنها لا تريد أن تنجر معهم، فإنها في الحقيقة ليست آرية خالصة، بل نصف آرية فقط، هي لا تنتمي بشكل كامل ـ كما صنفها مسؤولو العرق ـ لجسد الشعب. لكنهم لحسن الحظ يتركونها ـ هي روز ترومر. رويته، أرملة الجنرال ـ وشأنها. نعم كانت قد اختارت منذ سنوات أن يصير اسمها روز، وليس روزا، وبالتأكيد ليس روزالي، لكنها لم تغير الاسم إلا قليلاً بالمقارنة بأخيها سعيد، ومع ذلك فقد كان حرف الـ«ا» هذا مهماً بالنسبة لها، هكذا يكون الاسم أكثر أناقة، وخفة، وأقل مللاً وغلظة. تقول لنفسها إن وضعها كان ليصبح أسوأ بكثير، لو كان أبوها قد تزوج يهودية آنذاك بدلاً من العربية. سعيد ـ الذي تتردّد في تسميته برودولف ـ فعلها، وقد صار أمراً مفهوماً الآن أنه يفضّل العيش مع زوجته في لندن. في ألمانيا ربما لم يكن ليتم إيداعهم المعتقل، لكن ربما كان ليتعيّن عليهم الانتقال لأحد بيوت اليهود، هذا كل ما تسرب إليها من أخبار. وقد عرفت من أنطوني في صيف عام ١٩٣٤ إن سعيداً صار مواطناً إنجليزياً. هالها هذا الخبر، كما هال زوجها بقدر أكبر. وقد عاتبته في خطاب طويل، قالت إن المرء لا يمكنه أن يبدّل جنسيته كما يبدّل قميصاً.

وقد ردّ عليها بأن قميصاً ينضح بالوسخ بهذا الشكل، لم تعد لديه رغبة في ارتدائه أطول من ذلك، كما أن المسؤولين الألمان كانوا على أية حال يتمنون شطبه ـ هو الأحمق، عديم الوطنية، نصف العربي ـ من

سجلاتهم. قال إنه يرى نفسه مواطناً عالمياً بجواز السفر البريطاني، وإن الأمر كان ليخدم قضية السلام العالمي، لو أن هناك المزيد من البشر من نوعيته.

ترسّخت هذه الجمل بداخلها، أشعلت غضبها وأخجلتها في آن، وقد وجدت فيها بشكل كامل ذلك الأخ المثالي، الذي لا ينفع الجدل معه شيئاً. لكنها لم تمتلك القدرة على الرد عليها، وقد ساد الصمت بينهما منذ ذلك الحين، وهي ليست لديها فكرة عن أحواله الآن. بينما لم يكن أحدٌ أقرب إليها من الفتى ذو العينين المتشككتين، اللتين كانتا تغرورقان بالدموع بسرعة، عندما كان يشعر أنه عومل بطريقة ظالمة. تريد أن تكتب إليه منذ شهور، على عنوانه اللندني القديم. سوف تفعل ذلك في وقتٍ ما، ليس اليوم. إنه على أية حال لن يودّ أن يعلم بما يحدث الآن بالخارج.

سمعت ضحكات من الطابق الأرضي. كانت قد أجّرته مؤخراً لعائلة مكونة من أربعة أفراد، أسرة موظف كبير في شركات زايس. ماذا كانت لتفعل بكل هذه الغرف وهي بمفردها؟ يكفيها الطابق الأول، وهي تنام الآن في الغرفة الصغيرة، التي قضت فيها أمها أسابيعها الأخيرة. وقد صارت غرفة مكتب ترومر هي غرفتها، استبدلت فقط بالسكرتيرة الثقيلة مكتباً أنيقاً. مذهل أن صورة الجنرال بدأت تبهت بعد وقت قصير إلى هذا الحد. هل تفتقده؟ ليس بالقدر الكبير، هكذا تعترف لنفسها. تبتعد عن النافذة، وتتجه نحو الصالون الصغير، الذي كانت قد أثثته بالأعلى. صبّت لنفسها بعض شراب التوت المخمر التي كانت قد صنعته بنفسها. بالأسفل يُسمع الاحتفال، فمن حقها هي أيضاً أن تسمح لنفسها ببعض المتعة.

والآن تبقى مع ذلك عالقة بمارتين، الذي كانت تفضل أن تسميه ترومر، وفي الخطابات عادة «ت» فقط. كان كلاهما قد تقدم في السن نوعاً ما، عندما تعارفا في إحدى الحفلات في برلين، حيث كانت بعد عودتها من الشرق لزيارة بعض الأقارب. كانت قد شارفت على الثلاثين بالفعل، وقد خذلها الحب أكثر من مرة؛ في هذه الحالة يدقق المرء جيداً، حين يبدي رجل بزي رسمي ـ قائد بسلاح المشاه ـ اهتماماً. كان ترومر جاداً، لكنه كان يضحك رغم ذلك بين الحين والآخر على حماقاتها. وقد أعجبها ذلك. كان يرقص متخشباً، بساقين متصلبتين بعض الشيء؛ كونه استطاع أن يضحك على ذلك أيضاً، فقد كان ذلك أمراً يُحسب له من وجهة نظرها، وأنه اقترح بعد ذلك فترة خطوبة طويلة، لكي يتسنى لهما اختبار بعضهما، فقد كان ذلك أيضاً بالنسبة لها ولقلقها حيال الرجال أمراً مناسباً. كان وقتها منتدباً لإحدى الوحدات البعيدة، وكانت هي تعيش في بيروت، أما كيف يمكن أن يكون العيش المشترك بينهما، فهذا ما كان عليهما اكتشافه بعد. على أية حال فقد سافر معها إلى بيروت لكي تتمكن من تقديمه إلى أمها. خطوة كبيرة ـ لاتزال تبتسم حتى اليوم ـ بالنسبة لشخص شديد المحافظة مثله، لم يكن حتى قد غادر ألمانيا ولا مرة قبل ذلك. كان يود أن يعرف الكثير عن عائلة روزا. أكثر ما كان ينقب عنه بإصرار هو السبب الذي جعل إيميلي تدير ظهرها لألمانيا بعد رحلتها الثانية لزنجبار. هذا الشرخ في الولاء ـ كما كان يسميه ـ كان يثير غضبه. كيف استطاعت سيدة غريبة، تم منحها الجنسية الألمانية بمنتهى الكرم، أن تفعل مثل ذلك؟ ألم يكن ينتظر منها عن حق بعض العرفان بالجميل؟

كان برغش العنيد قد توفي في مارس ١٨٨٨، فخلفه الأخ الأصغر خليفة. كان قد عانى تحت حكم برغش، وظل قيد الحبس طويلاً،

ظنت إيميلي لذلك أنه سيكون من الذكاء والطيبة، ليعترف بحق أخته غير الشقيقة في الميراث. كانت قد كتبت رسالة بذلك إلى القيصر الشاب فيلهيلم الثاني. ألم يكن من حقها أن تفترض أنه سوف يدعمها؟ تصرفت بسرعة. لم تلبث أن سافرت في شهر أبريل - بمفردها - إلى زنجبار. وحدها روزا هي التي صحبتها. كانت في الثامنة عشرة من عمرها، ساذجة إلى حد كبير، وكانت تعتقد في النوايا الحسنة بين أقارب الدم، مثل إيميلي التي انخدعت مرة ثانية في كل شيء - هذه المرة أسوأ بكثير من المرة الفائتة قبل ثلاث سنوات. قام خليفة بالرد على محاولات إيميلي الدؤوبة للتواصل معه، وعلى حملاتها وخطاباتها، الرد نفسه الذي ردّه برغش من قبل: ليس نفسه تماماً، بل حكم بأن لا وجود لها أصلاً. حاولت إيجاد الدعم عند القنصل العام الألماني الجديد ميشاهيليس - هذا الاسم لم تنسه روزا أبداً - ولم تحصل عليه، بل على العكس. تمت مطالبتها بألا تعكر صفو العلاقات التجارية التي كانت قد تطورت بين ألمانيا وبين السلطنة، رغم المناورات البريطانية لإفسادها. بلا جدوى التقت بممثلي شركة هانزينغ الهامبورغية، التي كان زوجها يعمل موظفاً بها. طالبتهم - مثلما فعلت قبل ثلاث سنوات - بالمساعدة، بالدعم، بالتوسط لدى الأقارب في القصر، أرسلت إليهم الخطابات مجدداً، لاسيما إلى النساء، كما قابلت بعضهن كذلك سرّاً، إلا أنها أُبلِغت من الجميع بأن أحداً لا يستطيع فعل شيء من أجلها، وأنه لا سبيل على الإطلاق للمصالحة، إلا أن تعود مسلمة من جديد. وقد قاومت إيميلي هذا الأمر بثبات. لكنها اعترفت لروزا لاحقاً، بأن الفكرة كانت رغم ذلك تراودها في ليالي السهاد.

قضوا بضعة أسابيع في مقر ضيافة جمعية التبشير البرلينية، مقابل ست روبيات في اليوم. كان هذا ثمن قليل، لكنه تراكم مع ذلك مع

الوقت؛ كانت الموارد المتوفرة معهم محدودة. كان الألمان الموجودون في زنجبار ليفضلون طردهم، بل مطاردتهم، لكن ذلك لم يقع ضمن سلطتهم، وبما أن السلطان كان قد أمر بتجاهل إيميلي وروزا، فقد كانتا فعلياً، من الوجهة الإدارية، غير موجدتين من الأساس. بعدها مارس القنصل الألماني الضغوط بوضوح على مديرة دار الضيافة، فألقت بهم إلى الشارع بحجة أعذار واهية. أما الجالية الألمانية التي كانت قد وصلت إلى هنا يوم الأربعاء، فقد استُبعدتا منها، حيث إن إيميلي لم تخف رأيها على مائدة الطعام فيما يخص الموقف الرسمي الألماني، ثم وجدتا بناية متهالكة على طرف الشاطئ. لم تكن النقود تكفي سوى لشهور قليلة، بعدها كان لابد من أن يحدث تحول ما. ومع ذلك فقد كان حساب إيميلي المصرفي الألماني - بفضل مذكراتها التي كانت قد نُشرت في العام السابق - لايزال ممتلئاً بما يكفي؛ لم تكن لتعتمد على الصدقات.

عاشت الأم والابنة حينئذٍ معزولتين عن الأوروبيين، تأكلان الأرز والسمك. حتى بالنسبة للحريم صارت إيميلي بإلحاحها تدريجياً تشكّل إزعاجاً. هكذا جاءتها - قبل سعيد بزمن - الفكرة الجريئة بأن تتقدم - لدى القنصل البريطاني، الكولونيل إيوان سميث - بطلب للحصول على الجنسية البريطانية، لتضع نفسها تحت حماية ملكته. فكرت أن البريطانيين، الذين كان موقفهم أقوى من الألمان على الجزيرة، قد يستطيعون تركيع السلطان. فقد قيل في زنجبار إن البريطانيين، هم الحكام الخفيون، حين يتعلق الأمر بالتجارة والشؤون المالية. لكن إيوان سميث قابل إيميلي بالصد هو الآخر. قال إن شئونها لم تكن تمس المصالح البريطانية، بل إن ما تسعى إليه يتعارض معها في الحقيقة. إذن لا شيء مجدداً.

تلت ذلك أيام سوداء. كانت إيميلي قد وصلت إلى نقطة القاع، وحاولت روزا أن تواسيها. حين صار واضحاً لها أن القيصر الجديد لن يرد على التماسها، قررت ألا تعود إلى ألمانيا مرة أخرى، وأن تقطع كل صلتها كذلك بزنجبار. كان بداخلها يقين قد أفزع روزاز. قالت بمرارة: «لن أظل مخدوعة هكذا طويلاً». قالت إنها تريد أن تبحث عن مسكن بسعر معقول في المشرق، الذي كان بالفعل موطنها الحقيقي، الأفضل على الساحل السوري، وسألت ابنتها إن كانت ـ هي صغرى أبنائها ـ تود أن تبقى معها حتى إشعار آخر. كان واضحاً أن سعيد ـ قبيل تعيينه ملازماً ـ لن يصاحبها إلى زنجبار، وكانت أنطوني قد أنهت لتوها تدريبها التجاري ودورة الكتابة بالاختزال في برلين. أما روزا في المقابل فقد كانت قد فكرت في أن تصبح مدرسة، والآن كانت أمها تتمنى أن تحتفظ بها إلى جوارها. كان عليها أن تكون رفيقتها ـ يعلم الله أين ـ وذلك في هذا التوقيت، بينما تلح عليها فكرة التحرّر منها. ولكن هل كان باستطاعتها أن تتخلّى عن إيميلي؟ عن أمها، النحيلة الرقيقة؟ لازالت روز تسأل نفسها ذلك السؤال حتى الآن، على طاولة الصالون الخاصة بها، حيث ملأت الكأس الثانية بالتوت المخمر. هل كانت تستطيع تحمل فكرة أن شعر إيميلي ـ والذنب ذنبها أيضاً ـ يزداد شيباً أسبوعاً بعد أسبوع؟ امتثلت لأن تبقى معها، بينما كاد صوتها يستعصي عليها. تبينت أمها كم كانت مهمومة، ملست على وجهها، وشكرتها من كل قلبها.

سافرتا، وتوقفتا أولاً في يافا، ثم أكملتا طريقهما إلى القدس، ثم إلى بيروت، حيث بقيت إيميلي اثنين وعشرين عاماً. أما بالنسبة لروزا فلم تكد مدة إقامتها تبلغ العشرة أعوام، تخللتها عدة رحلات إلى أوروبا، لولاها لما كانت تعرفت على مارتين ترومر.

تبتسم روز، ترشف من الكأس، صارت الغرفة الآن مظلمة، ليست لديها رغبة في أن تضيء الأنوار. سكتت الأصوات بالأسفل، ففي يينا يذهب الناس رغم احتفالات النصر مبكراً إلى السرير، وكذلك أيضاً السيد خبير الماكينات، الذي يعمل في شركات زايس، غريب أمر الذكريات، إذ تحل الواحدة ـ ربما بفعل الخمر ـ محل الأخرى، من دون منطق، ومع ذلك يصعب توقيفها. طواعيةً من ناحية، وعلى مضض من ناحية أخرى تترك نفسها لها، وتصل مرة أخرى لأخيها، الذي صار أمره محيّراً جداً بالنسبة لها، ثم بتلقائية إلى زفافه في برلين، في سبتمبر ١٩٠١؛ فقد تزوج ـ بعد أنطوني بثلاث سنوات ـ اليهودية ماريا تيريزيا ماتياس، من بيت غني، كما عُرِف بعد ذلك. ترومر ـ الذي كان وقتها لا يزال خطيبها ـ لم يكن يودّ أن يأتي معها، كانت لديه تحفظات كثيرة حتى على اليهود الليبراليين. لكنه حضر معها في النهاية. نعم، لقد كان في كل مرة يفعل ما تريده، كان أحياناً يستسلم من دون أن يدرك؛ فقد صارت مبدعة في ستر انتصاراتها الصغيرة. جميعهم ـ أنطوني، وسعيد، وروز ـ تزوجوا بالفعل في سن متأخرة جداً، كأنهم أرادوا أن يتمهلوا، حتى يجدوا الزوجة المناسبة أو الزوج المناسب. لم تجد أنطوني الزوج المناسب في براندايس، أما ترومر ـ تستطيع روز أن تقول ذلك رغم كل شيء ـ فقد كان مناسبا إلى حد كبير، وربما كان سعيد هو الوحيد الذي وجد في زوجته اليهودية الشخص المناسب.

أين تحديداً تعرف أخوها على ماريا ـ تيريزيا، هذا ما لم تكن تعرف عنه روز شيئاً سوى بالتخمين، غالباً في لندن. هناك كانت تيريز ـ كما تحب هي أن تسمي نفسها ـ في زيارة لدى خالها لودفيغ موند، رجل الصناعة الذي كانت أصوله من كاسل، والذي صار ـ بفضل إحدى

الطرق الجديدة لصناعة الصودا - كرويسوس[1] حقيقياً. كان يجمع اللوحات الزيتية من عصر النهضة، وقد أهدى بعضها للمتحف الوطني للوحات الزيتية. في المتحف، أمام إحدى لوحات تيتسيانو، تقابل سعيد وتيريز، بالصدفة البحتة، وفقاً للشائعة العائلية. ثم قاد كل الشيء إلى الآخر. كانت روزا قد ظنت إن سعيد سيبقى أعزباً (في تلك الأثناء كانت هي أيضاً تكاد تعدّ عانساً بائسة)، لكنّ أخاها كان دائماً ما يحرص على المفاجآت. كونه ترك الجيش فجأة، ثم تقلّد منصب مفتش بالسكك الحديدية في مصر التي كانت تحت الهيمنة البريطانية، وأنه تم تعيينه الآن من قبل مكتب الشرق في البنك الألماني: كان من الصعب عليها التوفيق بين كل ذلك. لم يكن سعيد كذلك على استعداد لإعطاء تفاسير طويلة لأجل خاطر عائلته؛ كانت الأمور كما كانت، وكما كان هو قد قرر، أي على الطريقة السعيدية. لم تكد روزا تكون على اتصال معه في السنوات الأخيرة، وهكذا فاجأها مرة أخرى، حين وصلت دعوة زفافه فاخرة الطباعة إلى بيروت. في خطاب مصاحب قدم العروس باختصار، بل وضع معه صورة فوتوغرافية في أحد استوديوهات التصوير، يظهر فيها هو إلى جوار شابة شعرها داكن، أبرز ما يلفت النظر إليها - بغض النظر عن البثرة الصغيرة في وجنتها - هو كونها غير ملفتة. كان لدى إيميلي بطبيعة حالها رفضاً قوياً تجاه اليهودية. مع ذلك لم يخطر ببالها ولو للحظة أن تقاطع زفاف ابنها،

---

(١) كرويسوس: هو ملك ليديا من الأسرة الميرمنادية، وحكم بين عامي ٥٦٠ - ٥٤٦ ق.م وكان قد خلف والده ألياتس الثاني بعد حرب مع أخيه غير الشقيق، ومد الإمبراطورية حتى نهر هاليس. جمع ثروة من التجارة كانت مضرب الأمثال واستخدم جزءا منها في تأمين التحالفات مع الدول الإغريقية التي مدت جيشه بأساطيلهم.

وقد زاد على ذلك، أن شرحت لها روزا، أنه هناك فارق كبير بين اليهود الشرقيين واليهود المتجنسين بالجنسية الألمانية. قررتا السفر معا إلى برلين؛ كانت عوائد كتاب إيميلي في هذا الوقت لاتزال تسمح بعد ببعض الرحلات البحرية. ولأن سعيداً كان قد أرسل إليهما الدعوة في وقت مبكر، لم يكن عليهما أن يتعجلا أمرهما في الطريق الذي صار معتاداً بين كورفو ومارسيليا.

وصلتا إلى برلين قبل موعد الزفاف بيوم. كان سعيد قد حجز في فندق جراند أوتيل بيلفيو في ميدان بوتسدام غرفاً للضيوف. كانت طوني كذلك قد وصلت مع بنتيها، من دون براندايس لحسن الحظ؛ كانت الرحلة من جزر مارشال إلى وسط أوروبا أطول بكثير منها من بيروت.

منذ البداية كان واضحاً أن سعيداً يودّ تجهيز الاحتفال ببذخ شديد، وأن عائلة تيريز ـ ولودفيغ موند وراءها في الخلفية ـ كانت قد دفعت بمبلغ ضخم كذلك، لرفع الاحتفال إلى مستوى الطبقات الاجتماعية العليا.

بالكاد تعرفت روزا على سعيد: تحوّل الفتى الخجول، الذي كان الزي العسكري يبدو خانقاً له، إلى رجل نبيل ذو مظهر راق، له بطن مرتفع قليلاً وشارب مشذّب. حتى اليوم لا تستطيع أن تفسر ما الذي أحدث كل هذا التحوّل المدهش. الطموح؟ إيمانه المتزايد بمهمته كوسيط؟ أم أنه بالفعل تأثير تيريز؟ على كل حال كان سعيد بالفعل على الطريق لأن يصبح رودولف ـ سعيد رويته الجليل، الذي حاول بلا كلل إيقاظ ضمير العالم، وكان يجعل ترومر أحياناً يستشيط غضباً. كانا هما أيضاً يريدان إتمام زواجهما بعدها بشهور، على الأقل حتى تستطيع إيميلي أن تبقى في برلين من أجل الحفل الثاني.

ليلة وصولهما شربتا مع سعيد وعروسه كأساً من الشامبانيا في شرفة الفندق. راحت إيميلي وتيريز تتفحصان بعضهما ما بين الريبة المهينة واللطف المصطنع. كانتا ـ حسبما ارتأت روزا ـ تشبهان بعضهما أكثر مما كانتا تتخيلان: كلتاهما كان لها وجه طويل، وأنف دقيق جداً، والتواء ما عند شدقيهما، كل منهما يصعب تصديق ابتسامتها بالكامل. كانت تيريز قد قضت بضعة فصول دراسية تدرس العلوم الاقتصادية، ثم تولت إحدى المهام ضمن أعمال والديها التجارية. شربوا نخب الحفل الوشيك. استعرض سعيد مساره دقيقة بدقيقة. من الواضح أنه كان قد خاض نقاشات مطوّلة حول تفاصيل احتفالية عقد الزواج. أولاً كان سعيد يريد أن يكتفي بعقد زواج مدني ومأدبة فاخرة، لكن رغم أن تيريز كانت قد تحولت بالفعل إلى المسيحية، إلا أن أمها الأرملة ـ التي لم تكن تزور المعبد أكثر من مرتين أو ثلاث كل عام ـ أصرت على أن يلعب «العنصر اليهودي» دوراً في الزواج، احتراماً للتقاليد. لم يمر تحوّل تيريز دون بعض الاضطرابات، فقد أدانها معظم الأقارب. لكن الخال لودفيغ الذي سُئِل النصيحة كان رأيه إن الوضع في عائلة يهودية مسيحية سيكون أفضل، إذا ما انتمى كل أفرادها ـ لاسيما الأبناء ـ إلى العقيدة نفسها. كان يفضّل ـ كما قيل أنه قال ـ أن يرحب بالعريس ضمن الجماعة اليهودية، لكنه ارتأى إن هذه الخطوة بالنظر إلى مستقبل سعيد المهني قد تضره كثيراً. أما الآن وقد فعلتها تيريز، فقد اعتُبِرت لدى أقاربها المتدينين في كولون وكاسل في حكم المفقودة، بل تقريباً في حكم الميتة، فلم يقبل المجيء إلى الاحتفال سوى نصف الضيوف المدعوين من العائلة، من أصحاب النوايا الطيبة المتسامحين. قالت تيريز إن ذلك قد أحزن أمها، لكن لعل الوقت يداوي هذا الجرح؛ أما أبوها فكان قد مات قبل سنوات. مجاملة للجانب اليهودي تم التغاضي

عن عقد الزواج في الكنيسة، كان سعيد على أية حال يجد صعوبة في التعامل مع النزعة القومية الجامحة لدى الكثير من القساوسة. في المقابل سوف يقوم حاخام متحرر ـ وقد قال إنه وجد واحداً بالفعل ـ بمباركة الزوجين المقترنين ببعضهما حديثاً. وفي النهاية كان الاحتفال سيقام في قاعة فندق بيلفيو، بالموسيقى وأطعمة الكوشر.

كان سعيد متوتراً، بدا ذلك واضحاً عليه، قال إنه من ضمن الحماقات البشرية الكثيرة أن يتشبث المرء بالنزاعات الدينية. كانت إيميلي جالسة طوال الوقت متقوقعة على نفسها، ترشف الشامبانيا بين الحين والآخر، كأنما أرادت أن تستعرض ـ وهي المسلمة السابقة ـ أن المعمودية المسيحية تجلب معها كذلك المزيد من الحريات. حين صارت الأم وابنتها لاحقاً وحدهما في الغرفة، خطر لروزا إن واقعة مركزية تتكرر في تاريخ عائلتها: تحول العروس إلى دين العريس، وفي المرتين تبرأت منها عائلتها، أو جزء منها. سألت روزا أمها التي كانت قد استلقت على السرير بكامل ملابسها، عن رأيها إن كانت ترى الأمر هكذا كذلك.

امتعض وجهها: «تكرار؟» لماذا يعدّ ذلك تكراراً؟ قصة سعيد وماريا ـ تيريزيا تلك» ـ نطقت الاسم بطريقة صحيحة تماماً ـ «قصة مختلفة تماماً. أنا فقدت كل شيء حين رحلت عن زنجبار. أما ماريا ـ تريزيا في المقابل، فإنها تربح الكثير جداً». بدا أن المقارنة استفزتها وعذبتها بالقدر نفسه. راحت تتنفس بصعوبة، ثم بدأت تبكي بكاءً مكتوماً.

جلست روزا إلى جوارها على طرف السرير، أمسكت بيدها وحاولت أن تواسيها: قالت إنها ربحت شيئاً بالفعل، ألا وهو أبناؤها.

«أي نعم، أنتم» ـ قالت إيميلي بنبرة فاترة ـ «أنتم كل ما لي». وهذه

المرة خرجت الجملة بنبرة حزينة على نحو مقلق، بحيث انهمرت دموع روزا كذلك من عينيها.

عندما تتذكر الحفل الذي كان في اليوم التالي - هل كان ذلك يوم الثلاثاء؟ - تختلط عليها أشياء كثيرة. على الإفطار وصل خطيبها أخيراً، بمظهر حربي تماماً بزيه العسكري، الذي كانت به مع ذلك بعض الثنيات بعد رحلة القطار الليلية من برومبرغ إلى برلين. صافح سعيداً باليد على مضض، واتخذ مسافة ذراع من تيريز. كان قد علم باستقالة سعيد من منصبه ملازماً أول، ولم يكن يستطيع أن يتفهم ذلك.

أبلغ سعيد الحضور بأن الزواج المدني كان قد تم بالفعل في اليوم السابق، وأنه هو وتيريز يستعدان الآن لما يلي ذلك، ثم اختفى هو والعروس. حوّطهم بعض الضيوف غير المعروفين. خطر ببال روزا مندهشةً أنهم كانوا جميعاً متأنقين. هل كانت تتوقع الضفائر اليهودية والقفاطين؟ حاولت أن تحفظ بعض الأسماء، لكنها كانت تنساها على الفور. كانوا حوالي خمسين أو ستين، لفت نظرها من بينهم واحد، له هيئة بطريركية، ولحية كثيفة، جاء في أروع حلة، وقد تجمهر حوله ما يزيد على عشرة أشخاص. كان هذا لودفيغ موند، رجل الصناعة، خال تيريز، كانت تطل منه سطوة، جعلت روزا تبتعد عنه. كان يمزح، ويتسامر بصوت عال وطاغٍ، ويطرقع بأصابعه. بينما كان هو بوضوح محط اهتمام كل الحضور، بدت إيميلي كأنها تنكمش في مقعدها، رغم أن كلتي ابنتيها كانتا تعتنيان بها، بينما كانت هي تضع الصغيرة مارغاريتا غريتشن على حجرها كالكنز القابل للكسر. وقف ترومر معهم مستقيماً كالعصا، ولم يكن يعرف ما الذي يحدث له. بدا لروز أنه كان يرتعد في كل مرة كانت تقدّمه فيها لآل موند وماتياس ورويته الذين حضروا، بوصفه خطيبها.

خرج الضيوف بعد ذلك إلى الهواء الطلق، فقد كان الطقس في ذلك اليوم من شهر سبتمبر لا يزال صيفياً دافئاً، والسماء خالية من السحب. ركبوا عربات الأحصنة إلى المعبد. على مساحة خضراء صغيرة في الجوار ـ عرفت روزا فيما بعد أن تلك كانت حديقة مونبيجو ـ كانت قد أقيمت مظلة من بالورود، التف حولها الضيوف. كانت هناك مجموعة من الكراسي القابلة للطي من أجل كبار السن، فجلست إيميلي كذلك عليها. العديد من الرجال كانوا في تلك الأثناء قد وضعوا القلنسوات اليهودية على رؤوسهم. ما حدث بعد ذلك بالترتيب لم تعد روزا تتذكره لاحقاً، لأن ترومر كان يقف إلى جوارها مستنكراً، وقد همس في أذنها عدة مرات: «جلبة يهودية!» كان هذا كافياً لإلهائها عن الحفل. كانت تخشى أن يتسبب في فضيحة. وقد استطاعت أن تمنعه من ذلك من خلال النظرات المتوعدة، وبالضغط على يديه، لكنه ظل لفترة طويلة فيما بعد يرفض استقبال سعيد وتيريز في بيته. في وقت ما جيء بالعريس والعروس محمولين على كرسيين، وهو ما أشعل الحماس على نحو كبير، ثم وقفا تحت المظلة، كلاهما في ملابس بيضاء، وتيريز بالطرحة، فلايزال ذلك المشهد يتجلى أمام عيني روز حتى الآن. بدّلا خاتمين من الذهب، راح الحاخام ـ الذي كانت قد تخيلته أكبر سناً من ذلك بكثير ـ يقرأ باللغة العبرية من إحدى اللفائف المكتوبة بخط اليد، وهو ما يعدّ جزءاً من ذلك الطقس. شربا النبيذ من كأس واحدة، خُبِّأت بعدها في شرشف، ثم رُميت على الأرض، فأخذ سعيد يدكها بقدميه، ثم سُمع صوت الزجاج يُطحن، تأوهات في البداية في المحيط، ثم تهليل. صفق المسيحيون في الخلفية كذلك، بعضهم بحماس كاد يكون زائداً، من باب الإحراج وبنية حسنة في آن. أما إيميلي فبدا أنها لا تكاد تشارك في الأمر برمته. عبر سعيد بوضوح عن إحجامه عن العرف

السائد بأن تدور العروس حول العريس سبع مرات. بينما أراد الإبقاء على عادة دهس الزجاج، التي ترمز إلى الدمار الكبير في تاريخ إسرائيل، ويُعتقد أنها تجلب الحظ في الوقت نفسه. همس ترومر متجهماً في أذن روزا إنه من غير المعقول أن يكونا زوجين مسيحيين، وبدلا من أن يذهبا للكنيسة، يتحملان تلك الشعوذة.

بعدها ذهبنا إلى قاعة فندق بيلفيو المزينة بأكاليل الزهور، للأكل، والاحتفال، والرقص. تتذكر روز المائدة الطويلة، كانت عليها قيعان الخرشوف، والفطائر، وسمك السبوط المحشوّ، والسلطات من كل نوع، ولحم الضأن، كما شرب الحضور نخباً من النبيذ الفرنسي. لم يأكل القائد العسكري ترومر الذي كان إلى جوار روزا سوى القليل، كان يفتقد شرائح لحم الخنزير، كما استغرب التوابل غير المعتادة، التي كان حنك روزا قد ألِفها منذ زمن. بعد المقبلات شرب العروسان المقترنان لتوهما نخباً في صحة ضيوف الحفل، حينئذٍ بملابس مختلفة، سعيد بملابس داكنة من دون قلنسوة، وتيريز بتنورة أنيقة بطيات ضيقة باللون الأبيض المصفرّ، مع عقد مزدوج من اللؤلؤ. جلست طوني قبالة روزا على رأس المائدة، بدت في ضوء النهار وقد تقدمت جداً في السن. جريتشن في ثوبها المكشكش الصغير ـ تحملها إيميلي معظم الوقت ـ كانت تصرخ بين الحين والآخر بشدة، فتأتيها التسلية من كل جهة. أمدت الحفيدة الجدة بالذريعة اللازمة لكي لا تتورط في تواصل قوي مع جيرانها على الطاولة، أمّ تيريز، وخالها المبجّل لودفيغ. بدا لروزا أن ذلك كان مناسباً للطرف الآخر أيضاً. فحين يجلس العرب واليهود قبالة بعضهم البعض، فهم بداية

لا يثقون ببعضهم، لم يكن ذلك بالطبع أمراً قابلاً للتغيير.

كانت تودّ أن تعرف من أخيها إن كان يشعر بالسعادة.

فأجابها: «بالطبع» ـ وسألها مشيراً بطرف عينه إلى قائدها العسكري المتجهم: «وأنت؟»

قالت: «أنا وجدت رجلي المستقبلي. إنه رجل رصين جداً. وهذه نعمة. ففي مثل عمري يكون المرء قد ودّع الأفكار الرومانسية منذ زمن».

«حسناً» ـ قالها محاولاً إخفاء ذهوله.

نظرت إليه في تحدٍّ: «أنت لست كذلك؟ ألازِلت تحلم بالوجد والحب الخالد؟»

ابتسم خجِلاً: «ليس الحب الخالد، وإنما ربما طويل الأمد».

أخفقت نظرها: «إذن كل شيء على مايرام».

أطباق الحلوى أيضاً ـ بعد المزيد من الأدعية ـ كانت فاخرة، كعك بالمكسرات، وفطائر الكريمة، وكومبوت الكرز. أكثر ما أعجب طوني كان بسكويت جوز الهند، التي أطعمت جريتشن منه كذلك، وحكت وسط الأصوات العالية، وبأسلوب يكاد يقترب من النشوة، عن كتاب الطبخ التي تخطط لنشره، حينئذٍ تعرفت روزا عليها من جديد، هي أختها المفعمة بالأفكار المبتكرة. لكن لم يأت ذكر براندايس بكلمة واحدة.

ظهرت فرقة موسيقية، كمان، وتشيللو، وكلارينيت، وتمت زحزحة الطاولات إلى جوار بعضها. في البداية عُزفت بناءً على طلب سعيد الموسيقى الكلاسيكية، بيتهوفين وبعض الرقصات الألمانية، ثم جاءت آلة الصنج، كان عجوز محني ينقر عليها بحيوية شبابية، وصارت الموسيقى شرقية، سرت في السيقان، وبدأ الجميع يرقص، أزواجاً في

البداية، وحدثت بعض التصادمات، ضحك الجميع كثيراً، أو بالأحرى بلا اكتراث. حتى ترومر شعر بأنه كان مدفوعاً إلى تحريك روزا بعض الشيء هنا وهناك. كان الضيوف من الجانب اليهودي يغنون أحياناً مع الموسيقى، ثم قاد موند القوي رقصة جماعية في الدائرة، فأظهر اليهود الشباب كم يستطيعون القفز على ارتفاع عالٍ. تعالت الضحكات، وتداخلت الوجوه. دعا موند روزا للرقص، لم تكن تعرف ماذا كان عليها أن تفهم من ذلك. كانت رائحة السيجار تفوح من فمه، والكمان تصخب بعلو صوتها. شعرت أنها أصيبت بالدوار. أجلسها موند على كرسي مظهراً قلقه عليها، ناولها كأساً من البراندي، ثم اتجه إلى فتاة أخرى أصغر سناً، وتجاهلها ترومر لبعض الوقت من فرط غيرته.

مع حلول المساء غاب العروسان. بعد الساعة العاشرة خلت القاعة، ذهبت إيميلي شاعرة بالصداع إلى غرفتها، فانسحب ترومر هو الآخر، من دون صداع. أدركت روزا أنها ـ رغم تبرّمه ـ كانت تحبه، وإن لم يخلُ ذلك من بعض الحذر، وقد اعتبرت تلك علامة جيدة.

جاءت اللحظة التي استطاعت فيها أخيراً أن تتحدث إلى طوني حديثاً حميماً، وقد نامت جريتشن على ذراعها.

«كيف حالك بحق، يا أختي الحبيبة؟» ـ سألتها من الجهة الأخرى من الطاولة ـ «تبدين مرهقة، منهكة تماماً».

شربت طوني كأسها من النبيذ على مرة واحدة وابتسمت، بمسحة من الاستياء. «ليس هذا غريباً بعد رحلة طويلة إلى هذا الحد، ألا تعتقدين؟»

«أعني أنك مرهقة داخلياً» ـ أضافت روزا، وقد حلا لها فجأة أن تستفزها.

قالت بكلمات ممطوطة وهي تتحاشى نظرات روزا: «الحياة فيما وراء البحار مجهدة. على المرء أن يرتد طوال الوقت. لا شيء يكون متوفراً، عندما تكونين في أمس الحاجة إليه. ثم تطلبينه وتظلين في انتظاره لمدة أربعة أشهر. حدث ذلك لي مؤخراً مع قمع، قمع معتاد تماماً». ضحكت بصوت عالٍ، وخرجت ضحكتها مبحوحة على نحو غير معتاد. «كان عندي واحد، في صناديق المطبخ المرتبة بعناية تلك، التي تزودنا بها الخارجية، فكل شيء متوفر بها. لذلك فإنني أحسب أنه قد سُرق. حسناً، يستطيع المرء أن يساعد نفسه بمواد بديلة، أن يصنع واحداً من اللحاء، أو من الكارتون، لكن الأمر غريب: إنني أريد بكل ما لدي من قوة استرجاع قمعي المعدني، وأريده هو تحديداً». تطلعت إلى أختها بنظرة تتراوح بين السخرية من الذات والغضب. «أتستطيعين فهم ذلك؟»

أومأت روزا وشعرت فجأة بتعاطف شديد.

سألتها: «وكيف حالك إذن مع زوجك؟»

بدا كأن طوني قد تجمّدت. بعد برهة حركت شفتيها، لكنّ صوتاً لم يخرج منهما.

صبت لها روزا المزيد من النبيذ، قالت: «سامحيني، هل تسببت لك في إساءة ما؟» كانت طوني تعلم بالفعل أنها لم تكن معجبة ببراندايس، ولم يكن أحد في العائلة معجب به. كانت روزا تعتبره مدعياً وتتهمه بأنه مستبد.

كانت طوني تصارع نفسها، كان بالإمكان استشعار ذلك من تنفسها بصعوبة، ومن ضغطة كتفيها إلى الخلف، إذ أخرجت الكلمات أخيراً: «ليست لديك فكرة. إنه عالم آخر هناك. الأعلى مرتبة هو من يضع

القواعد. وهذا في موقفنا هو براندايس. غريب أنني اعتقدت في لحظة ما أنه كان مهتما بي على الإطلاق».

قالت روزا متهيّبة: «ربما كان خطأً من الأساس الظن بأن الرجال يهتمون حقاً بالنساء»

قاطعتها طوني: «إن اهتمامه ينصب بالأساس على امتثالي لأوامره. والشئون الجسدية، كما يمكنك أن تتخيلي بالتأكيد».

أومأت روزا خجِلةً. فلم تكن الأختان قد تحدثتا عن تلك الأمور من قبل على الإطلاق تقريباً.

أخذت طوني تبحث عن الكلمات، ثم انحنت فوق الطاولة فجأة وهمست: «سأفشي لك سراً ما: إن براندايس حيوان».

ظنت روزا في البداية أنها أخطأت السمع، لكن طوني كررت الجملة، والآن بصوت أعلى: «براندايس حيوان». اتكأت مرة أخرى إلى الوراء، أزاحت شعرها من على جبينها، ونظرت إلى أختها بعينين مغرورقتين.

فسألتها روزا متحيرة: «وهل ستعودين إليه؟»

«وماذا عساني أفعل غير ذلك؟» ـ قالت طوني ذلك، بعد لحظة صمت ثقيلة الوطأة، بينما كان عازف الكمان في أحد أركان القاعة يدَوزِن آلته؛ كان أحد الضيوف المتبقين قد طلب منه رقصة أخيرة. رمقت روزا بنظرة زائغة، وقالت: «هناك التزامات، أنت تعرفين ذلك تماماً كما أعرف أنا».

كانت تعرف ذلك حقاً، وكان أحب إليها أن تبتلع لسانها بسبب سؤالها هذا. تدخل الكمان مع الصنج بلحن حزين، كان في الحقيقة لحن شرقي يُسمع قبل النوم. لكنه أيقظ جريتشن، فبدأت تجعجع،

وتقاوم بالركل محاولات أمها أن تهزها لتعود إلى النوم. وقفت طوني، ضامة الطفلة إلى صدرها، قالت: «لابد أن أذهب إلى الغرفة».

انصرفت، وبقيت روزا جالسة، شربت كأساً أخرى من النبيذ.

لم تحكِ لها أختها مرة أخرى عن تعاستها الزوجية أبداً، لكن الأمر لم يكن بحاجة لأكثر من هذه الجملة، لكي يتجلى أمام عينيها، أي شقاء تعيشه طوني رغم بساتين النخيل. في تلك الليلة عند إيميلي في غرفتها، تساءلت كيف سيكون حالها هي مع ترومر، وحال سعيد مع تيريز. كانت خائفة، ولو كانت قد عرفت ما ينتظرهم جميعاً، لكانت تقدمت أكثر في العمر.

بعدها بشهور تزوجت هي الأخرى. لم يكن الحفل فاخراً، لكنه كان في الحقيقة جميلاً. كان بإمكانها الاستغناء عن الأبهة الزائدة، هي وترومر وجها الدعوة لعدد أقل من ضيوف سعيد. كانت طوني قد سافرت بالفعل، لكن أمها وأخاها تمنيا لها حظاً سعيداً في هذا اليوم، بدا على الأقل أن الروابط الأسرية بينهم هم الثلاثة سليمة. بذل ترومر مجهوداً صادقاً للعب دور العريس كامل الأوصاف، واستقبال الضيوف - بما فيهم تيريز - بلطف خشبي. إلا أنه واجه صعوبة في وضع خاتم الزواج في إصبعها، حين وقفا أمام القس، فساعدته ونجت بنفسها بابتسامة. بقيت الأحاديث على الطاولة هذه المرة سطحية، وقد أسعدها ذلك. لو كان سعيد قد سألها كيف كان حالها بحق، لكانت واجهت صعوبة في الرد بإجابة صادقة. مشاعر متضاربة كانت قد تشابكت مع بعضها البعض، كان الشك يعذبها، وإذا ما كانت باختيارها لترومر قد اختارت الشخص المناسب حقاً. ليلة الزفاف أصابها الهلع، لكن ترومر أظهر لها مراعاة ورقة أكثر مما كانت تتوقع. استلقت بعدها يقظة لمدة

طويلة. بينما كان زوجها مستغرقاً في النوم إلى جوارها، كانت هي تتساءل، كيف كانت طوني في منطقة جنوب المحيط الهادئ تتعامل مع زوجها براندايس، وكانت قد توصلت تقريباً إلى أنها قد حصلت على الأفضل.

انتزعت موافقة ترومر على أن تعود لقضاء فترة أخيرة مع إيميلي في بيروت. لم يكن ذلك معتاداً من عروس حديثة الزواج. قالت إن أمها تحتاج للدعم، لابد من تسليتها، فهي أحياناً ترى كل شيء أسود. ضغط ترومر على نفسه بموافقة مترددة؛ ارتضى أن ترتفع حواجب كل المحيطين بهم دهشة من ذلك الانفصال، وقبِل بوعد روزا له بأن تزوره - رغم طول الرحلة - كل بضعة أشهر في مقر وحدته.

ولكن كم حلت بيروت في عينيها الآن، كم كانت تشعر بحريتها هناك! على أية حال أكثر تحرراً من الواجبات الاجتماعية في الدوائر البرجوازية البرلينية. كذلك لم تضطر للاهتمام كثيراً بالملابس، كانت تلبس التنورات القطنية الفضفاضة، وهو ضرب من المستحيل في ألمانيا الفيلهيمينية؛ هناك كان ترومر ليقطب جبينه إذا ما ظهر كاحلها فحسب. كم كانت تحب روائح بيروت، ذلك المزيج من الثمار شديدة النضج، والتوابل بجميع أنواعها، والخبز العربي المحمّص، والسمك المشويّ، بالإضافة إلى الريح التي كانت تمسّد على قمم شجر السرو!

استغرق هذا الذهاب والإياب المعقد بين ألمانيا وبيروت سنة ونصف السنة. بعدها حبلت روزا. لم يعد هناك مفر من استقرارها حتمياً مع زوجها، وقد تفهمت ذلك أيضاً أمها، التي أرادت أن تبقى في بيروت. كانت حالتها النفسية قد تحسنت، وقد ساعدها بعض الأقارب الجدد والقدامى - ومن بينهم القنصل شرودر - على استعادة توازنها بقدر

كبير. دبّرت روزا ذلك على الأقل، لكي تخفف من شعورها بتأنيب الضمير.

كان عليها الآن أن تتبع خطى ترومر المهنية، التي قادته إلى شبانداو، ومايننتس، وبرومبرغ. وقد صار قائداً عاماً لسلاح المشاة، برتبة عقيد. كان فخوراً بنجاحه، كما كانت روزا أيضاً إلى حد كبير. سمّت ابنتها الأولى إيميلي إكراماً لأمها، والثانية بيرتا. صارت مشغولة بتربية الأبناء، ومتابعة عمل مربية الأطفال، بالإضافة إلى أعمال المنزل والحديقة. لم تعجبها الحياة في الوحدة العسكرية، وكان ترومر يعرف ذلك. في الأمسيات التي كان عليها بوصفها زوجة ضابط الجيش أن تنظمها، كانت تصنع كعكة التفاح المشهود لها بها، وتتأنق هي وابنتاها، وتتبادل الأحاديث عن وصفات الطبخ (لم يكن باستطاعتها تقديم الوصفات العجيبة مثل طوني)، وعن الشكوى من ساعات الخدمة غير العادلة للأزواج. لم يسمح هذا المحيط بحوارات أكثر حميمية من ذلك.

لم تعلم سوى القليل عن عمل ترومر، إلا أنه كان متغيباً معظم الوقت، كان يخرج من البيت مبكراً في الخامسة صباحاً، ويغيب لياليِ في المناورات. كثيراً ما كان مزاجه يكون سيئاً، فلم يكد وقتئذ يتحمل الأبناء، كان يشعر بأنه مضطهد من رؤسائه، ومستفزاً من عدم كفاءة مرؤوسيه. عندما كان صوته يُبحّ، كانت تدرك أنه كان قد زعق كثيراً خلال اليوم، وقد كان بوسعه بين الحين والآخر أن يعلي صوته عليها هي الأخرى. لم يكن يحب أخاها ولا زوج أختها. كان برانديس في نظره محدوداً ومتعصباً، أما سعيد فكان منفتحاً على العالم أكثر من اللازم، وغير مفهومة وجهات نظره. كانت المقابلات العائلية نادرة، كانوا يتحاشونها لأن التوتر بين الرجال كان محسوساً جداً. كانت إيميلي

تزور أبناءها فرادى كل بضعة سنوات. ما كان يريح روزا هو أن ترومر كان يعامل حماته معاملة جيدة، كانت قد بددت الظنون السيئة التي كانت لديه في البداية. بدا كأنه عبر السنوات استوعب شيئاً ما من قصة حياتها المأساوية.

ثم اندلعت الحرب العظمى الأولى. اغتيال ولي عهد سارايفو، آلة التعبئة العامة، التي دارت وكان من المستحيل توقيفها، التهليل للحرب في كل مكان، الشباب الذين ذهبوا متحمسين إلى الموت: مر زمن على ذلك، وقد طغت الحرب العظمى الثانية على تلك الصور، ومع ذلك فقد كانت حاضرة في ذهن روز الآن مجدداً، تحديداً بسبب التهليل من جديد بالخارج. في الوقت المناسب، قبل أن يتحول البحر كذلك إلى ساحة قتال، وصلت إيميلي إليهم في بومبرغ، كانت قد قررت وقتئذ بالفعل أن تغادر الشرق، وقد وافق ترومر - بعد بعض التذمر في البداية - أن تستقر لديهم مؤقتاً. تم إرساله إلى الجبهة الشرقية، في مواجهة روسيا، كانوا يقرأون ويسمعون عن الانتصارات الألمانية، والقليل عن الخسائر، رغم أن معدلات أعداد القتلى التي نُشرت في الصحف كانت تتزايد بلا انقطاع. كانت روزا مع بناتها تخشى على حياته؛ وقد تطوعت لإسعاف المصابين في المستشفى الميداني، إلا أنها لم تُقبل لكونها زوجة أحد كبار الضباط. لدى عودته لقضاء العطلة - كانت كل عطلة لا تتعدى بضعة أيام - لم يكن ترومر يحكي سوى القليل. لم يكن من دعاة الحرب، بل مجرد جندي مخلص.

الحرب التي ظن الجميع أنها ستكون قصيرة وحاسمة كما كانت في ١٨٧٠، استمرت طويلاً. كانت الجيوش تتخندق - كما قال ترومر بعد ذلك ذات مرة - كحشود من حيوانات الخلد العمياء، وحين كانوا يخرجون رؤسهم من خنادقهم وحُفَرهم، كانوا يشعرون بالغثيان. في

شهر فبراير ١٩١٦ تم نقل كتيبته إلى فردان، حيث أراد فالكنهاين[1] المشئوم أن يجعل الفرنسيين ينزفوا بشدة. إلا أن الألمان نزفوا بنفس القدر، مئات الآلاف، لم يكن هناك منتصر في هذه المعركة، بل ضحايا فحسب، قتلى، ومشوهون، ومصابون بالجنون، بالإضافة إلى ذويهم اليائسين. كيف نجا زوجها ترومر من هذا الجحيم، هذا ما لم تستطع روزا أن تتصوره. في إحدى المراحل النادرة بعد عودته، حين كان يربط أكثر من عشر جمل ببعضها، قال إن قعقعة مستمرة كانت ترعد في الهواء، تعلو وتنخفض، ليل نهار، وبعدها وميض الضوء، ثم انفجارات القذائف، كأن أحداً يصفع أبواباً معدنية بجوار أذنيك، بحيث يصاب المرء بالطرش ثم يظل بعدها أزيز وطنين رهيبان يترددان بداخله. صرخات الجرحى آتية من كل مكان، ليلاً، أثناء هطول المطر، بينما يصير الوحل داخل الخندق أكثر عمقاً، في المقابل كان هو كقائد، بالمقارنة بالجنود العاديين، يعيش في ظروف مريحة.

«لابد أنه كان الجحيم بعينه». قالت روزا ذلك ووضعت يدها على يده.

فردّ: «إن المرءِ يتعوّد بطريقة أو بأخرى على كل شيء».

في بداية عام ١٩١٧ عاد من الحرب، كان قد أنهى خدمته. عُيّن مؤخراً قائداً عاماً، وحصل على وسام إضافي. لكن ذلك لم يعد يعني

---

(١) إريش فون فالكنهاين: قائد عسكري ألماني، كان رئيس الأركان العامة في الإمبراطورية الألمانية من ١٩١٤ إلى ١٩١٦ أثناء الحرب العالمية الأولى. وقد خلف هيلموت فون مولتكه الأصغر بعد هزيمة القوات الألمانية في معركة المارن الأولى. استقال فون فالكنهاين أثناء معركة فردان التي فشل فيها الألمان في اختراق الخطوط الفرنسية عام ١٩١٦.

له الكثير. صحيح أنه كان قد تجاوز الثلاثمائة يوم في الجحيم المصنوع بيد الإنسان، لكنه كان قد خرب من الداخل، وقد وارى ذلك خلف صمته، لا مبالاة مصطنعة في التعامل مع الآخرين. في الجوهر كانت روزا تدرك «ت» القديم بجوانبه الطيبة والفظة معاً؛ فحول ذلك تراكمت أشياء أخرى نمت بداخل ذلك الجوهر: إحساس طفولي بالضياع، فزع مباغت، كانت تراه في وميض عينيه. بين الحين والآخر كلمة غليظة إذا ما أقفل أحد الباب، أو إذا ما تعالت ضحكات البنات بعض الشيء. ثم يعود إليه ذلك الشرود. النوبات المفاجئة ـ والجديدة عليها ـ من التوق إلى الحلوى، كان بوسعه أن يلتهم نصف كعكة، من دون أن يظهر أنه يستطيب مذاقها. أحياناً كان يدرس بعض الخرائط من أيام الحرب، ينكب عليها، فتزحف نظارة القراءة أسفل أنفه. أما الهزيمة الألمانية فقد كان يحيط بها علماً من دون تعليق، ثم يأتي تعليق وحيد لاحقاً: إنه كان يتوقع ذلك، وإن القيصر لا يستحق الشفقة. مع إيميلي كان يحب أن يتحدث عن سقوط الدولة العثمانية، لكنه كان يفقد خيوط الحديث بعد بضعة جمل، بينما لم تكن هي تشارك في ذلك على أية حال. فلم تكن تفهم ذلك العالم الذي كان يتشكّل من جديد؛ أحيانا بدا لروزا، أن كلمة واحدة هي التي كانت تجعلها حقاً تنتبه: زنجبار. في الوقت نفسه بدا أنها قد قبرت هدف حياتها ـ ألا وهو الصُّلح مع عائلتها والحصول على إرثها ـ في أعماق قلبها. ذات مرة، قبل أن تنتقل العائلة إلى يينا، سافرت بضعة أسابيع لزيارة سعيد في لوتسيرن. ثم عادت ولم تكد تحكي شيئاً.

مضت ثلاثة أعوام، وقد اختمرت المزيد من الجراح. لم يكن الجنرال السابق معجباً بالنازي، لم يرفع يده ملوحاً بتحية هيتلر، لم يخرج في المسيرات الحاشدة، كان ضد تنصيب هيتلر مستشاراً

للإمبراطورية، وعارض رفع الأعلام ذات الصليب المعقوف على الواجهات، رغم أن ابنته إيميلي ـ التي كانت وقتئذٍ قد صارت محامية متخرجة في كلية الحقوق ـ كانت في ذلك اليوم تحديداً قد جاءت بصحبة زوجها إيريش في زيارة طويلة إلى يينا، وقد كانا ليحبان رؤية الزخرف بالأعلام.

صبت روز لنفسها كأساً ثانية، الأخيرة اليوم، كما نوت بينها وبين نفسها. لكنها تريد أن تحتفل على طريقتها؛ إن الانتصار يشعرها بالضيق، والخمر يخفف من وطأة ذلك التناقض. إيريش شفينجه، زوج ابنتها، كان هو الآخر يبعث بداخلها بعض المشاعر المتناقضة. كانت لدى المحامي البارع رغبة شديدة في أن يصير أستاذا بالجامعة بأسرع وقت ممكن، ١٩٣٤ أو ١٩٣٥. كم كان يتشكى من كونه ـ بسبب زيجته غير الآرية ـ قد حُرم الأستاذية الكاملة في هاله. لكنه مع ذلك تقدم حثيثاً إلى الأمام، فقد صار متخصصاً في القانون الجنائي العسكري، ودعا لتشديد عقوباته، وتطبيق الإعدام الفوري على الخونة، ولتشديد قواعد الانضباط بالقوات المسلحة في العموم. كان النازيون يحبون كل هذا القدر من الجسارة، هكذا يتغاضون عن زيجة غير لائقة. كان قد تم توظيفه بالفعل إلى ماربورغ، وهو يدرس الآن في فيينا، وهو معروف بحسه القانوني الحاد. لكن روز لا تسمع الكثير عن الحال هناك، وهي لا تعرف إن كان عليها أن تندم، لأن إيميلي الصغيرة تقف بثبات الصخر إلى جانب إيريش. كان جلياً لترومر بالمناسبة أنه ـ تحت حكم هيتلر، ومع زوجة هي ابنة سيدة عربية ـ لم يكن ليصبح جنرالاً عاماً أبداً. لقد كان كلاهما في البداية فخورَين بإيريش الحاذق، الذي ضمته إيميلي إلى العائلة، الخلوق الذي لا تشوبه شائبة. لكنه أراد بالفعل في المرة الأولى أن يتناقش مع ترومر حول اتفاقية فيرساي الشائنة، وعبودية جمهورية

فايمار، وحول غطرسة القوى المنتصرة، كان يظن أن حماه المستقبلي ـ بوصفه أحد كبار الضباط السابقين في الحرب العالمية ـ سوف يشاركه استياءه.. أما كون ترومر قد بقي متحفظاً وقليل الكلام، ولم يبدِ موقفاً واضحاً، فإن ذلك قد خيب آماله؛ وقد فترت العلاقة بينهما بسرعة شديدة.

في مساء يوم ٣٠ يناير ١٩٣٣ عبر ترومر فجأة بجملة واحدة، لم تنسها روز أبداً: «أخشى أننا الآن مقدمون على حرب جديدة وأكثر قسوةً». كانت لغته بالفعل قد تأدبت وبدا فيها التقدم في السن، لم يكد المرء يفهم مايقول.

عارضه إيريش بعنف: إن ما يعني هيتلر ـ مثل بيسمارك من قبله ـ هو استعادة توازن القوى في أوروبا، وهو ما يستلزم بدوره أن يكون للشعب الألماني مساحة كافية للعيش. بهذا المعنى يكون الزعيم محارباً من أجل السلام. هز ترومر رأسه، وعاد لصمته من جديد.

مرة أخرى يا حبيبي، ماذا كنت لتقول اليوم؟ حرب خاطفة، لا حرب خنادق. بيتان يحكم فرنسا جثةً. إنه إحلال السلام على الطريقة الألمانية. وأنت كنت وبقيت ألمانياً مرة بعد مرة. فلتهنأ إذن في قبرك. إننا نعيش ـ هكذا يقولون بالخارج ـ في زمان عظيم. تفرغ كأسها بابتسامة بينما يهيأ لها أنها تسمع ترومر يتبرم: ليست تلك سوى سكرة سابقة لأوانها، سوف يكون على الألمان أن يدفعوا ثمن ذلك فيما بعد. حينئذ يصيبها الفزع فجأة، وتبدأ في تصديق هذا الصوت، الذي كان قد صمت بالفعل.

٨

لو كنت معك يا أخي، لاستطعت أن أريك الطريقة التي تمكنك من زيادة مواردك، وخفض مصروفاتك، بحيث يمكن لرعيتك أيضاً أن تستفيد. إن كنت تريد تنظيم التجارة وغير ذلك مع الحكومة الألمانية، بإمكاني أن أمْثل شخصياً أمام الحاكم، لأدافع عن مصالحك. فهو إنسان صالح.

قبل كل منعطف على الطريق المؤدي للمشفى كان سائق التاكسي يرفع قدمه من على مكبس البنزين، فيجبر العربة على أن تسير ببطء شديد؛ فإن النفير ـ كما قال معتذراً ـ كان معطلاً. على جبل بيلاتوس ـ الذي كان يظهر بين الحين والآخر وسط السحب كشخص متقلب المزاج ـ كان الثلج قد تساقط مجدداً. لاحت المباني في الأفق، طلب رودولف من سائق التاكسي الوقوف عند ممر الحصى أمام المبنى الرئيسي. كان إلى جواره الشاليه القديم بواجهته المصنوعة من الخشب البني الداكن المحروق، وعتبات نوافذه، التي كانت زهريات الجيرانيوم توضع عليها في الصيف. لا شيء في هذا المنظر يدل على وجود المرضى المستلقين داخل غرفهم. صفوف الشرفات ـ التي كانت تربط واجهتي المبنى الجملون المدهونتين بالأصفر ـ كانت خالية. لم يكن معجباً بالأصفر الشاحب على الواجهات؛ كان يذكّره بالحساء غير

المشهّي، وبملاءات السرير في المدرسة الحربية. مثل هذه الذكريات حمل ثقيل، يحمله المرء طوال حياته. كان معروفاً لدى مكتب الاستقبال؛ استقبلته السيدة العاملة في خدمة الاستقبال ـ والتي كانت شُقرة شعرها قد صارت أفتح درجة مرة أخرى ـ بابتسامة. فقد كان يعرف بالفعل أين غرفة تيريز. رغم وجع الركبتين صعد إلى الطابق الثاني، في الجهة الجنوبية. كانت تعجب به حين يرتدي البدلة، تقول إنها تضفي عليه نفحة من زمانها اللندني. وقد ارتدى اليوم أيضاً رابطة العنق الرمادية المفضضة، المنقطة بالأزرق، التي يفترض أن تذكرها بحفلات الاستقبال آنذاك. كم مرّ وقت على دعوة السفارة الإيرانية لهما لحفل عيد ميلاد رضا شاه بهلوي. حفلة لا تنسى، بسيطة دون الانزلاق إلى العادي. وتلك المائدة الفاخرة! كان المرء لا يزال ينظر إليه وقتئذ باعتباره رجلاً مؤثراً، كانت علاقاته المتشعبة بالمستشرقين والمصرفيين، والساسة معروفة.

علق رودولف قبعته، وضبط عقدة ربطة العنق، وأقفل أزرار السترة السوداء الحالكة، قبل أن يطرق الباب. أصغى السمع، لم يسمع شيئاً، فدخل بحذر.

كانت الغرفة ـ التي تكون في العادة مشرقة ـ معتمة بفعل الستائر نصف المسدلة. كانت تيريز مستلقية في السرير، كانت نائمة، لكنها فتحت عينيها، حين جلس على الكرسي عند رأسها.

«أهذا أنت؟» سألت باسمة ومدت يدها الباردة تصافحه. منذ فترة كانا قد تغاضيا عن التحية بالتقبيل، لم يكن يعرف في الحقيقة لماذا. ربما أرادا الإفلات من الروائح الغريبة، التي صارت تلازمهما؛ فقد صارحته ذات مرة، بأن رائحة فمه كثيراً ما تكون سيئة، والشيء نفسه

ينطبق عليها. تطلع إليها، حاول جاهداً أن يتفادى ابتسامتها، وخطر له: كم صارت مسنة فعلاً! كل ملامحها المدببة صارت أكثر دقة في الأسابيع الأخيرة، وصارت تجاعيد وجهها أعمق، كما كان لونٌ أبيض مصفرّ قد نمى على خصلات شعرها طاغياً على صبغة الشعر الأخيرة. كان شكله الآن أصغر منها سناً، وقد كان يعرف ذلك، أصغر، لكن ليس أقل وهناً. لقد كان كلاهما متعبان، ومكتئبان.

لكن مِمّ؟ من أحداث الدهر؟ من المصيبة التي حلت على ألمانيا؟ أم ربما من وحدتهما المتزايدة؟ كان الابن والابنة ـ فيرنر وأولجا ـ بعيدين، كلاهما في الولايات المتحدة. ماتت أنطوني، ولم يكن قد أبلغ تيريز بذلك سوى قبل ثلاثة أيام. لا توجد أية أخبار عن روزالي وزوجها. أما أقارب تيريز فكان يتكشّف من أسبوع لآخر ما كان قد حدث لهم. ما الذي كان يريد أن يلملمه هنا، أو يرممه؟ كان أوان ذلك قد فات، كان كل منهما قد صار عجوزاً. أخذ يربت على يد تيريز.

ـ «كيف حالك يا حبيبتي؟»

لوت فمها مثل طفل عاصٍ؛ منذ عقود كان يعرف تلك الصفة فيها. «لا تسألني. أنا اليوم أشعر بالوهن. أجد صعوبة في التنفس. لحسن الحظ لست مصابة بالحمى، حرارتي مرتفعة بعض الشيء فحسب». توقفت عن الكلام برهة، وتفحصته. «إنك ترتدي رابطة العنق الفضية». ابتسمت مرة أخرى، هذه المرة ابتسمت عيناها المحاطتان بالتجاعيد كذلك، وقد مسّ ذلك قلبه.

سحبت يدها في حذر من تحت يده، وأشارت إلى ذقنه: «لقد جرحت نفسك مرة أخرى. أوتعرف: عليك ضرورياً أن تشذب شاربك».

أومأ وداري استياءه. فإن الجرح الصغير جراء الحلاقة الصباحية لم يكن يكاد يُرى. خطر له: إنها تيريز كما كانت وسوف تظل كعادتها، تتحذلق بشأن مظهره الخارجي، أكثر من مظهرها هي. كان ذلك هو الحال منذ زفافها؛ من نفسها تماماً نزلت على ركبتيها لتمنح حذاءه الجلدي الفاخر لمعته الأخيرة بممسحة الجلود، مباشرة قبيل أن يدخلا قاعة الاحتفال، ويتم استقبالهما بالتهليل وبتحية «مازل توف». غريب أن المرء لا ينسى مثل هذه الترهات أبداً.

سألها: «ماذا يقول الطبيب؟»

«أمر بالراحة في السرير لبضعة أيام. الحالة لم تسؤ على أية حال. غداً أو بعد غدٍ سأخرج لأتمشى بالتأكيد، متدثرة جيداً طبعاً».

أومأ ثم أدرك أن ذلك صار هو رد الفعل الذي يصدر عنه غالباً تجاه زوجته: إيماءة، أحياناً متسامحة، وأحياناً متشككة. «لو كانت الشمس مشرقة، لكان بوسعك الجلوس في الشرفة. لكن هكذا! هذا الظهور الذي لا يجاوز الخمس دقائق، إنه مجرد فاتح شهية غير مشبع.

ضحكت برهة، ضحكة الفتاة الشابة، التي لم تتخلَّ عنها طوال السنين. «إنك فعلاً شاعر متخفّ».

«هذا عبث! لكن ألا تريدين السماح للمزيد من الضوء بالدخول؟» دون انتظار ردها، ذهب باتجاه النافذة ورفع الستائر. انسكب الضوء متخللاً السحب إلى الداخل مثل موجة لانهائية. عندما عاد ليجلس إلى جوار تيريز، كانت قد استدارت نصف استدارة باتجاه الحائط.

سألها: «هل الضوء شديد؟»

«لا لا، دعه الآن».

التزما الصمت برهة، ثم بدأ صوت أنفاسها ينتظم. استجمع

رودولف قوته في مواجهة هذا الايقاع المنتظم. ففي الصيف الماضي، كانت تيريزا - بعد أن اكتشفوا ظلاً داكناً على رئتها - قد أمضت أربعة أسابيع في زونمات. كانا يعرفان المشفى منذ سنوات عيشهما في لوتسيرن. كان مشفى دافوس أكثر تقدماً، وله شهرة أوسع في حالات إصابات الرئة، لكن دافوس لم يكن ليوفر هواءً أفضل. كان قد أقنع تيريز بأن تتحمل نفقات إقامتها هنا؛ فبُعَيْد الحرب مباشرة كان بالإمكان التفاوض مع إدارة المشفى لتخفيض الأسعار. كان هو من ناحيته قد أقام في فندق شفايتسرهوف، وكان يزور تيريز بانتظام، في وضع مشابه لما هو عليه الحال الآن في بداية الربيع. كان التحسن المنشود في الصيف قد حدث بالفعل، لكن حالة تيريز كانت قد ساءت مرة أخرى خلال الشتاء اللندني الرطب، لذلك كانت المحاولة المتجددة لخفض تأثير التغير المناخي عليها. في بعض الأحيان كان يفكر في أن تيريز قد تموت قريباً، في لحظات بعينها - حيث كاد جلدها يبدو شفافاً - كانت تبدو كأنها اقتربت من ذلك. لكن لم يكن الفزع من أنه قد يفقدها هو ما سرى بداخله، وإنما شعور طاغ بالانتظار؛ المجهول الذي كان ينتظره، كان يمكن أن يتضمن كل شيء، فزعاً، وبداية جديدة، ويأساً، وتحرراً.

كاد يكون قد تجاهل صوتها: «هل تعتقد بالفعل أنه من العدل أننا نجونا من كل هذا؟» التزم الصمت، فأكملت: «أحياناً أقول لنفسي: إننا كنا جبناء ببساطة لأننا لم نبقَ».

«اسمحي لي!» - سحب كرسيه مبتعداً مسافة قدم محدثاً دوياً عالياً - «هل كنت لتودّين أن ينتهي بك الحال إلى المعتقل؟ إلى المحرقة؟»

قالت: «الأزواج الذين كانوا مثلنا، لم يتم ترحيلهم، بل نُقِلوا إلى بيوت اليهود».

عارضها: «إنك تنسين أنني أنا أيضاً كنت أعدّ نصف آري. كنا لنصير ضحايا، ليس إلا. في لندن كان بإمكاننا على الأقل مساعدة بضعة عشرات من المهاجرين. جمعنا لهم التبرعات. رتبنا لهم أوراق الهوية، وعناوين السكن. كنت أودّ مساعدة الدكتورة هيدفيغ كلاين ـ كما تذكرين ـ بكل السبل للخروج من ألمانيا. لكنني للأسف لم أفلح في ذلك».

مرة أخرى أدارت تيريز إليه وجهها، الذي بدا عليه مجدداً ذلك التعبير العنيد، الذي كان يعرفه جيداً: «أعرف كل هذا، فلا زال عقلي سليماً. ومع ذلك يؤرقني ليلاً السؤال، عما إن كنا قد ببساطة تخلينا عن عائلاتنا».

حينئذٍ كانت قد أثارت غضبه من جديد. يال تلك النزعة الأخلاقية المربكة. «كان بإمكانهم الهجرة في وقت مبكر، ولم يرغبوا في ذلك، كانوا قد تجاهلوا كل العلامات بلا مبرر. وذلك لوقت طويل، حتى كان الأوان قد فات».

«حسناً، لا تغضب مني». ـ تنهدت، وتلمست يديه بعينين نصف مغمضتين ـ «أنا أعلم طبعاً أنه لم يكن هناك معنى لبقائنا. ومع ذلك فأنا لا أستطيع تجاوز الأمر. كل أبناء وبنات عمومتي، وأطفالهم. فقدوا.. اختفوا. لحسن الحظ لم يكن على والدي أن يشهدوا ذلك».

هذه المرة استغرق الصمت وقتاً أطول. كان يقاوم ضجره. في كل زيارة تقريباً كانوا يقعون في تلك المشاجرة غير المجدية، ينهكون أنفسهم كمن يدور في حلقة مفرغة. أخذ يلعن كل أقاربه من اليهود، الذين كانوا ينظرون لأنفسهم باعتبارهم ألمان صالحين، ولم يظنوا أنه من الممكن أن يختصرهم النازيون بقسوة وظيفية بحتة في كونهم يهوداً.

تذكر ضيوف حفل الزفاف وقتذاك في قاعة احتفالات فندق جراند أوتيل بيلفيو. تجلت لعينيه الصورة الجماعية، التي جمعتهم معاً تحت المظلة المزيّنة بالخارج: القسمات والمكانات الاجتماعية المختلفة، ملابس الاحتفال، قبعات الرجال، وقبعات النساء؛ أيّ خصائص كان يمكن من خلالها التمييز بين من هو آريّ ومن هو غير آريّ؟ من خلال الدم، تلك كانت إجابة النازيين الغبية المؤسفة. والملايين صدقوا ذلك. لعن أنصارهم ونزعتهم المدمرة للسير ضمن القطيع، لعن نفسه هو، إذ كان قد أحجم عن كتابة الرسائل لبريد قراء جريدة التايمز والNZZ السويسرية، لكي يجنب أختيه في ألمانيا أي أفعال انتقامية. هل كان يحمل همّهما، أم كان جباناً؟ كلاهما؛ فإن تصرفاته تحت الضغط لم تكن يوماً واضحة.

«آهٍ يا تيريز» ـ قال ـ «لقد انقضى كل ذلك الآن. علينا الآن أن نتطلع للمستقبل، للبقية المتبقية لنا».

«لم ينقضِ» ـ بدا له أنها كبحت الجملة التالية، إلا أنها مع ذلك قالت: «الحقيقة إنه لن ينقضيَ أبداً، وأنت تعرف ذلك أيضاً».

تحسس ربطة عنقه. كانت فَطِنة، زوجته تلك؛ في كثير من الأحيان كانت تعرف كيف تصيب موضع الجرح. ماذا عساه ينطبع في الذاكرة غير أهوال السنوات الأخيرة؟ الشيء الوحيد المعقول، كان هو سماح المجتمع الدولي لليهود بتأسيس دولتهم في فلسطين، وهو ما كان هرتزل[١] قد دعا إليه من قبل. ولكن في المقابل كان لابد من إشراك

---

(١) تيودور هرتزل: (١٨٦٠ ـ ١٩٠٤) صحفي يهودي نمساوي مجري، مؤسس الصهيونية السياسية المعاصرة. ولد في بودابست وتوفي في إدلاخ بالنمسا. في سنة ١٨٧٨ انتقلت عائلته إلى فيينا، حيث التحق هو بكلية الحقوق، حتى حصل على الدكتوراه=

الجانب العربي بنفس القدر من المساواة بكل تأكيد؛ وإلا فسوف يفضي إرغامه على تأسيس دولة جديدة إلى كارثة جديدة. كان ذلك الأمر كذلك يتعلق بالمستقبل، فلم يكن موقفه بالفعل خاطئاً تماماً. هكذا كان قد شرع في عرض تفسيره، لكن تيريز سألته فجأة: «هل سمعت شيئاً من أولجا؟»

أولجا، طفلتها جلابة الهموم؛ كانت فتاة مسترجلة، لم يكن لديها حظ أبداً مع الرجال. على المنضدة الصغيرة بجوار سرير تيريز كانت هناك صورة مؤطّرة لكلا الطفلين. هل كانت لتوها تنظر إليها؟ فيرنر، ذو العشر سنوات، بسروال قصير، قامطاً كرة قدم تحت ذراعه، بضحكة عريضة، وأولجا، تصغره بثمان سنوات، تنظر مرتابة، ومتحفزة، كما لو كانت في انتظار أن يقفز شيء من الكاميرا باتجاهها؛ أو ربما كان فيرنر قد همس لها بإنذار ما على سبيل المزاح. خلف الكاميرا كان هو - الأب - واقفاً، حيث كان يوجههم لاتخاذ الوضعية السليمة، إلا أن فيرنر لم يكن يريد أن يترك كرته. وفي الخلفية بحيرة لوتسيرن، وجبل ريغي، والسماء صافيةً. أنشودة رعوية مثالية، ١٩١٢.

=سنة ١٨٨٤ ثم اشتغل بعدها فترة قصيرة في محاكم فيينا وسالتسبورغ، ثم توجه إلى الأدب والتأليف، وعمل كذلك في الصحافة. وفي عام ١٨٩٦ صدر له كتيب بعنوان «الدولة اليهودية». وإن لم يجد الكتيب صدا واسعا في البداية إلا أنه وضع حجر الأساس لظهور الصهيونية السياسية وتأسيس الحركة الصهيونية بعد انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في مدينة بازل السويسرية بين ٢٩ و٣١ أغسطس ١٨٩٧، وقد تم انتخاب هرتزل رئيسا للمنظمة الصهيونية العالمية. بعدها بدأ عدة محادثات مع شخصيات عديدة من دول مختلفة، مثل القيصر الألماني فيلهلم الثاني الذي التقى به سنة ١٨٩٨ مرتين في ألمانيا وفي القدس، أو السلطان العثماني عبد الحميد الثاني سنة ١٩٠١، بحثا عن مؤيدين للمشروع الصهيوني. ورغم فشل جهوده إلا أنها تركت المجال مفتوحا لمواصلة العمل على تأسيس الدولة.

قال مشيراً إلى الصورة: «ألم يكن ذلك قريباً جداً؟»

مرة أخرى بابتسامتها البائسة: «أعتقد أن تلك كانت أحلى أيامنا. لكنني سألتك عن شيء».

مسح بلسانه شفتيه الجافتين.

قال: «انقطع البث، هذا كل ما أستطيع قوله. أولجا في واشنطن. كانت تلك آخر أخبارها قبل نصف العام، في برقية. وقد أريتك إياها».

«وهي مرتبطة بِمَن الآن؟ لقد نسيت الاسم».

« أوكسنر هو اسمه، فريديريك أوكسنر، صحفي أمريكي، ألست تذكرين ذلك؟»

تنهدت: «لكننا حتى لم نتعرف عليه».

«أنا لا أمانع في التعرف عليه. لقد كان خلال الحرب مراسل صحيفته في ألمانيا. لم يتورع عن مناوءة النازيين، وقد تم احتجازه أكثر من مرة. لقد حكيت لك ذلك. ما يحيرني هو أين التقيا. فهي لا تكتب شيئاً عن ذلك، ابنتنا أولجا هذه. ليس للآباء أن يعرفوا كل شيء».

بدا كأن تيريز تجاهلت كلماته. «أرجو ألا يخذلها الحظ هذه المرة. فقد كان طلاقها صعباً بما يكفي. وقد صارت بالفعل في الخامسة والثلاثين».

كانوا قد قتلوا كل ذلك بحثاً أكثر من مرة. كذلك كُون فيرنر ـ الذي كان يقدم نفسه الآن بوصفه رجل أعمال ـ قد تزوج هو الآخر في الولايات المتحدة، في بالم بيتش، بفلوريدا، تزوج أرملة تكبره بعشر سنوات. كانت تيريز خلال تلك الأحاديث تلح على نفسها بالسؤال الحتمي عما إذا كانا ـ كأبوين ـ يستحقان هذا، وكان رودولف يجيب

بالدبلوماسية المعتادة، بأن تلك هي ظروف الزمان الصعبة، التي دفعت أبناءهم للرحيل، وليس هما، الوالدين.

«أتريدين شرب شيء ما؟» ـ سألها لكي يصرف انتباهها.

«إذا كان بوسعك أن تحضر لي شاي اللويزية، يكون ذلك لطفاً منك».

كان سعيداً بأن يغادر الغرفة بأثاثها الثقيل لبعض الوقت، حتى وإن كان الأسهل أن يطلب الشاي عن طريق الهاتف. لكن كيف كانت الحوارات مع تيريز تكبده كل هذا الجهد؟ كانت تخرب عليه صفاء باله الذي حظي به بشق الأنفس، كانت تجعله يتعرق. كانت المائدة في قاعة الطعام معدة بالفعل، ولكن كان عليه أن يصيح بصوت عالٍ، لكي يهرول إليه أحد المتدربين، ليعدّ له الشاي بهذه الطريقة المعقدة. عاد بالصينية ـ التي حاول الحفاظ على توازنها بيد واحدة ـ إلى الطابق الثاني، وجاهد لكي لا ينسكب الشاي من الإبريق الصغير لدى صعوده السلم. بمجرد أن تخطى المجموعة الأولى من السلالم، أصيب بالدوار، وتسارعت نبضات قلبه. توقف ليلتقط أنفاسه. سألته ممرضة كانت آتية من الأعلى بخطى مسرعة، إن كان ينقصه شيء. هز رأسه، بينما أخذت قبعتها المنشّاة تتأرجح أمام عينيه صعوداً هبوطاً، فطوّق درابزين الدرج باليد الفارغة. لكنه استجمع قواه، وأجبر نفسه على مواصلة طريقه. كان متأكداً من أن الممرضة كانت تنتبه له. إنه القلب مرة أخرى، هو الذي يغدق عليه بمثل هذه الألاعيب. عندما وصل بالفعل إلى غرفة تيريز ـ بعد فتح الباب وإغلاقه بصعوبة ـ لم يكن قد انسكب منه سوى القليل من الشاي. كانت قد نامت ثانية، فوضع الصينية على المنضدة الصغيرة، ألقى نظرة عليها، على زوجته. كم

تعجب ليلة عرسهما من نهود ثدييها، ومن نعومة جلدها، وهفيف شعرها الكثيف! مثل هذه الأمور لا تُنسى.

تحركت تحت الغطاء، تنهدت، ورفعت ذراعاً واحدة، فانزلق عنها كُم قميص النوم إلى الوراء، ووضعتها خلف رأسها. كانت قد صارت نحيلة، أفزعه بروز عظامها. لن تلبث أن تصير جلداً على عظم، هكذا خطر له، فاعترف لنفسه أن الحب ـ ليس حب الجسد فقط ـ صار الآن يبهت تدريجياً، مثل صورة قديمة تعرضت للشمس طويلاً. مع ذلك بقي الكثير، الاعتياد قبل كل شيء، كلا، بل التعلق، المرتبط ببعض الودّ، الذي دفعه الآن أيضاً، لكي يرفع لها خصلات شعرها من على جبينها المبتل. استيقظت، وشكرته على الشاي، الذي ناولها إياه. اعتدلت في جلستها، فسند ظهرها بوسادتين. أما الفنجان المملوء الذي مدت يدها إليه، فقد كاد يسقط منها. قالت متذمرةً: «ساخن جداً»، فأخذ منها الفنجان، بينما بدا أقل منها حساسية، وأعاده على الصينية.

«فلننتظر هنينهة» ـ قالها، ثم حنق لاستخدامه صيغة التصغير التي تناسب طفلاً صغيراً وليس زوجته.

قالت: «يمكنك أن تنفخ فيه، فهذا يساعد على أن يبرد».

فعل ذلك، راح يطلق أنفاسه فيدعها تداعب سطح الشاي المتموج، لكنه مالبث أن عاد ليصب الشاي في الإبريق الصغير مرة أخرى، ثم يعيده للفنجان ببطء كخيط الطويل. كرر تلك العملية بضعة مرات، وجس حرارة الخزف. تصاعدت رائحة اللويزية إلى أنفه. كان ليفضل النعناع لنفسه، فقد كان يذكره بليالي الخِيَم في الشرق.

قال: «الآن صار جيداً» ـ وناولها الفنجان مجدداً، وهذه المرة شربت بلا اعتراض، على جرعات صغيرة نهمة.

لم يتحدثا بعد ذلك سوى قليل. ودعها قبل موعد الغذاء، ووعدها أن يعود إليها بعد الغد. هذه المرة تغاضى عن المرور على طبيب المشفى، فلم يكن ليتلقى أخباراً مختلفة عن الأسبوع السابق: غالباً بالفعل بؤرة التهاب رئوي درني، المستقبل مجهول، وسوف يتم عمل كشف بالأشعة قريباً. لايزال ذلك الانطباع بالفراغ في المبنى موجوداً، ومع ذلك هناك غمغمات مزعجة في كل مكان. أم كان ذلك خيال؟ بالخارج الآن ريح أشد، أجبرته على ضغط القبعة أكثر على جبينه. كان قد قرر أن يتخذ طريق العودة إلى وسط المدينة سيراً على الأقدام. سار نزولاً عبر بعض الطرق المختصرة، صارت خطواته أطول؛ غريب أنه كان بين الحين والآخر يستشعر طاقة شبابية بداخله. كان العشب أميل إلى اللون البني، باستثناء بعض الخضار الطازج هنا وهناك، مرقّطاً ببعض زهيرات اللؤلؤية الصغيرة. شجر الفاكهة كوحوش لها أشواك، في النظرة الثانية كان بالإمكان رؤية البراعم التي لا تحصى. خلال أسابيع قليلة سوف يزهر المكان كله، أكاليل شجر الكرز سوف يكسوها البياض، هياكل هشة من الجمال المشعّ. واساه هذا التصور قليلاً. كانت السماء حينئذٍ قد غطتها السحب من جديد، فقط حين كانت غيمة تنفرج وتتخللها أشعة الشمس، كان يرى ظله الشاحب.

كان مرهقاً حين وصل إلى وسط المدينة، كان حذاؤه الأيسر يؤلمه. تخطته بعض السيارات، وشاحنة نقل صلصلت عليها أوعية الحليب. كانت البحيرة على غير العادة داكنة ومهتاجة. قام شخص عابر لايعرفه برفع القبعة تحية له، وقد كان رودولف منزعجاً لدرجة أنه لم يرد التحية في حينها. مر بفندق شفايتسرهوف شارد الذهن. وقد أدرك ذلك بعد فوات الوقت، فلام نفسه، وعاد مرة أخرى للفندق. في غرفته خلع حذاءه، حرك أصابع قدميه شاعراً بالارتياح وتمدد ـ بعد أن فك رابطة

العنق قليلاً ـ على الأريكة. قليلاً من النعاس الآن، وإتاحة مساحة للذكريات الجميلة، وإبعاد الذكريات السيئة.

لكن أحداً طرق الباب. لم يكن قد طلب شيئاً، ولا بانتظار أحد. صار الطرق أكثر إلحاحاً. خطر له الزائر الذي فاجأه قبل بضعة أيام، هل كان هو؟

«نعم، حسناً» ـ قال ذلك بينما اعتدل نصف جالس.

لم يأتِ أحد. هل كان يتوهّم؟ لكن شخصاً ما تطرق إلى ذهنه، فلم يعد يستطيع طرده: لودفيغ موند. لماذا تحديداً الآن؟ كثيراً ما كان يتمنى طرده من ذاكرته كالذئب الأجرب. لكنه كان بذلك ليظلمه، فقد كان يدين بالفضل للخال لودفيغ ـ كما كان يدعه يناديه ـ بالكثير من الفضل. لكنه مع ذلك كان يتحول دائماً أمام هذا الرجل الضخم ذو اللحية الكثيفة، والصوت المجلجِل، إلى أضحوكة ماسخة، كان ينبهر به، ويلعنه في أعماقه. ما الذي كان بوسعه ـ هو الشخص الحالم بالسلام ـ أن يقدم في مواجهة تاريخ موند الحافل بالنجاحات؟ كان يأمل في أن يبدو غامضاً على الأقل، أكثر أهمية مما كان فعلاً، هو ـ الـ«غوي»[1] ـ الذي لم يكن في نظر موند يتناسب مع أقاربه اليهود بالقدر الكافي. مع ذلك فقد احتواه لودفيغ موند ببشاشته، وأجبره على أن يناديه بـ«أنت»، التي لم تكن تخرج من شفتيه سوى بصعوبة. كان قد توفي قبل الحرب العالمية الأولى؛ وقد حضر الجنازة كل من كان له اسم ومكانة في لندن، حتى أن الملك أرسل ولي العهد لينوب عنه. شعر كل من تيريز ورودولف بأنهما غير مرئيين تقريباً وسط هذا الحضور، كان أمراً صعب

---

(١) غوي: مصطلح ديني يهودي يطلقه اليهود على غير اليهود. وهي مفرد «غوييم»، التي تعني باللغة العبرية الشعب أو القوم، ومقابلها في العربية «الأغيار».

التحمل. متى التقيا هو وموند آخر مرة؟ ١٩٠٦، أجل، قبل سفرته الثانية إلى مصر، كانوا قد قضوا أسبوعي المصيف ـ ومعهم فيرنر ـ على جبل بورغينشتوك؛ فقد زارهم الخال لودفيغ، الذي كان رغم كبر سنه لايزال يقوم برحلات جبلية، في الفندق الذي كان قد بني حديثاً، وكان برفقته صديقان يصغرانه في السن بفارق كبير. احتضن ابنة أخته بطريقته العاطفيه المندفعة كالمعتاد، وهنأ رودولف بمصافحة قوية باليد على تقلّده منصب مدير البنك في القاهرة. قال على المائدة مازحاً: «الآن سيصير منك شيء واضح المعالم». وأطلق ضحكاته الراجفة التي أرهبت فيرنر الصغير. «هكذا هو الحال يا عزيزي، فبالكلمات وحدها لن تغير الظروف».

في البداية كان قد راود رودولف ـ مدعوماً بالاسم الجديد وبموقعه كمدير ـ شعور بالندية تجاه موند، فتجرأ على معارضته. «سوف أظل يا خال لودفيغ ملتزماً بالدفاع عن مبدأ التفاهم بين الشعوب حتى وإن كنت أنت تستخف به. كما أن ذلك سبباً آخر لاستقراري في القاهرة. أعتقد أن بإمكاني هناك فعل شيء ما من أجل مناخ أفضل بين إنجلترا وألمانيا، وبين الأجناس والأديان».

ضربه موند ضربة قوية على كتفه، وكالعادة لم يعرف رودولف، إن كانت بحسن نية، أم أنها تعني الاستهانة به. «أنت تريد السلام؟ وأنا أيضاً. أنت ضد العنف المسلح؟ وأنا أيضاً. كوني أمنح الآلاف في مصانع الصودا الخاصة بي عملاً وراتباً فإنني أعتبر ذلك هو الجهد الأنفع في سبيل السلام. فإن هذا يمنع الاضطرابات الاجتماعية كما يعرقل صعود الاشتراكيين. أم أنك ترى شيئاً مختلفاً يا بني؟»

لم يكن الأمر يروق لرودولف عندما كان موند يتحدث إليه بتلك

السخرية الفظة، لكنه لم يكن يريد افتعال شجار مفاجئ؛ وقد كانت ركلات تيريز من تحت الطاولة بسن حذائها تمثل إنذاراً كافياً له. كان ذلك الحوار قد أسكته مجدداً. وكان الأسوأ هو لفتة موند الكريمة، حين قام بدفع فاتورة الفندق في كتمان تام. لم يكن العم ينتظر شكراً، لكن بالطبع كان لابد من شكره، على ورق فاخر، بكلمات منمقة؛ كان المرء دائماً مديناً له بالشكر. أما الشكر على وصية موند ـ ١٩١٠، في الوقت المناسب تماماً ـ فلم يعد هناك شخص حيّ يُوجَّه إليه، وقد تحول الامتنان إلى شعور بالخجل، ولم يكن لديه للدفاع عن نفسه في مواجهة ذلك أي شيء على الإطلاق سوى غضبه الجائر. فلم يدع موند مجالاً لاتهامه سوى بالشيء القليل؛ على أقصى تقدير أزعجت مسألة أنه ـ وهو الكيميائي البارع ـ كان قد غادر ألمانيا في توقيت مبكر جداً، بعض الألمان ذوي الميول الوطنية. ألم يكن عليه أن يخدم وطنه، بدلاً من أن يسهم في زيادة إنعاش الصناعة الإنجليزية؟ كان قد سأل موند عن ذلك من قبل. وكانت الإجابة قصيرة، لا تخلو من المرارة: «لِم غادرت؟ لأنني تنبهت إلى أن التحيز ضد اليهود في إنجلترا كان أقل بكثير منه في كاسل وفي أماكن أخرى. إنني أشعر بحرية أكبر في إنجلترا. هنا أيضاً توجد معاداة للسامية، ولكن لم تحدث مذابح مدبرة أبداً. Yes, that's the reason» ـ أنهى كلامه بلغته الجديدة، كأنما أراد أن يطرح موقفه بوضوح أكثر.

تساءل رودولف، ماذا كان شخص مثل موند ليقول عن ألمانيا المُدمّرة اليوم، وعن القتل الجماعي لليهود؟ كان ليفقد عقله. ثم؟ هل كان ليهاجر إلى فلسطين؟ هل كان سيوافق على أن تقام الآن ـ على حساب العرب ـ دولة لليهود؟ لا يمكن أبداً مسبقاً معرفة في أي اتجاه قد يتطور الإنسان. كما أن رغبة المرء في اكتشاف منطق خفي وراء

وثبات وتحولات القدر كان أمراً مستحيلاً. حتى فيما يتعلق به هو نفسه. لماذا ظل يحاول عبر السنين دفع السياسيين - من خلال خطابات مطوّلة - للتفكير بشكل مغاير؟ على الدوام هذه المحاولات المتجددة. كان يعرف بالفعل أنها لا تجدي شيئاً، ومع ذلك فقد ترك الآمال تبرق أمام عينيه. كتب لمستشار الإمبراطورية الألمانية بيتمان هولفيج، في عام ١٩١٥، في خضم الحرب، أنه لن يكون بوسعه إحلال السلام العالمي إلا بالتفاهم على أسس المساواة الواعية، تحديداً كذلك بين ألمانيا وإنجلترا؛ عرض أن يقوم بتوضيح ذلك له بشكل شخصي. وبِمَ أجاب المستشار؟ تلك السطور القليلة - المكتوبة فعلياً بنبرة ساخرة - كانت قد أثرت فيه كلمة كلمة، كان بإمكانه حتى الآن أن يقرأها غيباً: «إنني أؤكد لفخامتكم بكل التقدير تلقي رسالتكم اللطيفة، المرسلة في يوم ١٦ من الشهر الجاري. بكل أسف، إن وقتي حالياً منشغل جداً، بحيث سأضطر لأن أحرم نفسي من متعة لقائك». رسالة صد، كالعادة. ألم يكن لودفيغ موند بالفعل قد حقق إنجازاً لصالح الإنسانية أكبر مما حققه كافة الفلاسفة المثاليين؟ هو، رودولف، لم يكن - منذ مغادرته للبنك في الشرق - قد تبنّى أية مسئولية حقيقية. كذلك أيام عمله مديراً، كان بالأساس ينفذ - وبمنتهى الطاعة - أوامر رؤسائه في برلين. وبعدها؟ لم يكن له نصيب في منصب مؤثر في عصبة الأمم ولا في الحركة الصهيونية. لم يصِر حتى سكرتيراً ضمن مؤتمر نزع السلاح العالمي في جينيف. دائماً كان هناك شيء ما يقف في طريقه. وفي النهاية كان هو نفسه ذلك الشيء. وهل كان من الشجاعة، في عام ١٩٣٤، حين كانت كل العلامات تنبئ بالعاصفة، أن يصير مواطناً بريطانياً؟ هل كانت تلك بطولة، أن يدير ظهره - مشمئزاً، وبمنتهى الأريحية - للرايخ الثالث؟ لم يكن أحد حتى قد جرده من جنسيته مثل توماس مان، فقد كان يعدّ أقل

خطراً بكثير من أن يستلزم الأمر ذلك؛ صارت الجنسية الألمانية ـ في ظل نظيرتها البريطانية ـ لاغية ببساطة.

وفيما عدا ذلك؟ رأى نفسه فجأة في إحدى الخيم الكبيرة، التي كان قد عقد الكثير من المفاوضات بداخلها. كان يجلس القرفصاء على بساط ناعم، بينما الصواني المحملة بأفخر الأطعمة تدور في كل اتجاه، ويتم صب شاي النعناع مرة بعد أخرى. استعادت ذاكرته مذاق طحينة الحمص، ومحشي الباذنجان، والتمر الناضج. هبّة ريح ضربت سطح الخيمة، فجعلتها ترتعش في تموجات خفيفة، وجعلت ستار المدخل يرفرف. راحت بقع الضوء والظل تهرول فوق الأرض، وفوق الرجال ذوي الثياب البيضاء، ضحكات، وأصوات متداخلة؛ كان التفاوض بهذه الطريقة كذلك دائماً لعبة. لم يكن ـ إذ كان متشبثاً بهدفه ـ قد أدرك ذلك سوى في مرحلة متأخرة جداً من حياته.

وقد أخذ يفكر فيما كانت أمه قد فقدته، حين رحلت: حرية الريح الخفيفة، والرمال تحت القدمين. ليس من قبيل الصدفة أنها كانت قد أخذت معها كيس رمل صغير من زنجبار، وحفظته طيلة نصف قرن، وقد وضع الإخوة الثلاثة الكيس في جرّة حفظ الرماد داخل قبرها في مدافن أولسدورف. نهاية مناسبة لتلك الحياة. من رمال إلى رماد. لا يد تمسك بالأخرى. ثلاثة إخوة متنازعين ومختلفين.

٩

أستحلفك بالله يا أخي، إنني صدقاً آمل أن تسامحني على ما جرى في الماضي، فإنك تعرف كذلك، إنه لا أحد كامل ومعصوم من المعاصي سوى الواحد القدير.

كان العشاء في الصالون الأزرق قد انقضى موعده، وكان مدير الفندق قد أنهى جولته للترحيب بالضيوف، وكان زيلبرشتاين قد عزف أولى مقطوعات المازوركا لشوبان على البيانو. كان الحديث قد تدفق. كانت السيدة بلوخ خلال نزهتها قد رأت زهر الربيع العطري، رؤوس الثوم البري، أما الدكتور فايتسمان فقد وجد في الصيدلية المحلية أقراص العشب السكرية، التي تخفف السعال.

وماذا الآن؟ ليس مرة أخرى الشطرنج مع السيد زاراسين. ذلك الرجل من مدينة بازل، الذي يبدو متواضعاً جداً، كان يثير أعصاب رودولف، ليس لأن مواقفهما السياسية كانت متباينة، وإنما لأن زاراسين يلعب بطريقة غير تقليدية، لم يكد يكون ممكناً التغلب عليها بالافتتاحيات المعروفة، التي كان رودولف يتقنها. إلى جانب أنه لم يكن يحب أن يجلس قبالته خصم يعاني من ضيق التنفس؛ فإن ذلك الأزيز كان يشتت انتباهه. كان لا يحب الخسارة، لكنه كان قد تعلم،

أن يواريَ شعوره الصبياني بخيبة الأمل. إذن الأفضل لعب دورة بريدج بأربعة أشخاص. أو كأس من الويسكي على البار، فقد كان بيكوك يلح في دعوته إليه منذ أيام. لكن الأفضل لاشيء. منذ أن أقام في لوتسيرن، صار يشعر بالإرهاق مبكراً كل مساء، بأنه مستنفذ تقريباً، الحقيقة أنه كان أميل لفكرة العودة إلى غرفته، ليستلقي على الأريكة أو السرير. فإن تلك الأسابيع الأربعة كان الغرض منها أصلاً إتاحة فرصة للاستجمام بالنسبة له هو أيضاً. ربما كان ضغط الهواء هو ما يثقل عليه، وربما كذلك الانشغال الدائم بالماضي. وقد كانت شهادة الوفاة لاتزال موضوعة على مكتبه. كان قد قلبها، لكنه لم يودعها أحد الأدراج. ورق رديء، طباعة أيام الحرب، اسمه على المظروف متضخماً بالحبر الأخضر، مثل نذير شؤم: رودولف ـ سعيد رويته، حالياً في فندق جراند أوتيل شفايتسرهوف، لوتسيرن، سويسرا. كان أحياناً يشتاق لأحاديثه مع تيريز، تيريز الشابة، فقد كانت لديها القدرة على وضع الأشياء التي كانت تبدو له مضطربة، هكذا، واحد، اثنان، ثلاثة، في تسلسل جليّ. «هكذا هي الأمور حالياً، عليك أن تتصالح مع ذلك، لا تكسر رأسك إذن بلا جدوى!» هل كانت هناك جُمل أبسط من تلك؟ مع هذا كانت تساعده على القيام بالمهام الذي أقدم عليها بأريحية أكثر، وعلى كبح مطامحه.

نهض الجميع. مع انحناءة صغيرة من رأسه قال رودولف: «سيدة بلاخ، سادتي، فلتسمحوا لي بالانسحاب». جمل متقطعة، آسفة، والسؤال عما إذا كان ذلك الصداع عاد ينتابه مجدداً. ثم تم العفو عنه، فذهب، ماراً بزيلبرشتاين، إلى السلّم. تساءل ـ أثناء صعوده الدرج لاهثاً ـ عن أي حيوات مختلفة كانت قد جمعت ذلك الجمع على طاولته؛ وقد أدرك، شاعراً ببعض تأنيب الضمير، أن تفاصيل السير الذاتية لم

تعد تهمّه. بدا له أحياناً أن إلاهاً ما كان يرمي النرد للمرء عند كل مفترق طرق: من هنا، من هناك، وهذا ما كان ينتج عنه ـ جنباً إلى جنب مع صدفة الولادة ـ حياةً.

لماذا خطر له الآن، تحديداً عندما فتح باب الغرفة، بيسمارك؟ ألأنه كان في نظره يقف في صف لودفيغ موند نفسه؟ كان كلاهما ينتمي للرجال الأكبر منه سناً بسنوات، والأكثر تأثيراً، الذين كان ينشد قربهم بعناد. ليس القرب فقط، بل المواجهة معهم كذلك. كان في صباه قد قرأ كل شيء متاح عن بيسمارك، وتعمق في مسيرته الصعبة، وفي رحلة صعوده، واتخذه قدوة له؛ وقد أسهم دومبروفسكي كذلك في تقديره للمستشار. حين كان ملازماً في تورغاو، كان قد طلب ـ لأجل خاطر والدته ـ مقابلة بيسمارك، وتجاهل رسائل الرفض الأولى، ثم التمس تزكية أحد كبار القادة، وكتب مجدداً راجياً الاستماع إليه. وفي شهر يوليو ١٨٩٣ ، كان المستشار السابق ـ الذي كان القيصر الشاب فيلهيلم الثاني قد عزله عن منصبه ـ قد دعا السيد سعيد ـ رويته بالفعل على الغذاء في فريدريشسروه.

وصل إلى المزرعة، في زي المناسبات الرسمية، مبكراً جداً، شعر بالدوار وهو يترجل من العربة من شدة التوتر، وأخذ يروح ويجيء أمام المنزل لمدة ربع ساعة. في تلك الأثناء كان ينظر بصورة مستمرة إلى الساعة ويأمل ألا يكون الخدم يرقبونه من الداخل. الثانية عشرة تماماً جلجل جرس الباب، فبدأت بعض الكلاب تنبح. حياه الشاب الذي فتح له الباب بوذ روتيني، وقدم نفسه بوصفه الدكتور كريساندر، سكرتير بيسمارك وطبيبه المنزلي. في البهو الرئيسي قابلته ـ بعد أن خلع قبعته ـ سيدة المنزل ذات الشعر الأبيض، الأميرة بيسمارك، تبسمت بإباء، ومدت له أطراف أصابعها لكي يضع قبلة على يدها، ثم دلته إلى

طريق غرفة الطعام. هناك جلس الرجل المسنّ، إلى جوار المائدة المعدّة، غافياً على مقعد مجنح، وعند قدميه كلبان دنماركيان. كانت على ركبتيه جريدة مفرودة، كانت انزلقت منه؛ فعلى الأرض إلى جوار الكلبين كانت هناك جريدة أخرى. أفزع هذا المنظر سعيداً، كان يتوقع حضوراً، رجلاً لايزال متيناً بشارب مشذب، وحاجبين كثيفين، كما يظهر في عدد لانهائي من الصور، التي كان قد رآها له. الدكتور كريساندر ـ الذي كان فجأة واقفاً إلى جوار سعيد مجدداً ـ بادر الرجل الغافي بالكلام بصوت مرتفع إلى حد ما: «صاحب السموّ، لقد وصل ضيفكم: السيد الملازم رويته»، كان هذا كافياً لكي تسري رعشة في جسد بيسمارك. شد نفسه، ونظر إلى الباب نظرة فاحصة، استدعى الكلبين ـ اللذين أرادا تشمُّم الضيف ـ إليه مرة أخرى بنبرة صارمة، وأرسلهم تحت المنضدة بطرقعة من إصبعه. وقد أطاعا الأوامر دون إصدار أي صوت. عندما قام بيسمارك واقفاً، فزع سعيد مرة أخرى. لم يكن يتخيله طويلاً وضخماً إلى هذا الحد، بالإضافة إلى أنه كان يرتدي اللباس العسكري لقائد حربي بروسي. كان هذا ـ كما همس السكرتير لسعيد ـ راجعاً للوضع الحالي، كونه كان يستضيف جندياً؛ في مثل هذه الحالات، يبدي تقديرا للعسكرية من خلال اختياره لملابسه.

أدى سعيد التحية العسكرية، ضرب عقبيه ببعضهما. مد له بيسمارك يده، التي كانت ناعمة وباردة». أنا أيضاً سرني لقاؤكم يا سيدي الملازم». ـ قال ذلك بصوت من طبقة تينور الصوتية العليا؛ بينما كان المرء ليتوقع منه طبقة الباس، أدنى طبقة صوتية رجولية. وقد تبع هذه الكلمات بضحكة قصيرة متبرمة. ـ «لقد شغلتمانا أنتم وأمكم منذ سنوات بأموركما عدة مرات».

«هذا صحيح» ـ قال أحد من خلف ظهر سعيد، ضاحكاً هو الآخر ـ «كما ترون، إن أبي يستعدّ جيداً لاستقبال ضيوفه».

كان هذا هيربرت، الابن الأكبر لبيسمارك، كان أقصر من أبيه، لكن ممتلئاً مثله، يميل وجهه في بعض المواضع إلى الأرجواني. كان سعيد أيضاً قد استعلم عن رفقة المائدة المحتملة، كان يعلم أن هيربرت كان يتقلد منصب وزير خارجية ألمانيا أثناء إقامته في زنجبار؛ وقد كان الكثيرون يرون فيه بالفعل خلفاً محتملاً لوالده. لكن بعد خلافه مع فيلهيلم الثاني، كان هيربرت قد ترك منصبه هو الآخر على سبيل الولاء الأسري، أما الآن فقد كان تم انتخابه في مجلس النواب، فكان يأمل في استعادة مكانته من جديد. كان يقيم بين الحين والآخر مع زوجته، الكونتيسة هويوس، في الاستراحة الخاصة بوالده، التي لم تكن في الحقيقة سوى فندق صغير تم تجديده. من الصعب تصور أن الأمر كاد يصل إلى القطيعة مع أبيه ذات مرة بسبب علاقة عابرة مع امرأة متزوجة. كانت الشائعة قد انتشرت آنذاك، فهدد بيسمارك ابنه بالانتحار، إذا لم يتخلّ عن تلك العلاقة غير المشروعة.

حينئذ كان خمستهم قد جلسوا حول المائدة؛ هرول الكلبان إلى مكانهما عند المقعد الكبير، حيث كان هناك ركن رث للكلاب. اتخذ بيسمارك مكانه على رأس المائدة. كانت اللياقة تشعره بالضيق، فحاول ضبطها بإصبعين اثنين.

الطعام: بسيط، ريفي، لحوم مسلوقة مع صلصة الفجل والبطاطا، وتقدم ذلك حساء يصعب تحديد ماهيته؛ إلا أن النبيذ كان مختاراً بعناية، أفخر أنواع نبيذ منطقة راينغاو، كما أوضح كريساندر الجالس إلى جوار سعيد. وقد صدّق الأب والابن على كلامه بقوة، ومالبثت

الزجاجة الثانية تُنزع عنها سدّادتها الفلين. تعثر الحديث، كان كلّ بانتظار بيسمارك، أما هو فقد انهمك متجهماً في أكل اللحم البقري المسلوق القاسي. هكذا كانت هناك بين الحين والآخر بعض الملاحظات حول الطقس الصيفي المتقلب، حول الشاطئ والمحصول، وعن كيف يمكن أن يصير الجو خانقاً في برلين حتى في ظل درجات الحرارة المنخفضة. بقلق بالغ راح سعيد يتساءل، عما إذا كانت ستتاح له الفرصة للإدلاء بمطلبه.

«في تلك الأوقات أحمد لفريدريش هذه الاستراحة» ـ هكذا قاطع بيسمارك تلك الثرثرة، التي كانت مع ذلك تنطوي على شيء من التوتر الكامن، وأبعد الطبق نصف المملوء عنه ـ «لم أكن أستسيغ الأمر أبداً، حين يزاحم واحد الآخر».

سُمع الابن يرد: «لذلك تقدمت بهذه السرعة. كنت تفضل الوقوف أمام الجماهير، وليس وسطهم».

لم يعر العجوز مديح هيربرت اهتماماً. تفحص بعناية سعيداً، الذي أحنى رأسه أمام هذه النظرة المتيقظة. في العموم بدا كأن بيسمارك، منذ أن جلس إلى الطاولة، قد استعاد حيويته إلى حد كبير.

سأله: «إذن، سيدي الملازم، كيف ترى حالك في جيشنا؟»

لم يعد أحد يكمل تناول الطعام، بعد أن أبدا سيد المائدة أن وقت الأكل قد انقضى بالنسبة له؛ نظر الجميع لسعيد، الذي تدفق الدم إلى رأسه.

فقال بعد وقت من التفكير، بدا له طويلاً جداً: «ممتاز. إنها كذلك مهمة تربوية».

«صحيح!» ـ صفق بيسمارك بيديه مشيداً به ـ «فإن تربية الشباب،

الذين يحملون الكثير من الأوهام في رؤوسهم، ليصيروا جنوداً، ليست بالمهمة السهلة». تبع ذلك بإحدى لحظات صمته المريبة، ثم أشار بسبابته إلى سعيد: «هل جربت المبارزة بتبادل إطلاق النار من قبل، أيها الملازم؟»

حاول سعيد إخفاء صدمته. «لا يا صاحب السموّ، لم تكن هناك مناسبة لذلك، ويجب عليّ أن أعترف أنني في الحقيقة ضد المبارزة. فهي تبدو لي وسيلة بالية لرد الشرف».

«بالية؟» ـ تنحنح بيسمارك بصوت مرتفع جداً ومسح فمه بالمنديل ـ «كثير من الأشياء صارت تعد اليوم باليةً. قد يحدث أن يتم تحريم المبارزة قريباً. لكنني أقول لكم». ـ ضرب بكفه على المائدة، بحيث صلصلت الكؤوس ونبح أحد الكلاب لوهلة ـ «.. لا توجد مدرسة للرجولة أفضل من المبارزة. لايوجد ـ فيما عدا الحرب ـ سبيل ليتعلّم المرء التغلب على مخاوفه الخاصة، أفضل من المبارزة. هذا فقط بما أنكم ذكرتم المسائل التربوية، يا سيدي الملازم».

توجه هيربرت بحديثه لأبيه، ومرة أخرى لم يكن واضحاً إن كانت ملاحظته تتسم ببعض الاستهزاء أم أنها جادة فعلاً: «هذا السبيل هو الذي سلكتَه أنت. وقد جعلك صلباً بالتأكيد. أما عن نفسي» ـ كان الآن يتوجه لسعيد ـ «فقد تجنبته أنا أيضاً».

هل كان بيسمارك في شبابه قد نجا من إحدى المبارزات؟ هذا ما لم يكن سعيد يعرف عنه شيئاً، بيد أن ذلك لم يثره بالقدر الذي تمناه العجوز.

قال بيسمارك: «على المرء أن يواجه نفسه بالموت بجدية قبل المبارزة» ـ بينما وضعت زوجته، التي لم تبدر عنها ولا كلمة واحدة

حتى تلك اللحظة، يدها على ساعده ـ «عليه أن يراجع علاقته بالرب. وبإمكانه، إذا ما حان الوقت، أن يخطئ التصويب عن قصد».

أوضح هيربرت: «نفى والدي عن أحد خصومه في مجلس الشورى البروسي الموحد ـ كان قد تطاول عليه بدوره ـ حسن التربية. وقد أخطأ كل منهما التصويب على الآخر. سواء كان ذلك عن عمد أو عن غير قصد، لا أحد يعرف».

قاطعه بيسمارك، بينما اشتدت قبضة الكونتيسة على ساعده، قال: «هراء! كلانا صوّب وأطلق النار. ثم تصالحنا بعد ذلك. فهذا هو الهدف بالأساس. حتى لو لم أكن أمانع لحظتها أن أرى الخصم راقداً على العشب». ـ بدت ضحكاته هذه المرة مكتومة ـ «هل تفهمون قصدي، أيها الملازم؟ إنني هنا بين نارين. فهناك بلا ريب بعض الحجج الوجيهة ضد المبارزة. ولكن لا يصح أن يخلط المرء الحابل بالنابل. ولست أقصد على الإطلاق من إشادتي بالمبارزة ـ أو بالقيم التي تنطوي عليها ـ إسقاط ذلك على الاقتتال المسلح بين الأمم. ففي الشأن الأول يتعلق الأمر بالأفراد، ومفهومهم عن الشرف، وفي الثاني يتعلق بالموت المحتمل للآلاف. وفي ذلك الشأن الثاني، لابد أن يتم بذل أقصى الجهد، لتفادي ذلك. وهو للأسف ما لا يريد أن يتجلى لقيصرنا، في ظل ميوله التوسعية الصبيانية». تنحنح نحنحة تقارب في حدتها النباح، بينما خرس الكلبان. «يبقى الأمل ألا يبالغ في سياساته الخارجية الاستفزازية. فقد تكون النتائج بالنسبة للإمبراطورية الألمانية كارثية». كان يتحدث بحرارة، كانت الجُمل تتدفق من فمه بعد كل بداية متلعثمة.

لم يلتقط أحد على الطاولة الخيط، كان واضحاً، أن الرجل العجوز

لن يقبل بأي معارضة، حتى ابنه ضم، شفتيه كأنما كان يصفر لحناً غير مسموع. في تلك الأثناء تم رفع المائدة، ووضع الحلوى، كانت عبارة عن كعكة التوت البري. لم يتذكر سعيد بعدها ولا واحداً من الخدم؛ إلى هذا الحد كان كل تركيزه منصباً على بيسمارك.

التفت إلى الملازم: «إذن. والدتكم تقيم الآن في بيروت. عادت إلى موطنها في الشرق. ومن الواضح أنها لا تريد العودة إلى ألمانيا». نحنحة ثانية، تلتها جرعة كبيرة من كأس النبيذ. «إيه.. الشرق! ماذا نعرف نحن عن الحياة بين المسلمين؟ ماذا عن ألاعيب السياسة العثمانية؟ إننا نستطيب صورة ذلك الغريب الفاتن، التي ينقلها إلينا الرحالة المستشرقون. ولكن علينا أن نمعن النظر قبل كل شيء إلى الخطورة التي قد يشكلها سقوط الدولة العثمانية علينا. لعلك تتفق معي في ذلك يا هيربرت!»

استعد الابن للإجابة. لكن نظرة أبيه المتيقظة كانت قد تحولت مجدداً بالفعل إلى سعيد: «سيدي الملازم، إنكم تودون ـ كما تكتبون ـ أن يتم نقلكم إلى الشرق، إلى القنصلية في بيروت. لكن لماذا؟ فإن تبريركم ليس دقيقاً من وجهة نظري».

لوّح سعيد بالشوكة التي كان يأكل بها قطعة الكعك: «إن الأمر بالنسبة لي، يا صاحب السموّ، يتعلق بتعميق معرفتي بالشرق. فأنا ـ كما آمل أن تصدقني بشأن ذلك ـ ألماني خالص، لكنني أريد أن أفهم أكثر من أين أتت أمي، وكيف أثر جدي ـ كأحد القادة العرب المهمين، في رؤيتها ـ بل وليس رؤيتها وحدها ـ للعالم».

صاح بيسمارك: «لكنها كتبت ذلك بالفعل!» ـ فخفض سعيد الشوكة خجِلاً ـ «لقد قرأت بعض صفحات من مذكرات السيدة رويته. حيوية

ودقيقة، بل مغرقة في التفاصيل». ـ خفف من حدة نبرته ـ «ألا يتعلق الأمر بالنسبة لكم أيضاً بأن تكون على مقربة من والدتكم؟ أن يكون باستطاعتكم كابن مد يد العون لها».

«هذا أيضاً» ـ وافقه سعيد محاولاً التغلب على الموقف ـ «إنها تفتقدني، فأنا لم أرها منذ ثلاث سنوات. لقد صارت تشعر بالمرارة، تعيش في ظروف متواضعة، فلم تعد تكاد تأمل في شيء من ميراثها. وقد صارت للأسف تحمل في قلبها غصة تجاه ألمانيا. وإنني أريد أن أحاورها بشأن ذلك، وأن أحاول الترويح عنها».

«أعرف، أعرف» ـ قاطعه بيسمارك ـ «هذه القصة. لم يكن بوسعنا آنذاك فعل شيء آخر. كان الأمر يتعلق بإيجاد تسوية مع إنجلترا بشأن زنجبار. في مثل هذه القضايا لابد من التغاضي عن أمنيات الأفراد، مهما كانوا على حق».

تدخل هيربرت في الحديث قائلاً: «أما التسوية فقد صارت نهائية بالفعل الآن. لقد تنازلنا لانجلترا عن السيطرة على زنجبار، وفي المقابل أكدنا على مستحقاتنا الإقليمية في شرق أفريقيا وفزنا بهيلغولاند».

أزاح بيسمارك بعض فتات الكعك من على المائدة؛ مرة أخرى يد الكونتيسة المنذرة على ذراعه. «إنك لا تعني حقاً الدفاع عن ذلك الفعل الشائن الذي اقترفه من خلفني، أليس كذلك؟ لو كنت مازلت في منصبي، لم أكن لأؤيد اتفاقية هيلغولاند ـ زنجبار بشكلها هذا أبداً. ها نحن لم تعد لنا كلمة في زنجبار، التي كانت بالنسبة لنا نقطة تجارة مركزية لا يمكن أن تعوّض. إن للتوازن أشكالاً أخرى. كان لابد من التفاوض بشكل أفضل».

«بالطبع» ـ أسرع الابن بالتأكيد على ذلك ـ «كنت أود فقط أن أصف للملازم الوضع الراهن... »

«الذي يعرفه بالتأكيد. أتعلمون، يا سيدي الملازم، إنكم ـ لولا انسحابنا الجزئي من زنجبار ـ لربما كنتم قد صرتم سلطاناً الآن». تلا ذلك بعض قهقهات، شاركه إياها الابن وكريساندر الجاد.

رفت جفون سعيد، قال: «إنكم تبالغون في تقدير مواهبي يا صاحب السموّ. ففي تلك الحالة كان ليتعين عليّ على الأقل تحدث اللغة العربية بطلاقة، وليس هذا هو الحال. هكذا أفضل أن أظل ملازماً في تورغاو». ـ تلعثم برهة ثم استجمع شجاعته مجدداً ـ «فيما عدا طبعاً إذا كان سيتم إرسالي إلى بيروت. فليس مستبعداً على كل حال، أن أعمل على تحسين معارفي اللغوية القاصرة».

اشتدت ضحكات بيسمارك، وبدأت الكلاب تنبح من جديد. «إذن فإنكم لاتزالون تأملون في العرش؟»

هز سعيد رأسه بشدة، بينما أخرس بيسمارك الكلاب بصياح أجش. «إطلاقاً يا صاحب السموّ، لن يكون ذلك سوى عبث. ولكن ألا يمكن للخارجية مع ذلك إجراء محاولة أخرى لكي تحصل أمي على نصيبها من الميراث؟»

«حسناً» ـ تدخل هيربرت مرة أخرى ـ «لقد رفضت السيدة رويته ال٦٠٠٠ روبية التي عرضها السلطان برغش لتعويضها».

وقد بدأ سعيد كذلك يغضب: «لأنها لن تكون سوى مجرد صدقة! كانت أمي تمتلك مزارع، وبيوتاً، وخيول. وإن لمطالبها أساساً متيناً».

رفع بيسمارك يده في إشارة لإعطائه عهداً: «سأفعل ما أستطيع في حدود سلطاتي. فإن نفوذي يتراجع، ومع ذلك يمكنني التواصل مع ما

يكفي من الثقات. وعندما تصلون بالفعل إلى بيروت، فلتبلغوا تحياتي لوالدتكم. فهي في نهاية الأمر مناضلة تستحق التقدير».

أومأ سعيد، أحس بنفسه كالتلميذ، وحاول أن يستقيم في جلسته على الأقل بإباء.

كان الجميع قد أثنى على الكعكة وأكلوها كلها. طلبت سيدة المنزل الكلمة أولاً، واقترحت الانتقال إلى غرفة التدخين، حيث سيتم تقديم القهوة والكونياك. وتبع الكلاب الأشخاص. حينئذٍ فقط أدرك سعيد كم كان الجو خانقاً داخل البيت؛ كانت غرفة التدخين المكسوة جدرانها بالخشب الداكن متشربة بدخان التبغ، وقد سلبته هذه الرائحة النفاذة أنفاسه.

همس كريساندر لسعيد بأن الأمير يكره البعوض، لذلك يجب أن تبقى النوافذ مغلقة حتى في الصيف، ولا يحب تناول الطعام بالخارج بسبب الحشرات.

جلس السادة على المقاعد المزركشة بالورود، انسحبت سيدة المنزل، واستلقت الكلاب تحت قدمي بيسمارك. قام بحشو غليونه وإشعاله، مما تطلب منه عدة محاولات مع الهمهمة والدمدمة. أما السادة الآخرون فقد اكتفوا بتدخين السيجار، الذي قدمه أحد الخدم، وقد أخذ سعيد واحداً هو الآخر، وعانى من سحب الدخان، التي حوّمت حوله، ومن العرق الشديد تحت إبطه، الذي فاحت منه رائحة نفاذة.

لم يُستعَد أي من المواضيع التي كانت قد دارت حول المائدة؛ في الحقيقة كان من الممكن اعتبار مقابلة سعيد قد انتهت. لكن بيسمارك كان حينئذ قد أخذ يرتجل بطريقة لاذعة إلى أقصى حد عن حماقات

القيصر، الذي بدا أنه لم يكن يجيد سوى لغة التهديد بالحرب وقعقعة الأسلحة. فجأة اغرورقت عيناه وقال، كأنه يتحدث إلى نفسه: «إلى أين سيقودنا هذا الأرعن بعد؟ آمل ألا يقودنا إلى حرب كبيرة. علينا أن نصلي كل ليلة من أجل ذلك». ـ وبصوت أكثر انخفاضا ـ «ليس هناك ما هو أسوأ من أن يشهد المرء خطوة بخطوة، إنجاز عمره وهو يتحطم».

«لا عليك يا أبي» ـ تدخل الابن مقاطعاً ببشاشة مفتعلة ـ «إنه حال الدنيا. فالأمور تتغير لا محالة. إن جيل الشباب يهوى أن يحطم ما بناه الجيل السابق».

«اسكت أنت!» ـ انتفض بيسمارك مرتفعاً قليلاً عن مقعده وقد استشاط غضباً، ثم ترك نفسه ليسقط عليه مرة أخرى ـ «أما الرصانة فإنك لا تجيد اصطناعها بشكل مقنع. وحتى لو كان معك بعض الحق بشأن فرضيتك عن الصراع الأبدي بين الأجيال: فإن العواقب المترتبة على تحول المواقف والسلوك، يجب أن يتم إمعان التفكير فيها مسبقاً بموضوعية. يجب أن يكون ذلك على رأس أولويات قيادة الدولة. إننا إن كنا سننصاع لانفعالاتنا الطائشة فحسب، فإننا بذلك نبحر بكل طاقتنا باتجاه الكارثة».

وقد أسهب بيسمارك ـ راشفاً بين الحين والآخر من كأس الكونياك ـ في الحديث عن خليفته كابريفي[1]. قال إن ذلك الأخرق كان قد ألغى معاهدة إعادة التأمين مع روسيا لأسباب تتعلق بالسياسات التجارية، وهو بذلك سوف يزج بالقيصر في فرنسا الفقيرة، وبهذا سوف تكون ألمانيا مجبرة في أسوأ التقديرات على خوض حرب على جبهتين، وقد كانت

(١) **ليو (أو ليوبولد) فون كابريفي**: قائد عسكري ألماني تولى منصب المستشار في الإمبراطورية الألمانية خلفاً لبيسمارك، من ٢٠ مارس ١٨٩٠ إلى ٢٦ أكتوبر ١٨٩٤.

تلك تحديداً هي الاحتمالية التي عرف بيسمارك خلال نصف عمره كيف يحول دونها. ضرب بكفه عدة مرات على مسند المقعد، انتظر التصديق على كلامه، وقد بدر ذلك من كريساندر وسعيد، بينما التزم هيربرت ابنه الصمت بإصرار.

واصل بيسمارك كلامه بلا انقطاع قائلاً، إن عليه الآن أن يستلقي قليلاً، فإنه بالفعل لم يعد صغيراً في السن، قال ذلك موجها نظره إلى عيني ابنه. نهض ضيوف الظهيرة كأنما كان ذلك أمراً من القيادة العسكرية، وقد ودع سعيد القائد بتحية عسكرية، وصافح ابنه والسكرتير، انحنى شاكراً سيدة المنزل في الرواق، ثم سمع كريساندر يهمس له، أنه سوف يتم وضع قضيته في الاعتبار بالتأكيد؛ ثم وجد نفسه بالخارج وسط ضوء النهار الصيفي الكامل، ولم يعد يعرف ما كان قد حدث له.

كان هناك كرسي مفتوح تحت شجرة الزيزفون، والفَرَسان يأكلان في سلام من أشوِلة الشوفان. كان العربجي مكفي إلى الأمام على جلسته، نائماً، والسوط ممدّد على العشب. التقطه سعيد وركل الرجل، الذي كانت رائحة البيرة تفوح منه، بحذائه في صدره. جعله ذلك يجفل، ويُتأتئ معتذراً. ركب سعيد، حيث راحت ظلال أشجار الحور على الطريق غير الممهد ترفرف فوقه. هل كان يشعر بخيبة الأمل تجاه تلك المقابلة مع رجل ذي شأن حقاً؟ أم كان فعلاً معجباً به، أو بالأحرى مفتوناً؟ لم يصل إلى قناعة ما. أما كون لبيسمارك أساليبه في المراوغة، فهذا شيء معروف، ومع ذلك فقد كان مؤلماً، أن البطل قد انزوى في نظره الآن على المستوى الإنساني. في الوقت نفسه لم يكن لدى سعيد فكرة، إذا ما كان مطلبه سوف يتم رفعه، والاستماع إليه من قبل الجهات المناسبة.

كانا قد أوشكا على بلوغ محطة القطار. دفع سعيد للعربجي أجرته، وجلس على دكة الانتظار. كان القطار المقبل سوف ينطلق بعد ساعة ونصف. بعدها سوف يسافر من هامبورغ مروراً بهانوفر وماغديبورغ وصولاً إلى ثكنته في تورغاو؛ كان سيصل في الساعة السادسة من صباح اليوم التالي، قبل موعد انتهاء عطلته بساعة واحدة، بالكاد في الوقت المناسب قبيل موعد التوقيع بالحضور. كانت الشمس لاتزال ساطعة، لكنها كانت تعود تختفي وراء حقول من السحب الضبابية العابرة. تذكر كيف كان بيسمارك ينطق «الشرق» بالتشديد على الكلمة، ما بين الفتنة والازدراء.

نام في القطار، حيث كان وحيداً في المقصورة، وقد تتالت الصور في الأحلام في تتابع محير. كان مع بيسمارك في رحلة صيد الفِيَلة. كان بيسمارك يترنح كالسكران، صاح به، إن عليه بأن يطلق النار فوراً، لكن سعيد لم يكن يرى فيلة، بل أوز فحسب، وحين أطلق النار سقطت واحدة من السماء تحت قدميه مباشرة، ثم تحولت الأوزة الميتة إلى كلب عملاق، أخذ يعرج بردف نازف. من الأمام كانت أمه ترقبه، شبّكت ذراعيها، وكانت ترتدي ثوباً أبيض برّاقاً، فجرى إليها، لكنه وجد نفسه فجأة في عنبر النوم بالمدرسة الحربية، وقد قلب هو وصديقه برند كل الأسرة. تسبب ذلك في غبار كثير، بحيث استيقظ ساعلاً، إلا أن ذلك كان غبار القاطرة، الذي اخترق النافذة المفتوحة ركاماً. المنديل الذي مسح به جبينه، كان قد اتسخ جداً، وبلا مقدمات تذكر رحلته مع أخواته وأمه إلى تريستي. تساءل لماذا لم تكن طوني وروزا قد تزوجتا بعد. فهو كرجل بإمكانه أن يتمهل لوقت أطول، ومع ذلك فقد كانت تخطر له صورة تلك الفتاة التي كان قد طلبها لتشاركه رقصة الفالس في حفل الضباط بتورغاو، حيث كاد عناقهما الوثيق يعدّ غير لائق.

بعد ذلك ببضعة أسابيع تم نقل الملازم سعيد رويته إلى بيروت لمدة عام. لم يكتشف أبداً إلى أي وساطة ـ وساطة بيسمارك أم ابنه ـ كان يدين بالفضل في ذلك.

جلس رودولف أمام النافذة في الطابق الرابع، يحملق في ظلام الليل، كما جرت العادة في الليالي الأخيرة السابقة. كان بالإمكان رؤية البحيرة: مرآة عملاقة عمياء، حالكة الظلمة، لا يمكن تمييز أي شيء ملحوظ بداخلها.

ماذا كان ليكون مصير جده سعيد بن سلطان لوكان تواجد في الظروف الغربية؟ ربما كان ليصير شخصاً مثل بيسمارك؟ أو حاكماً مستنيراً مثل جوزيف الثاني، حاكم النمسا؟ أو رئيساً مثل أبراهام لينكولن، الذي تجسّر على إشعال الحرب الأهلية من أجل إلغاء العبودية؟ بالمناسبة فقد كان جده كذلك قد ألغى العبودية في زنجبار تحت ضغط من البريطانيين، لكنه في الوقت ذاته كان قد قام بتوسيع نفوذ السلطنة أولاً، وبحنكته لم يعتمد على العلاقات الاقتصادية والاتفاقيات التجارية مع إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية إلا بعد احتلال مومباسا. كان شخصاً بعيد النظر، حازم عند الضرورة، وعندما كانت الظروف تسمح، وأباً راعياً لأبنائه الستة والثلاثين من زوجاته الثلاث، وجواريه الكثُر، ومسلماً متسامحاً؛ هكذا على الأقل كان رودولف قد وصفه، بناءً على العديد من روايات شهود العيان. كان إهداء كتاب صغير للسلطان العظيم بمثابة علامة على التقدير ـ ومحاولة لإبداء التسامح مع عائلة أمه بطريقته الخاصة.

كان سعيد ابن سلطان قد وُلّي العرش وهو في الثالثة عشرة من عمره، محاطاً بالمستشارين، الذين كانوا جميعهم يسعون وراء امتيازاتهم

الخاصة. إلا أنه ـ بينما كان لا يزال يكاد يكون طفلاً ـ أخذ على عاتقه إجبار العشائر المتناحرة في السلطنة على التوحّد. كان أكثر ما قرب الجد إلى قلبه هو التراجيديا التي جرت مع ابنه الأكبر هلال. فقد كان عنيداً، يخرق كل قوانين القصر بلا اكتراث، ولا يراعي توجيهات أبيه. أغواه القنصل الفرنسي بجلسات شرب الخمر؛ أصبح هلال مدمناً للخمر، وقد كانت نوبات غضبه تنصب كذلك على والده. وقد عاقبه الأخير بالإقامة الجبرية في بيته، ثم حرمه من الميراث في النهاية. هرب هلال، كان يريد أن يطهّر نفسه برحلة حج إلى مكة. إلا أنه، وفي محطة التوقف الأولى في عدن، مات بالفعل جراء الحمّى الشديدة. كان حزن الأب بلا حدود، كما روى الشهود. قالوا إن سعيداً بن سلطان كان يحبس نفسه طيلة أيام، وكان نشيجه يُسمع عبر كل الجدران، كما كانت سجادة الصلاة قد أغرقتها الدموع. لقد كان ذلك الابن العاق تحديداً هو الأحب إلى قلبه، وقد لام نفسه أشد اللوم، معتبراً أنه كان قد قصّر معه.

الصورة الوحيدة لسعيد بن سلطان كانت تظهره رجلاً أبياً بعينين متيقظتين، وملامح لا هي لينة ولا قاسية. أما سلمى ـ الابنة الصغرى ـ فكثيراً ما كان يضعها على حِجره، ويلعب معها، ويدس لها الحلوى. حتى الآن كان رودولف لايزال يحسدها على هذا الامتياز. كم كان يتمنى أن ينعم هو الآخر بشعور الأمان بين ذراعي السلطان، أن يتنشق رائحته، التي كان يتصورها حادة، لكن ليست منفرة، يمكن أن تتناسب القرفة معها تماماً، نفحة من رائحة الحظائر، والعرق الطازج، واليدان التي كانتا لترفعانه إلى أعلى، كانتا قويتين، بأطراف أصابع حساسة.

ألم يكن محتملاً أن يكون هو ـ الذي يحمل الاسم نفسه ـ بالفعل جديراً بخلافة جده؟ كان يبتسم كلما خطرت له هذه الخيالات القديمة.

كان أحب كثيراً إليه أن يصير أحد دعاة السلام الناجحين ـ ومع ذلك بالنظر إلى براندايس وترومر ـ فإنه لم ينجح ولا مرة واحدة في إحلال السلام داخل عائلته الخاصة.

١٠

منذ وقت قريب كنت لدى الأميرة فيكتوريا، وقد قالت لي، إنها تريد دعوة ابني سعيد إلى قصرها. هذا وحده يثبت لك يا أخي، مدى إعزاز وتقدير العائلات الملكية في أوروبا لنا. ولسوف يسعدهم جميعاً أن يعرفوا أن مشاعرك تجاهي قد تراجعت. فإنهم جميعاً يتعجبون، لأنك لا تستعلم أبداً عن الحياة التي نعيشها في ألمانيا.

السنة التي كانت في القنصلية العامة ببيروت، ١٨٩٤، يحاول الرجل العجوز الجالس على أريكة في غرفة الفندق أن يتذكرها. إلى أي مدى يمكن الاعتماد على الذاكرة، وإلى أي مدى هي متقلبة المزاج؟ لم تكن تلك المهام التي كانت تسند إليه ـ إلى الملحق العسكري الشاب ـ ذات أهمية كبيرة، إلا أنها على كل حال كانت تشغل جزءاً من ساعات عمله. كان عليه توثيق العلاقات مع بعض الضباط السوريين، وتقديم التقارير حول النقاشات معهم، وتقييم قوة الجيش والقوات البحرية العثمانية، وكان يقوم ـ على مضض ـ بإنجاز بعض الأعمال الإدارية التي تتعلق برسوّ ومغادرة السفن الألمانية، وبسفر ووصول بعض المواطنين. كان كل ذلك مملاً ولم يلبث أن تحول إلى مجرد روتين. لكن ما كان يتشبع به في الخارج، في حارات المدينة متعددة الأعراق، وحول المساجد والكنائس، بمسام مفتوحة بالكامل، فقد كان هذا هو عالم

أمه، الذي عاد يقترب منه حينئذ كما كان وهو طفل صغير، فقد كان يسكن معها في البيت الذي استأجرته، بصحبة أختيه. كان يُهيأ له أحياناً أن جنياً كان قد حملهم هم الأربعة من رودولشتات، وقد صاروا حينئذٍ أكبر بخمسة عشر عاماً، في عالم آخر، في طقس أكثر دفئاً، في حجرات أوسع وأكثر إشراقاً. كانوا ينظرون لبعضهم البعض غير مصدقين؛ بشكل تلقائي عادوا يتعاملون بالسلوكيات التقليدية، بينما حاولوا في الوقت ذلك التخلص منها. كان سعيد - كرجل بالغ - يشعر بالحنان تجاه أمه الهشة وصعبة المراس في آن، لكن بين الحين والآخر، خلال المساءات التي كانت فيها أحاديثها الفردية الشجية تطيل فترة تناول الطعام، كان الضجر يشتعل في نفسه تجاه عنادها، لكنه لم يُبدِ ذلك أبداً.

«آل بيسمارك، كبيرهم وصغيرهم» - هكذا زعمت - «كلاهما أخرجاني من ألمانيا. ولا أحد..» - ومطت حرف الألف في كلمة «لا» - «لا أحد في الإمبراطورية الألمانية كان قد عمل حقاً على تحقيق مطالبي».

«ليس هذا صحيحاً على الإطلاق، يا أمي» - ردّ عليها سعيد بلطف متحفّظ - «فلتتذكري كل أولئك الناس الذين كانوا يريدون مساعدتك».

استقامت في جلستها على المائدة، معارضة إيّاه: «بلى. وإلا فلماذا انتهى بي الحال هنا على الساحل السوري؟» رفعت صوتها حتى أن حروف الصفير في كلماتها جعلت نار الشمعة الموضوعة أمامها على المائدة تومض. - «ألم أكن قد فعلت كل شيء لكي أندمج وأتكيف في ذلك البلد الغريب؟ ألم أربي أبنائي كألمان صالحين؟ ألم أقدم أنا بالفعل لألمانيا تضحيات كبرى؟ نعم». - هزت رأسها حينئذٍ بقوة - «هكذا هو الحال، لم يدعمني أحد! ولا أحد سوف يساعدني أبدًا!»

أكد لها سعيد، أنه ـ هو الملازم الألماني ـ يدعمها عن قناعة تامة، وأنه في وقت ما سوف ينجح في صد رماح الحاقدين من عائلتها، وإقناع السلطان بالإغداق عليها. عندما كان يحاول تهدئة أمه بهذه الطريقة، كان كثيراً ما يشعر باحتباس الكلام؛ فوراء الجُمل المطمْئِنة التي كان يصوغها عبر محاولات عدة، كانت تختبئ جُمَل أخرى: «لقد أوقعت نفسك بنفسك في ذلك!» مجرد التفكير في ذلك كان يشعره بتأنيب الضمير، مثل هذه الجُمَل لم تغامر بالتقدم إلى الصدارة سوى لاحقاً، بعد وقت طويل جداً، وبشكل معقّد. كان من الممكن أن تنتهي نزاعاتهما بطبيعة الحال بنوبة بكاء من إيميلي. وحسب الحالة المزاجية، كانت الأختان تتهمان أخاهما بعدم الاكتراث؛ فقد قالت طوني إنه كان بإمكانه بالتأكيد انتزاع المزيد من أجل إيميلي لدى بيسمارك، لكنه للأسف كان أي شيء آخر عدا أن يكون خطيباً مفوهاً، فراح سعيد يتساءل، إن كان قد قدم ما يكفي من الحجة في فيريدريشسروه، وعما إذا كان قد فشل في النهاية بالفعل.

هكذا ظهرت أول التصدعات في علاقته بأختيه. بدا له أنهما كثيراً ما تهدران أيامهما. بالطبع كانتا ـ من خلال قيامهن بالأعمال المنزلية بنفسيهما ـ توفران نفقات الخدم. كانتا بالإضافة إلى ذلك تحيكان ثيابهن، وتذهبان للتسوّق. اجتهدتا في تعلم اللغتين الفرنسية والإنجليزية، وبعض العربية، كانتا تقرآن القصص الرومانسية، وتكتبان الخطابات، وتصححان خطابات إيميلي، وتعتنيان ببعض المرضى العجائز في المستشفى المسيحي. جيد وظريف. ولكن كيف سيكون مستقبلهم؟ رفضت طوني الحديث عن ذلك مع سعيد بضحكات مستنكرة، أما روزا فقد تحاشته ببساطة في صمت. كانتا تودّان البقاء في حالة العزوبية في تلك الحياة الأزلية العجيبة، كانتا قد حبستا نفسيهما

في مسكن، لايسمح للعالم الخارجي سوى أن ينقر عليه بلطف. بعد ذلك بثلاثة أعوام، رمى براندايس أول حجر، في هذا المأوى، فرُفِعت حالة الجمود، لحسن الحظ، ولكي تزداد طوني همّاً، واتبعت روزا أيضاً التقاليد وأتمت خطبتها على ضابط طموح. كيف كان ليصير حال الأختين لو كانتا بقيتا سنين أكثر في بيروت؟ كان سعيد نفسه يحلم بترك الحياة العسكرية. أما إذا كان سوف يجرؤ ذات يوم على القفز مغمض العينين إلى مستقبل مجهول، فهذا ما لم يكن يعلمه.

لم يكن رئيس سعيد في العمل، القنصل العام، باول شرودر، دبلوماسياً بالمعنى التقليدي، كان شغفه الأول باللغات الشرقية، لذلك فقد عمل قبل ذلك مترجماً في السفارة القيصرية في القسطنطينية. كان من الصعب على زوجته تحمل الحرارة الشديدة، فعادت بصحبة ابنتها الكبرى إلى ألمانيا، على أمل أن يُعرض على شرودر منصب أستاذ جامعي في برلين في وقت قريب، فيترك العمل الدبلوماسي.

كان رجلاً دمثاً، ومع ذلك أقرب للانطوائية، كان يعد دراسة لغوية مؤسَّسة عن الفينيقيين، كان يجيد التركية والعربية حديثاً وكتابَة، وكان يستنهض سعيداً لكي يحذو حذوه. عندما لم يكن هناك شيء آخر للقيام به، كان يسمح لمرؤوسه باستطلاع بعض الأعمال عن علوم اللغة في بهو القنصلية، والاستعانة ببعض الكتب التعليمية لاكتساب حصيلة لغوية أساسية من مفردات اللغة العربية، التي يمكنه أن يختبرها في المساء مع والدته أو في الشارع. نصح شرودر سعيداً بالاستعانة بمدرس خصوصي للغة العربية. لكن سعيداً قرر ألا يفعل. كان الأمر ليغضب إيميلي، لو أن ابنها تخطاها، وعلى العكس كان يعرف تماماً، أنهما كانا سيتشاجرا في حالة ما أعطته هي دروساً منتظمة. كان الأمر بالنسبة له غير محتمل، كم كانت صارمة في اهتمامها بالنطق الصحيح، كم كانت تبدي استياءً،

بل خيبة أمل وهي تصحّح له. في محاولاتها السابقة غير المنظمة لتعليمه قليلاً من العربية للاستخدام اليومي، كثيراً ما كانت مقاومته تكون شديدة، بحيث كان فراغ ما يتسع في رأسه، فيبدو هو متصلباً وساخطاً على التعلّم. لم يكن الأمر على أية حال يختلف كثيراً مع أختيه؛ كانت روزا ـ كما جرت العادة ـ هي من تظهر القدر الأكبر من الاجتهاد ـ ولكنها هي كذلك لم تكن تودّ أو لم تكنَ تستطيع أن تحفظ بأكثر من التعبيرات الأكثر تداولاً فحسب.

كان يحدث أحياناً أن يرشح له شرودر بعض تدريبات الكتابة الخاصة بالحروف العربية، ويقضي نصف النهار يبين له تفاصيل بعض النماذج المفيدة. حينئذٍ كان سعيد يجلس على مكتبه، ويكتب بتركيز شديد بالخط المائل، نقاطاً صغيرة وزخارف، من اليمين إلى اليسار، ومع أن صياح بعض الأطفال ونداءات بائع البطيخ المتجول كانت تصل إليه بالداخل، إلا أنه رأى نفسه خطاطاً في أحد أديرة العصور الوسطى. كان يتمتم لنفسه بالكلمة التي كان يكتبها لتوه، ويفكر في أن نقل اللغة عن طريق الكتابة منحتها فرصة للاستمرارية، وقد ربطت كل الحضارات العظمى ببعضها، لكنها كذلك في الوقت نفسه عبر التاريخ، طالما قلبتهم ضد بعضهم البعض. باسم الإنجيل والقرآن أريقت كميات لا نهائية من الدماء. ما الذي كان بوسع ملازم بسيط فعله حيال ذلك؟ القليل، فبهذه الرتبة كان المرء بالأساس مجرد متلقٍّ للأوامر. ألم يكن الأفضل الانصراف فقط إلى جمال الحروف؟

كان شرودر من مواليد السنة نفسها التي ولدت فيها إيميلي، ١٨٤٤. كان من الصعب إغفال، أنه كان يتفحص مظهرها النحيل بعين الاستحسان، حسناً، بل كان تقريباً يغازلها. ولكن الأرملة إيميلي مع

ذلك كانت تتصرف بصلف، كما سجّل سعيد بدقة، كانت المرارة بداخلها تنضج أيضاً

على سلوكها تجاه الممثلين الرسميين للإمبراطورية الألمانية. أما شرودر بصفته الشخصية فلم يكد يكون له وجود في نظرها؛ فقد كان على كل حال متزوجاً، على الأقل على الورق. فقط عندما كان يتحدث إليها بالعربية، بغض النظر عن المجتمع الذي تواجدا فيه، كان وجهها يشرق، وتستطيع عيناها أن تومض بشكل مغرٍ، لتعيدها صبية للحظات. كان سعيد بين الحين والآخر يتخيل أوهاماً لا طائل منها، حول ما كان يمكن أن تؤدي إليه علاقة أكثر قرباً بين شرودر وإيميلي؛ فلم يكن هو ليمانع، أن يحصل من خلال شخص شرودر على زوج أب متأخر، على عكس الأختين اللتين كانتا تتندران على القنصل العام. كانتا فيما بينهما تصفانه بالفرنسية ـ بأصوات أنفية مبالغ فيها ـ «Enbonpoint»[1]، كان أسلوبه في نظريهما رخواً أكثر من اللازم، فقد كانتا تفضلان ـ كما سوف يتضح فيما بعد ـ الرجال الحازمين الحادين.

كان شرودر يعرف طريقه وسط متاهة الأزقة. كان سعيد يزور معه ـ غالباً في المساء ـ المساجد، والكنائس المسيحية، وكذلك المعابد اليهودية، التي كانت بيروت تعج بها جميعها. كانت تعكس تاريخ قرون، تتالت خلالها غزوات دامية من قِبَل المسيحيين والمسلمين، ولكن أيضاً فترات من التسامح المتبادل. كان شرودر يحكي عن ذلك بشكل آسر، بحيث كان يكاد يُنطق حجر الأبنية القديمة. في المسجد الكبير على أبواب المدينة، والذي كان مبنياً على أنقاض كاتدرائية صليبية، كان سعيد يشعر تجاه هذا التاريخ المتناقض بأنه الأقرب إليه.

---

(١) كلمة بالفرنسية تعني البدين، أو ذو الوزن الزائد.

القبة الزرقاء المرتفعة في القاعة الداخلية، مغشّاة بضوء الغسق، كانت تجعله يهدأ، أما صلاة الجمعة ـ الذي سُمح لهما، هما الكافران، بحضورها حفاةً، مستندين إلى الجدار ـ فقد كان لجلالها وقع عليه، أشد من أي قداس مسيحي، حيث لم يكن يستشعر في الكثير من الأحيان سوى الروتين النّكِد. الأداء الحركي متمثلاً في الوقوف، والانحناء، والركوع، متّبَعاً من مئات الرجال في ثياب بيضاء، تمتماتهم، صيحاتهم بكلمة «الله»، والاستعداد الجماعي خلال تلك الساعة لتمجيد الإله، بل التسليم له، ولعبة الضوء فوق تلك الأجساد المترابطة بعضها مع بعض: وجد كل هذا صدى غير مفهوم في نفسه، وأيقظ شعوراً بالتوق لأن يكون جزءاً منه، وفسر له المزيد عمّا كانت أمه تفتقده، منذ أن تبرأت من الإسلام. صحيح أن النساء كنّ مفصولات عن الرجال في المسجد، وغير مرئيات لهما، لكنه كان يعلم أنهنّ تُقِمن الصلاة بنفس الطريقة. سأل إيميلي، إن لم تكن ترغب هي الأخرى في زيارة المسجد الكبير معه، فجمُد وجهها مقاوِمةً، وصدّته بـ«لا!» صارمة. فهم أن مثل هذه الزيارة كانت لتهيّج بداخلها أكثر مما تحتمل.

كان بعد مثل هذه الجولات عادة ما يجلس مع شرودر في حانة صغيرة، في السوق المغطاة، محاطَين بضجيج أصوات الحشود العابرة، يشربان القهوة التركية القوية، ليسهب شرودر في مديح بيروت هذا الزمان بوصفها واحة التسامح. حتى المسيحيون فيما بينهم متسامحون، وهو أمر أبعد ما يكون عن البديهية: «الكنيسة المارونية، وكنيسة الروم الأرثوذكس، والكنيسة الأرمينية الكاثوليكية، والأنجليكية، واللوثرية. جميعها حاضرة هنا».

فيجادله سعيد: «لكنهم يتشاجرون بالفعل طوال الوقت، حول من منهم يمثل الدين المسيحي الصحيح».

«بالطبع. ولكن أموراً مثل الملاحقات والطرد لم يعد لها وجود هنا منذ قرون. أليس هذا هو الأهم؟ حتى اليهود لديهم حيّزهم المخصص لهم في المدينة، وضع مختلف تماماً عنه في روسيا».

«لكن تحديداً في ظل هذه الفوضى والتجاور بين الأديان يمكن أن تتأجج الصراعات القديمة في أي وقت. ألا تظنون ذلك أيضاً؟»

«وارد جداً. لكن من الواضح أن التقارب المتبادل يعطى الفرصة للحد من الأحكام المسبقة والمخاوف الغامضة. المدهش مثلا هو أن السنة والشيعة في بيروت متعايشون معاً. فهم فيما عدا ذلك متخاصمون في كل الأنحاء». انحنى شرودر للأمام بشدة، لدرجة أن اهتزت الطاولة التي كانت القهوة عليها. «بمقدورك أن تعترض ما شئت أيها الملازم، لكنني أزعم: إن بيروت تثبت، أن باستطاعة البشر ذوي العقائد المختلفة أن يعيشوا مع بعضهم في سلام. المؤسف أن الأسهل كان دائماً هو تأجيج الكراهية، بدلاً من تحمّل اختلاف الجار». وقد أومأ شرودر مع هذه الكلمات بإصرار، كأنما كان بذلك يطرد كل الشكوك.

أومأ سعيد كذلك بينما تلذذ بالقهوة المرة على رشفات صغيرة.

سافر عائداً إلى ألمانيا، إلى ثكنة تورغاو؛ هكذا كان الاتفاق. تمت ترقيته إلى درجة ملازم أول، كان يقوم بتدريب الشباب، ويعلمهم فنون الحرب، التي كان في أعماقه في الحقيقة يرفضها. فلطالما لم تخلق الحروب سوى النظام الصوري، والبلاء. ألم يكن - هو سعيد - بحكم أصوله، مقدّرا له أن يكرس حياته المستقبلية للتوفيق بين الأطراف المتنازعة؟ كان شرودر قد غرس فيه بذرة، بدأت تنمو. وقد ظل على تواصل مع القنصل العام عن طريق الخطابات، وكان يشعر بالحنين للعودة للشرق، وقد شكّل هذا بداخله باعثاً أقوى من طموحه أن يصير

قائداً أو جنرالاً بسرعة. كانت حياته العسكرية قد أصابها الركود. كان يعدّ ضابطاً متوسط المستوى، متساهلاً، وظلت ترقيته التالية تؤجَّل من سنة إلى أخرى.

في تلك الفترة بدأ يهتم بالسكك الحديدية، لأسباب عدة على رأسها مراسلاته مع جيمس رينيل رودّ، الذي كان يعمل بالقنصلية العامة البريطانية في القاهرة. في البداية كانت علاقة سعيد به من خلال العمل، ثم توسعت موضوعات خطاباتهما. لفت رودّ انتباه سعيد إلى أن خطوط السكك الحديدية في أنحاء الشرق الأوسط، صارت ـ كما كانت الأنهار في السابق ـ بمثابة شرايين حياة للمنطقة. كتب سعيد رداً على ذلك، بأن كل خط جديد للسكك الحديدية ـ ولا يختلف في ذلك خط السكة الحديد المزمع إنشاؤه بين قونية في الأناضول وبغداد ـ لم يكن فقط يدعم التقدم الاقتصادي والتقني، بل كذلك التفاهم بين الشعوب، وبذلك السلام أيضاً. أجاب رودّ بتعاطف، فقد كان يعرف أن سعيداً كان يتمنى أن يأخذ مستقبله المهني إلى مسار مختلف جذرياً، وقد ألمح ذات يوم، أنه قد تتاح قريباً وظيفة مفتش للسكك الحديدية المصرية تصلح لشاب متمكن مثل سعيد؛ لم تكن تُشترط لذلك أي مؤهلات تقنية، وإنما خبرة تنظيمية ومهارات إدارية. أوضح سعيد في البداية أنه غير مؤهل لمثل هذه المهمة. لكن حين أرسل رودّ الرد بأنه كان أيضاً قد أقنع كبير المهندسين الفرنسي بسعيد رويته، بدأت مقاومته تنهار. تغلب الوعد بفعل شيء نافع في الشرق؛ وقد تقدم لطلب الوظيفة لدى الشركة الفرنسية ـ الإنجليزية المتحدة.

بعد مرور خمسة أشهر منذ أن قرأ عن الأمر للمرة الأولى، كان قد صار مفتشاً بالسكك الحديدية المصرية. في الواقع شيء لا يصدق، قفزة مهنية، لم يكن ليعتقد أنها ممكنة. ومع ذلك فقد كانت الظروف

المحيطه تشعره بالاغتراب، بل بالاستياء، والصدمة. وقد أبدت أمه انزعاجها، لكونه لم يحاول على الأقل العثور على وظيفة في بيروت؛ وتندرت طوني في الخطاب نفسه على شغف الصبية الصغار بقطارات السكك الحديدية، وسألته إن لم يكن يودّ تدليل ميركلين بإهدائها أحد النماذج المصغرة التي تصنعها الشركة، فهي كذلك أحد أمثلة التقنية الألمانية المبتكرة. أما رفاقه من الضباط، الذين كان قد ائتمنهم على سره، فلم يتفهموا قراره؛ فإذا كان المرء سوف يترك الخدمة العسكرية، فليكن ذلك على الأقل لصالح مسار مهني مَدَنيّ آمن، يستطيع أن يترقى فيه حتى منصب وزير الخارجية. كل ذلك لم يزعزع سعيداً إلا قليلاً. ولكن بقي له ـ وهو ما كان يهابه ـ أمر إبلاغ قادة الوحدة العسكرية في تورغاو بقراره، وتقديم خطاب وداع رسمي.

كان القائد شولتس جالساً خلف مكتبه، جسده الثقيل محشوراً بين المسند والحافة، أما سعيد الذي كان قد سلّم الطلب المكتوب، فقد أخذ يحاول إنهاء تقديم التبرير الشفهي، بينما قاطعه القائد. صرخ في وجهه بأن ما ينوي السيد ملازم أول فعله، هو خيانة الوطن بعينها، وفي أقل تقدير هو هروب من الخدمة العسكرية.

«إن الأمر كله قانوني تماماً، يا سيدي القائد» ـ رد سعيد باذلا الجهد للإبقاء على هدوئه؛ فقد قرر أن يتحمل إنذار رئيسه صفراوي المزاج بدم بارد ـ «إن بحوزتي إذن السفر من وزارة الخارجية، وكل التأشيرات المطلوبة، وإنني آمل أن تستصدرون لي الشهادة المناسبة للسنوات التي قضيتها هنا».

أخذ القائد نفساً عميقاً من وراء مكتبه، ولم يستمع إليه على الإطلاق. «أنتم بالذات مفتشاً للسكك الحديدية! أنتم، الرجل المعروف

منذ زمن بالتراخي. ثم ذلك أيضاً في مستعمرة إنجليزية، حيث تكونون محاطين بالمتنصتين والأعداء المحتملين! إن هذا لسخف!» انفرج فمه وانطبق بضعة مرات خرِساً.

«لقد اتخذت قراري، يا سيدي القائد» ـ قال سعيد ذلك بنبرة لا تخلو من الشجو ـ «أريد في المستقبل أن أخدم قضية السلام والتفاهم بين الشعوب».

«آه.. الآن فهمت!» ـ أطلق القائد ضحكة متبرمة بينما وضع يده على منطقة القلب ـ «من ذا الذي معنا هنا؟ الملازم رويته رسول السلام. أتظنون حقاً إن السكك الحديدية تخدم قضية السلام، تحديداً في الشرق المتناحر؟ إن السكك الحديدية تعمل على نقل البشر والبضائع بكفاءة. وكثيراً ما يتضمن ذلك ـ كما يفترض أنكم تعرفون ـ الجنود ?c'est ça والسلاح». تعالى صفير أنفاس القائد العسكري ثقيل الوزن حتى بلغت قوته قوة نفخ الكير. «إن من يسيطر على خطوط السكك الحديدية، كانت له الغلبة في كل حرب آتية. تحديداً في الشرق، حيث الإنجليز يحجبون عنا الشمس في كل مكان. هؤلاء إذن هم من ستضعون طاقتكم للعمل تحت تصرفهم. أحب إليّ الآن أن أقول: تُفّ!» ـ حينئذٍ عاد للضحك مجدداً ـ «لكن بما أن مواهبكم في هذا المجال محدودة جداً، فإنكم لن تتمكنون بالتأكيد من إلحاق الضرر البالغ بالإمبراطورية الألمانية».

انتبه سعيد لأنه كان قد بدأ يسحق قبعته العسكرية بين يديه. تجرأ على المعارضة، قائلا: «أنا لا أسعى لإلحاق الضرر بوطني بأي شكل من الأشكال، يا سيدي القائد. إن مسارات قضبان السكك الحديدية الجديدة تمر عبر الصحارى والجبال، عبر أنفاق وجسور. فهي إذا ما

أنشأها واستخدمها أناس عقلاء، تعزز التجارة والاتصال، وهكذا تسهم في تفادي الحروب، بدلاً من أن تشعلها». ـ حاول، بينما جف ريقه، أن يبحث عن جملة ختام مناسبة ـ «هذا على الأقل هو ما أتمناه».

كان القائد قد أخذ يعض شعر شاربه، فتدلى شاربه مبللاً على شدقه. كان مشهوراً بِعضّ شاربه». فلتستمر في التمنّي، أيها الحالم. سوف تكون يقظتكم عسيرة بما يكفي. فلتنصرفنّ الآن». ـ تنفس مرة أخرى بصوتٍ عالٍ ونفخ صدره: «لتنصرِفنّ في سلام، كما يُفتَرَض أن يقال». ـ طرف بعينه، وصار صوته أقل حدة ـ «فلتوَقّعَنّ لدى المسئول الإداري. سوف يقوم هو بإتمام الإجراءات اللازمة».

وقف سعيد في وضع الانتباه، وأدى التحية العسكرية؛ أذن له القائد بالانصراف مزمجراً: «للخلف دُر». لكن لايزال رودولف حتى اليوم يتذكر رائحة العرق في مقر القيادة العسكرية، الذي كان يختلط برائحة النفتالين، كما يتذكر شعوره بانفراجة لاتُقدّر، حين تخطى عتبة فناء الثكنة، حيث كانت سريّة تتدرب لتوها. كان الأمر مقضياً! وكان هو قد أنجز المهمة! حياة جديدة كانت بانتظاره مثل خيط الضوء الصيفي، الذي بدا ـ بين ركام ظلال بنايتين ـ كأنه يدله على الطريق. والآن، على الأريكة، في فندقه، تراءى له مجدداً ـ كأنما كانت الصور تتداخل ـ ساحة الرمال المائلة للحمرة، التي عبرها مع أمه، لكي يصلا إلى برغش، وقد كان يعلم أن الأمر في حياته سوف يظل يتوقف بشكل أقوى، على تمييز الحدود الدقيقة بين الظل والنور.

حينئذٍ صار فجأة في مصر، في ضوء الشرق الساطع الداخن، الذي يصفو في المساء ويصير مكثفاً على نحو آسر، يتنقل بين القاهرة والإسكندرية، لم يعد ملازماً، بل «مسيو» أو «ميستر» رويته، لم يعد

يرتدي الزي العسكري الخانق، بل الملابس الخفيفة. يكتسب المعارف التي كان يحتاج إليها بسرعة كبيرة، فإن أداء عقله هنا أفضل منه في دروس الاستراتيجيات، وعلم الأسلحة. يقضي ساعاتٍ طويلة، بصحبة خادمه الصبي النشيط، في محطة القطار الرئيسية بالقاهرة، وسط تلك الفوضى الصاخبة التي تصيب المرء بالدوار، يراقب مراعاة خرائط الطرق الأوّلية، ويكتفي بألا تتأخر القطارات الواقعة تحت مسئوليته أكثر من ساعة أو ساعتين على الأكثر. يفتش على نظافة عربات الدرجة الأولى والثانية، وعلى حمولة عربات نقل البضائع، يرافق الميكانيكية في جولاتهم للفحص، يتأكد من أنهم يطرقون العجلات، ويبدلون الصمامات، ويعاينون إذا ما كان هناك أي سَيَلان في خزان المياه. يوقّع المحاضر الرسمية، ويحيل تقارير التلفيات، ويتناقش مع الزملاء حول معقولية وعدم معقولية التدابير الأمنية: إن كان من الضروري نشر رجال الشرطة، لمنع الركوب على أسطح القطارات، وإن كان لابد من منع اصطحاب الحيوانات المنزلية الكبيرة مثل الماعز والخراف في الدرجة الثالثة. يسافر بنفسه بانتظام في عربات الدرجة الثانية، في اتجاه الاسكندرية، ويقيم في بعض مواقع البناء في دلتا النيل. حتى في هذه الدرجة، التي يكون معظم ركابها من سكان البلاد الأكثر ثراء، يشعر في البداية بأنه على كوكب آخر، متأذياً من روائح البصل والثوم، والحوارات الصاخبة بين الأسر كثيرة العدد، المحشورة بين الحقائب والأكياس الزاخرة. الأطفال الكُثُر يجلسون كل اثنين أو ثلاثة على مقعد واحد، أو على حِجر أي شخص، يعتصرون أمهاتهم المتحجبات، ويتبعون بعضهم البعض صراخاً وضحكاً في الممرات المسدودة. أما الطقس الحار فإنه يعتاد عليه، لكن ليس على تناول الطعام على نحو متواصل. فالناس يأكلون من الأكياس، ومن زبديات الفخار، ومن

أواني الصفيح، كورال من المضغ، والتجشؤ، وأصوات البلع، يشرب الناس من خراطيم المياه، ويقدمون له ثمرات التين الطازجة، والبلح شبه المجفف. شابات صغيرات في السن تتطلعن فيه؛ فالحجاب يجعل النظرات أكثر بلاغةً، وهن تغرينه، وتداعبنه: من أنت أيها الغريب؟ لا يجرؤ على مبادلتهن النظرات، مع أن العيون الداكنة المكحلة بعناية، وهيئة الأجساد التي ترتسم من تحت الأثواب، تشعره بالقشعريرة. يفكر في أمه، التي فتنت أباه من تحت ذلك الحجاب؛ إذ يريد المرء إزاحة الستار، لكنه يتراجع عن ذلك، لأنه يفشي السر، الذي يرفع درجة الانجذاب. هل كان الأمر كذلك بالنسبة لوالده؟

في مكان ما ـ فقد حذّر الكمسري بزيه الرسمي البهي المفتش من ذلك ـ يغادر القطار، بصحبة الخادم الصبي، الذي يجرجر المتاع؛ فقد كانت الحقيبة ضخمة جداً بالنسبة للفتى النحيف، إلا أن هذا تقليد هنا، فلا يمكن تغيير الوضع. طنطا هو اسم المحطة، ويقوم عساكر إنجليز على حراستها. انتقل إلى موقع البناء على دراجة درايسيان[1]، باتجاه الزقازيق، في شبه الصحراء، إنه الخط الذي كان مزمعاً وصوله خلال

---

(١) درايسيان: نسبة إلى مخترعها البارون كارل درايس الذي عرض للجمهور اختراعه الأول في عام ١٨١٤ م، وهو دراجة ذات أربع عجلات تندفع على سكة بقوة عضلات الرجلين، اللتين تدوسان على بدّال، يصعد ويهبط، وقد اعتمدت هذه المركبة طويلاً في السكك الحديدية، عربةً لنقل الميكانيكيين المسرعين لإصلاح القطارات، وحصل درايس على براءة اختراع مدتها عشر سنوات وعين استاذاً للميكانيكا في بادن. ولما كانت طرق تلك الحقبة غير مناسبة للعربات ذات الأربع عجلات اهتدى درايس إلى عربة تسير على دولابين فقط لمرونتها على الطرق الوعرة. وفي سنة ١٨١٧م عرض للجمهور الدراجة الدرايسيان (نسبة إليه)، وهي مركبة خشب بدولابين، تندفع بقوة القدمين ولها مقود يوجهها.

سنتين إلى الإسماعيلية، المدينة المطلة على قناة السويس، التي كان قد مر بها قبل أربعة عشر عاماً بالسفينة مع دومبروفسكي. يمسح عن عينيه الرمال، التي حملتها الريح إليه. يتم استقباله، وتُقدّم البيرة الألمانية الفاترة تحيةً له، ثم يأخذه رئيس الموقع الفرنسي في جولة، ويتبعهما سرب من المصريين المتحمسين؛ على هامش الحشود تقف بعض النساء محتجبات من الرأس إلى إخمص القدم. يسأل سعيد: «هل يجري كل شيء وفق المسار الطبيعي؟ هل يتم الالتزام بالجدول الزمني؟» يحاول أن يكشف عن الأعذار ومحاولات الاسترضاء، وتفسير الإشارات الخفية. إن موظفي الدرجات الوسطى ـ هكذا قال له مسؤول الشركة ـ طالما أنهم مصريون، فهم قابلون للرشوة؛ فإنهم يجلبون الأعمال لبعضهم، ويتكسبون من العمولات، لذلك كان عليه أن يبقيَ عينيه مفتوحتين. فهو لا يستطيع التدخل إلا بناءً على شكاوى، لكنه حينئذٍ لا يتهاون على الإطلاق، ويسرح المتجاوزين؛ فالكثيرون ينتظرون ليشغلوا أماكنهم. وقد يواجه أحياناً بعض العداوات المعلنة بسبب ذلك. لكن هنا، على الطريق إلى الإسماعيلية، كل شيء على ما يرام.

يقضي الليلة في الخيمة، بينما ينام الآخرون معظمهم على حُصُر في الهواء الطلق. وسادات كثيرة أكثر من اللازم كانت مُكوّمة له ـ هو المفتش ـ فوق بعضها البعض؛ هذا التبجيل لشخصه، يبدو له أحياناً مخيفاً، فهو لايزال صغيراً جداً في السن. شبق كامل كذلك، غصباً عنه، إنه يشتعل فيه في مثل هذه الليالي، يَذكُر ببعض الخزي زياراته البائسة لبيوت الدعارة أيام كان ملازماً. بالخارج سماء مرصعة بالنجوم، كما لا يمكن رؤيتها في ألمانيا أبداً. وفي تلك الليلة تتسلل امرأة إلى خيمته، ربما كان أحد قد أرسلها إليه. تتعرى له، وتحوطه هامسة ببعض الكلمات، التي لا يفهمها، تجرده بهدوء من ملابس نومه.

نعومتها، وعطرها، خشب الصندل؟ المسك؟ يبدي قلة حيلة، فتُريه كيف يتصرف، وتشعل شهوته بيدين وشفتين متمرستين، تقترف كل المحرمات، التي يمكن أن تكون قد راودته طيلة حياته، وتسمح له بالمثل بأن يتحسس بشرتها بحرية مطلقة. شعور بالذوبان إثر طاقة مسكرة، فقدان وعي وشيك، صرخة، وبعد فترة من الإنهاك يبدأ كل شيء من أوله، ليصل إلى قمم جديدة. لاحقاً - هل لاح الصباح بالفعل؟ - يتلمس كيس نقوده، يعطي بعض العملات المعدنية، لتلك المرأة التي كانت محبوبته لساعات قليلة. إلى هذا الحد كانت قد صارت قريبة منه، حتى أنه لم يستسغ احتقارها بوصفها عاهرة؛ فإذا لم يكن من بدّ، فعليه احتقار نفسه هو، إذ بقيت تلك المرأة بالنسبة له تقريباً بلا ملامح. لقد أحب جسداً، سلّم نفسه له، ومعه جسده هو الذي تزاوج مع الآخر، كان ذلك له بمثابة عرسٍ، سطوعٍ لكل سبيل ممكن بين رجل وامرأة، بينما هو لا يعرف حتى اسمها.

الصبي، الذي كان نائما أمام مدخل الخيمة، يرمقه بنظرة مستريبة، لكنه لا يقول شيئاً. ربما تكون المرأة المجهولة قد أعطته - بوصفه شريكاً متواطئاً - بعضاً من نقود سعيد. لايمكن التعرف على رفيقة الليل بين نساء المعسكر. هل كانت بشرتها فاتحة، أم سمراء؟ هل كانت نوبية؟ فالجميع يذكر له أنهن الأكثر خبرة في ممارسة الحب. في أوقات لاحقة يسمع خلال بعض المحادثات المختلسة فيما بين الفرنسيين، إن غالبية النوبيات مُختّنات. لكنه لا يجرؤ على السؤال عن معنى ذلك، إلا أنه يحصل بطرق غير مباشرة على كتاب متخصص في علوم الطب، ويقرأ فيه، إن ختان البظر يقلص الإحساس بالمتعة عند المرأة بشدة، وقد صار يشعر مذّاك بخجل عميق، إذ كان يعتقد أنه هو أيضاً قد أوصل زائرة الخيمة إلى ذروة النشوة. كانت قد مثّلت ذلك، كما يظن؛ مع

ذلك يبقى هذا اللقاء في نظره مكتملاً بطريقته الخاصة، استهلال جنسي يشبه في مجراه النغم، الذي تتسلطن به المغنيات العربيات ببراعة فائقة.

مرة أخرى ـ هذه المرة في القاهرة، في شقته ـ حيث لم تعد رغباته قابلة للترويض، يشتري لنفسه الحب الجسدي، على أمل أن تعاوده أحاسيس ليلة الخيمة بالقوة نفسها. لكن تلك المرأة، التي تكبره بما لا يقل عن عشر سنوات، تتركه بعد الفعل في خيبة أمل خانقة، سار كل شيء على عجل وعلى نحو روتيني، على ضوء الشموع صحيح، لكنها كانت تحملق في الفراغ متجاوزة إياه. لفترة ما كان يخشى أن تكون قد أصابته عدوى الزهري. لكن طبيباً ثقة طمأنه، قال إن ذلك الحرقان في مجرى البول سببه على الأغلب الشعور بالندم. يشعر بالخجل من نفسه، ويلعن الغريزة، الذي يشعر أنه صار تحت رحمتها، ولا يستطيع ـ حين تسوقه قدماه في أزقة القاهرة خافتة الإنارة ـ أن يرفع عينيه من على التكوينات الأنثوية اللينة، التي تقابله في الطريق، وتكاد تمسه، بحيث يظن للحظة أنه يستنشق عطر أجسادها. أما أن لنساء الشرق وجوهاً، فهذه مسألة ينساها في بعض الأحيان، وهذا وحده يضعه في حالة إثارة غير مجدية. كم هي مختلفة هذه الشهوانية المكتومة عن تلك التي يلاقيها من النساء الأوروبيات المشدودات بالمخصرات النسائية في الحفلات. ومع ذلك كان عليه أن يختار من بينهن؛ ظل يتردد في ذلك لبعض الوقت، طويلاً بما يكفي، حتى تعرّف على تيريز في لندن، في المتحف الوطني. طريق طويل استغرق شهوراً، مقيّد بالتقاليد حتى القبلة الأولى، حتى ليلة الزفاف. لدى التقارب الجسدي الحذر معها، فإنه يعرف ما هو المُنتظر والمطلوب منه. فعروسه في منتهى البراءة وفي الوقت نفسه في منتهى الثقة. في الليلة الأولى يتكوّن بالفعل فيرنر. ومع الوقت ينجحان في التوصل إلى توافق جنسي، ينال كلٌ نصيبه منه.

شيء مستحيل المنال، يوتوبيا من المتعة المحررة من القيود، هكذا تبقى طوال الحياة تلك الليلة في الخيمة، التي ـ كما يقول لنفسه كثيراً ـ كان بالتأكيد يبالغ في تمجيدها ضمن ذكرياته. ولكن يصعب إنكار كونها بؤرةً مشعةً وسط تجاربه العاطفية. لا يزال هذا يحرّك ويدهش رودولف حتى الآن، في ملاذه اللوتسيرني؛ لم يكن ليجرؤ أبداً على أن يحكي عنها لتيريز.

تجربة واحدة أثناء عمله مفتشاً، تترك عنده انطباعاً مشابهاً في قوته؛ إنها مقابر الفراعنة في طيبة، التي يزورها خلال عطلته. النزول من حرارة الصيف إلى الأقبية الباردة، الجداريات وما عليها من الصفوف البشرية، محصورةً في إيماءات يصعب تفسيرها، إذ يسلّط عليها الضوء الدليل الثرثار أكثر من اللازم بكثير، التوابيت الفارغة، المومياوات في المتحف، رؤوس ضامرة كالآتية من الكوابيس: كل ذلك يجتمع معاً في تجربة عن الخلود، وفي الوقت نفسه عن حتمية الموت. في المقابل بدا له أن هناك مكان واحد آخر جدير بالاهتمام: الحضور الذي يمكن أن ينسى نفسه من خلاله. تلك الليلة في الخيمة.

لمدة سنة ونصف ظل يلعب دور المفتش بمثابرة واجتهاد. لكن كلما كان يشعر بالحميمية وسط هذه الأجواء الوظيفية ذات الطابع الخاص، كان يتضح له أكثر، أن كل ذلك لم يكن يتوافق مع آماله الأصلية. ماذا كان يريد بالأساس؟ خدمة قضية السلام، أو التفاهم بين الشعوب، أياً كان. كانت تلك فكرة مجردة، فكرة عاطفية. ومع ذلك فقد بدا له أن المسافة بين عمله الفعلي وأهدافه الحقيقية لا تنفك تتباعد. كانت قد بلغته أخبار بعض الاضطرابات بين المستوطنين اليهود في فلسطين، وبين العرب المقيمين هناك، كان هناك تنافس بين القوى الكبرى حول إرث الدولة العثمانية، التي كان من الواضح أنها ماضية إلى انهيارها. كانت تلك هي الأسئلة الكبرى،

وقد كان يريد أن يفعل شيئاً متعلقاً بها. بالإضافة إلى ذلك فقد ساءه وجود رئيس جديد في العمل، المهندس جادو حاد الطباع، الذي يعدّد لسعيد - بلهجة فرنسية مجلجلة - أنه لا يدقق بما يكفي، ويغض الطرف عن أمور كثيرة. حصل على عطلة لمدة شهر، لكي يسافر إلى بيروت، لحضور حفل زفاف أنطوني. بدا له الحفل مأساةً. كانت طوني تستحق شخصاً أفضل من براندايس الفظ. ومع ذلك فقد حاول جاهداً إبداء الكياسة، فلم يكن يريد أن يجرح أخته. ولكن الأمر تطور رغم ذلك إلى بعض المعارك الكلامية المحمومة. بعد عودته لم يعد بمقدوره أن يجبر نفسه على القيام بمهام عمله بجدية. مع نهاية عام ١٨٩٩، مع مطلع القرن الجديد، استقال من وظيفته؛ هكذا حال دون أن يسبقه أحد إلى ذلك الأمر.

عَودٌ إلى برلين. حاول أن يحافظ على التواصل بالخطابات بينه وبين أمه وأختيه. لكنه لم يفلح في ذلك تماماً. فإن رد أنطوني من منطقة جنوب المحيط الهادئ، كان على كل حال يستغرق شهوراً، ولم يكن بوسعه أن يرد على عبارات روزالي - متقلبة المزاج، التي كانت تخبئ الكثير وراءها - بالأسلوب نفسه. أما السطور القليلة التي كانت تكتبها إيميلي، غالباً تحت تلك التي تكتبها روزا، فقد كانت تثير مشاعره بشدة. حتى وإن لم تكن تحتوي سوى على تأكيد حبها، وتمنياتها بكل الخير له، إلا أنه كان يقرأ بينها اتهامها إياه بأنه لا يقف إلى جوارها، وأنه كابن لا يعتني بها بالقدر الكافي. خط يدها أمام عينيه، كان يراها أمامه: كانت تزداد نحولاً عاماً بعد عام؛ في الوقت نفسه كان شيء من القسوة، بل شيء من الاستبداد، قد ارتسم على ملامحها. بينما كان يبدو في عينيها أحياناً شيء من التضرع الطفولي، لكنه لم يكن يلبث أن يخمد. فهي منذ زمن لم تعد سلمى، وكذلك لم تصر أبداً إيميلي على نحو كامل.

١١

بالتأكيد لم يكن الأمر يستدعي أن نعامل بعضنا البعض بهذه القسوة طوال هذه السنوات. تَذَكّر يا أخي أننا سوف نموت. خلال سنوات قليلة لن يبقَ أيٌّ من أبناء أبينا حياً في هذا العالم الفاني.

كيف كانت أمورك يا سلمى؟ احكِ لي. كنت صغيرة في السن جداً حين استحوذ الحب عليك، وكان محظوراً. كنت جميلة بملامحك المتناسقة، وبشرة أمك الشركسية الفاتحة. ومع ذلك فلم يكن مسموحاً لك بكشف وجهك لأبي لفترة طويلة.

تستمع أولاً ـ هكذا يتخيل رودولف الموقف ـ إلى صوت الغريب، الذي انتقل للسكن في البناية المجاورة، ممثل إحدى الشركات الألمانية في هامبورغ، شركة هانزينغ وشركاه، تناثرت الشائعات سريعاً داخل القصر وفي المباني الملحقة به. يقال إنه رجل مهيب، لايزال شاباً، يشتري جوز الهند، وأغاف السيزال، والراتنج، والجلود، والجاكاراندا، والقرنفل، ويورّد السلاح، والمنتجات القطنية، والفحم، يقال إنه يشتري بأسعار أفضل من منافسه أوسفالد، كما أنه إلى جانب ذلك كان قد استولى على بعض العمّال الأكفاء من عنده. الحق أنه يجب الاعتراف له بالبراعة، والفطنة. يقال إن اسمه هاينريش. هاينريش

رويته. يالها من أسماء! إن اللغة الألمانية لغة تكسّر اللسان، ومع ذلك فقد حفظت سلمى تلك الحروف الغريبة.

يجذبها كل ما له علاقة بالعالم الواقع خارج زنجبار. فقد استكشفت الجزيرة على حصانها بما يكفي، هناك أشياء أخرى، بعيدة جداً، تريد أن تتعرف عليها.

تصغي إلى الصوت أولاً ـ في المساء أو الليل، عندما يعود من مكتب المحاسبة ـ عبر النافذة المفتوحة المطلة على الناحية الأخرى من الزقاق. إنه عميق، ودافئ، ومع ذلك مُتسلِّط. بين الحين والآخر تفهم بعض الكلمات باللغة السواحلية، التي يكاد يتكلمها بطلاقة؛ يعطي الخدم بعض التوجيهات: الأطباق هنا، المقاعد في المكان القديم، ولماذا توجد هنا أتربة؟ ذات مساء ـ أجل، ربما كان الأمر هكذا ـ كانت الشرفة هناك تضج بالأصوات، إنه يقيم مأدبة. أوروبيون كثيرون، كلهم تقريباً رجال، بملابس سوداء، لكن بلياقات شاهقة البياض. هرولة الخدم هنا وهناك في ضوء الشموع، ظلالهم الراقصة، والضحكات، وصلصلة الكؤوس. تتجسس من وراء نافذتها المسيّجة، ثم تتسلل بعد ذلك، لكي تتمكن من المشاهدة على نحو أفضل، إلى شرفتها، التي ترتفع عن شرفته قليلاً، وتظن أنها تميّزه، جالساً على رأس المائدة، يضيء وجهَه أحدُ المصابيح المعلقة بالحبال. لحية داكنة، ولكن هل من رجل ليس له مثلها؟ هناك شيء طيب في ملامحه، شيء خاص جدا، يجعلها تشعر بالاضطراب. من أنت؟ تطرح السؤال في رأسها، وتبقى وراء الظل، بينما يرتفع القمر. يبقى الاضطراب، ويظل صوته يرن بداخلها. ممنوع على ابنة السلطان أن تهب نفسها لرجل كافر، حتى خادماتها عرفن ذلك، لكن لا أحد يستطيع أن يمنع عنها أحلام اليقظة، ولا حتى أخوها غير الشقيق ماجد، الذي يجلس على العرش.

هكذا بدأت القصة، كما يخيّل له. في وقت ما، بادرها هاينريش - من شرفته إلى شرفتها - بالكلام، هي الأميرة المحتجبة؛ فاحتمالية أن يكونا قد التقيا في مكان آخر تبدو مستبعدة. سلام في البداية، ليس أكثر، ومع ذلك يتسبب في خفقان القلب، والأرق. ثم تليه أحاديث قصيرة تافهة، عبر الزقاق. عما إن كانت زنجبار تعجب الغريب، وما يفضل أن يأكل، وعن سبب إقامة سلمى في المدينة وليس في إحدى المزارع، التي كانت قد ورثتها عن أبيها المتوفى. يخفضان صوتهما. ولكن ألم يكن مع ذلك أحد يستمع إليهم؟ ألم تكن أحاديث النميمة قد بدأتت تتناثر بالفعل، عن أن سلمى في طريقها للانخراط في علاقة مع الرجل الألماني؟ أم أن مثل هذه المحادثات العفيفة لا تعدّ من الضرر بمكان؟ يعجب هاينريش برنة صوت سلمى، وهي بدورها تبادله نفس الإعجاب، وعندما يصغي رودولف - الابن - إلى أعماقه، فإنه هو أيضاً لا يزال يسمع صوتها في أذنيه، إنه عميق، ومشرق فقط على الحواف. كما أنه يعرف صوت أمه كذلك مكتوماً تماماً، منذ ما كانت تستلقي أياماً في سريرها. لكن بالنسبة للرجل الذي أحبته، لابد أنها كانت تتحدث بنبرة مغرية ورقيقة؛ هكذا كانت أحياناً تتحدث إليه - هو ابنها - بما يشبه الدندنة، منحنية بشدة فوقه، حين كان مريضاً.

خلال الأسابيع تصير المحادثات أكثر كثافة. تدور حول الخطط المستقبلية، وحول التوقعات المختلفة للمجتمع المحيط من كلٍ من الشاب والشابة. في الواقع كان لابد أن تكون سلمى ذات الواحد وعشرين عاماً قد تزوجت بالفعل؛ لكنها - كما تقول ضاحكة، ربما قاصدة شيئاً آخر؟ - كانت حتى ذلك الحين قد أطاحت بكل المتقدمين، كما قالت إن السلطان ماجد لا يجبرها على شيء. ليس بعد. تربطها علاقة خاصة مع هذا الأخ، يتضح ذلك لهاينريش من خلال تلميحاتها،

ومن خلال ما يرد إليه من أخبار: يقال إنها متورطة في دسيسة ما، كان من شأنها أن تُجلس أخاها غير الشقيق برغش على العرش. إلا أن الإطاحة بماجد تمت عرقلتها، كما تم نفي برغش، ثم عقد ماجد الصلح مع المتمردين، ومن بينهم سلمى كذلك، بعد أن وضعها تحت الإقامة الجبرية لبضعة شهور. إلا أن سلمى كانت لاتزال تخشى ذراع ماجد الطويلة؛ هكذا يبدو مستحيلاً أن تهب نفسها لهاينريش، أو أن يهبها هو نفسه. رغم ذلك فإنهما يجدان طريقة ليلتقيا، فتصير رغبتهما في التقارب طاغية. ما الذي لا يمكن عرضه على امرأة محجبة؟ ـ يخطر لرودولف ـ وما الذي يمكن أن تأمل فيه سلمى، التي نشأت بين الحريم، من هاينريش الذي جاب العالم؟ هناك ما يشبه المغناطيس بينهما؛ والشهوة كذلك تتدخل بصورة أقوى في اللعبة.

هل تتنكر سلمى في صورة رجل؟ هل تتم رشوة العبيد، لكي يلتزموا الصمت؟ هل يجد العاشقان طريقة، ليلتقيا في الحقول، في إحدى المزارع التي تملكها سلمى؟ أو في مكان آخر؟ حتى وهي على فراش الموت، حين كانت تسافر بخيالها عائدة إلى زنجبار، لم تُرِد إيميلي الإفصاح عن حقيقة ما جرى آنذاك فعلاً؛ وقد جاء رد فعلها إزاء استفسار رودولف الحذر فظّاً: «دع لي أسراري!» لكنها تحسست يده بعد ذلك ـ بينما كانت تنازع لالتقاط أنفاسها ـ وظلت ممسكة بها بقوة لفترة طويلة. إذن لقاء الحبيبين في مكان أينما كان، كل منهما على فرس، محاطين على الأرجح باللون بالأخضر الوارِف، بعض الحركات الدائرية على الخيل، ثم النزهة على مهل، والتوقف عند شاطئ البحر. يرى هاينريش سلمى لأول مرة بلا حجاب، تهديه وجهها، قلقة من ألا تكون جميلة بما يكفي في عينيه. يصعب على المرء أن يتخيّل والديه كحبيبين، في عناق حميم، فإن الحياء يريد أن يمحو مثل هذه الصور،

ومع ذلك فهي موجودة. أين هما إذن، الاثنان؟ بالداخل أم بالخارج؟ هما الآن لا يعتدّان بأي اعتبارات. هل هو الحب؟ ذلك العمى الجسور؟ ما تفعله سلمى يعاقَب عليه وفق الشريعة بالرجم. هل تفقد السيطرة على كل شيء بين أحضانه؟ هل يسلبها ذلك الشغب العاطفي عقلها؟ بَشْرَة الآخر وحياً، ولغة أطراف الأصابع، والشِّفاه، المرونة والمقاومة، يفقد المرء ذاته بين تلك اللمسات.

كم كان هاينريش رقيقاً، وواسع الاطلاع؟ لم يفكر في مسألة الوقاية، فحبلت سلمى. متى أدركت الأمر؟ إنها كارثة: أن يحبِّل الرجلُ الكافر المرأةَ المسلمة، مسألة قد يدفع كل منهما حياته ثمناً لها. وعلى الجزيرة يدور الآن كلام هنا وهناك عن أن بين الألماني وسلمى علاقة غير مشروعة؛ كان أحد من خبروا الأمر يدردش حول الموضوع. يصل ذلك إلى مسامع ماجد. يعرف أن عليه استدعاء أخته، وإجبارها على الاعتراف، ومحاكمتها. لكنه يتردد، فلربما تخطئ الشائعات. بعض نساء القصر تتضامنّ مع سلمى، هكذا يدع هو الأمور تمر لبعض الوقت، إلا أنه يأمر بوضع سملى تحت المراقبة.

وهي في وضعها؟ وهاينريش الذي يعلم مدى شقاوة إساءته استغلال حق الضيافة؟ لابد أنها تكابد حالة الرعب من الموت. الآن فقط صارت تدرك ما تجرأت عليه، وما ضيعته. لم يبق لها الآن سوى الهرب. من ناحيته فإن هاينريش قلق عليها إلى أقصى الحدود، وعلى الطفل الذي لم يولد بعد، وعلى وضعه كوكيل تجاري. أما هو فلن يتم الاعتداء عليه، فإن ماجد يخشى انتقام الألمان جداً، لكن هاينريش لا يستطيع التحدث مع أي شخص عن أي حلول محتملة. أو بلى؟ كونه يريد أن يتزوج سلمى، فإن هذه مسألة لن تشفع له عند السلطان، بل على العكس. هل يأتمن القنصل الألماني؟ الزميل ومنافس أو'سفالد، جون

فيت الهازئ؟ كان مع ذلك ليتفهم الوضع الدقيق لابن بلاده. وفي الميناء ترسو سفينة أو'سفالد، «ماتيلدا»، وهي أسرع وسيلة يمكن لسلمى أن تغادر بواسطتها زنجبار.

الموقف يتفاقم. تتلقى سلمى خطاباً من ماجد، يصرّح لها فيه بالسفر في رحلة الحج إلى مكة، على متن السفينة الخاصة بكبير خصيانه. إنه بعبارة أخرى أمر يعادل الحكم بالإعدام، لأنها تعلم، أن نساءً أخريات في ظروف مشابهة لم تعُدن من مثل هذه الرحلة. يعني الخطاب أن ماجد قد عرف الحقيقة. ما سيحدث بعد ذلك، هو ما جعل إيميلي تعيش في الظلام طيلة حياتها. هناك المحاولة لإحضار إيميلي على متن السفينة «ماتيلدا». لكنّ أحد العبيد يبلغ السلطان بالأمر، فيأمر بمراقبة الميناء. تفشل المحاولة الأولى للهرب. تذرعاً برحلة الحج باهظة الثمن، كانت سلمى بالفعل قد باعت جزءاً من أملاكها، بما في ذلك بعض العبيد. أمر كهذا يتسرب حتماً، فلا يعود هناك سبيل للتراجع. تطلب المساعدة من إيميلي سيوارد، زوجة القنصل الإنجليزي، فإن سلمى تعرفها من حفلات الاستقبال، مضيفةً واسعة الأفق. السيدة سيوارد ـ السيدة القصيرة، غير الملفتة للنظر، المستعدة دائماً للمغامرة، تتخذ جانب سلمى بوضوح؛ يروق لها التدخل في هذه القصة شديدة الرومانسية، لربما يتسنى لها أن تتباهى فيما بعد لأنها أنقذت حياة شخص ما. على أية حال، فهي تبعث القنصل البريطاني كيرك ـ ببعض الدلال والإلحاح ـ على أن يدبّر محاولة هروب جديدة. يلعب بارسلي، قبطان الفرقاطة البريطانية «هاي فلاير»، التي توشك على الإقلاع، الدور الحاسم في الموضوع. يختار المتآمرون يوم الرابع والعشرين من أغسطس تاريخاً مناسباً، فهو اليوم السابق على عيد رأس السنة الهجرية، حيث جرى العرف أن يسبح

الناس في البحر في المساء. المئات سوف يتجمعون في أجواء شعبية احتفالية على الشاطئ، فلن تلفت سلمى الانتباه، إذا ما ركبت أحد القوارب، بُعَيد غروب الشمس. من أجل ذلك سوف تسوق حجة أنها تودّ زيارة أخت غير شقيقة على الناحية الأخرى من المدينة. كل شيء محسوب بذكاء، لكن الخطة يمكن أن تفشل بسبب معوقات غير متوقعة.

لابد أن الساعات الأخيرة قبل الهرب كانت بالنسبة لسلمى غير محتملة. معرفة أنها سوف تترك العالم الذي تعرفه وراءها أو تموت، الرغبة ـ التي صارت حينئذٍ ضرورة كذلك ـ في الثقة بهذا الرجل الوحيد الذي اصطفته من بين الرجال. الشك الذي يتعين عليها أن تخنقه، وإلا لأصبحت مشلولة، وغير قادرة على التصرف. القلق على الطفل الذي في أحشائها، والذي كان مستقبله ـ مثل مستقبلها ـ مجهولاً.

ما يلي ذلك، كتبه ابن القنصل كيرك لاحقاً في خطاب أرسله إلى رودولف. تذهب سلمى بصحبة خادمتين إلى الشاطئ؛ أما متاعها فيصل ـ مموّها، وبطرق عسيرة ـ على متن «هاي فلاير». تضع كل ما أمكنها حمله من النقود ـ الدولارات ـ في كل أنواع الحقائب التي معها، دون أن تثير الشك. ينتظرها الزورق الخاص بفرقاطة «هاي فلاير» وعليه ثلاثة بحارين. لا تفهم الخادمات لماذا تركب سيدتهن الزورق، وتمتنعن عن اتباعها. الأولى يكمشها البحارون ويرفعونها إلى الداخل، والثانية تهرب صارخةً، ظانةً أنها عملية اختطاف. تحدث جلبة على الشاطئ، لقد تم التعرف على سلمى. بأقصى سرعة يجدف البحارون إلى السفينة الأم، التي كان البخار يتصاعد منها بالفعل. لا تلبث سلمى تتسلق سلم حبل السفينة، إلا وتنطلق «هاي فلاير». يبدو كأنها تحيد في البداية

باتجاه الجنوب، إلا أنه بمجرد ما يختفي الميناء عن الأنظار، تنعطف السفينة باتجاه الشمال.

كانت مدينة عدن هي نقطة الالتقاء التي اتفق عليها هاينريش وسلمى، ولكن ليس قبل بضعة أسابيع أو شهور. فعلى هاينريش إنهاء العديد من الأمور، قبل أن يلحق بها؛ ولا يزال على قناعته بأن ماجد لن يمس شعرة منه، وهو محق في ذلك. صحيح أن السلطان يبدو ـ كما هو متوقع منه ـ غاضباً من خيانة سلمى، ويبعث بمذكرة احتجاج للقنصل البريطاني، لكنه كذلك مرتاح، لأن ذلك يوفر عليه أن يضطر للحكم على أخته، وفقاً للشريعة الإسلامية، بالإعدام. يمهل هاينريش كذلك بعض الوقت ليعيش في مأمن؛ لكن سكان الجزيرة حينئذٍ يتحاشونه، كما يقاطعه إلى حد كبير الأوروبيون، الذين يخشون أن يتسبب تصرفه غير المسئول في إلحاق الضرر بهم جميعاً في نهاية الأمر.

وسلمى؟ لقد أبدت ـ حسبما أبلغ القبطان القنصل كيرك لاحقاً ـ بأسلوب مؤثر للغاية، امتنانها الشديد لمنقذيها. خلال الرحلة التي استغرقت سبعة أيام في خليج عدن، هكذا يتخيل رودولف الأمر، يشتعل بداخلها اليقين، أنها حطمت كل الجسور من ورائها، وأن عليها أن تصنع من نفسها شخصاً جديداً. رفيقاتها في القصر، اللائي يعرفنها منذ الصغر، خَوْلة، وشريفة، وزيانة: سوف يلعن سلمى، ولا واحدة منهن سوف تراها مرة أخرى، والجزيرة التي شكّلت كل حياتها، كانت قد اختفت وراء الأفق. في الوقت نفسه تغريها أوروبا، مدينة هامبورغ التي طالما حكى لها هاينريش عنها؛ وسط الخوف من الجديد والمجهول يختلط تمتزج كذلك الثقة، في أنها سوف تتمكن من الحركة بحرية هناك، من دون حجاب، يحترمها المواطنون، لأنها سوف تصير

زوجة أحد التجار الناجحين. بدءاً من وجودها على السفينة تلبس بالفعل كالأوروبيات. فقد أعطتها السيدة سيوارد صندوقاً به بعض الفساتين المناسبة لها، قمصاناً وتنورات مخصّرة، كان لابد أن تتعود عليها أولاً، بما في ذلك الملابس الداخلية المعقدة. إلا أن القرار بأن تكتسب كل ما هو أوروبي في أقصر مدة ممكنة، لا يمكن الرجوع عنه.

تقيم في عدن ـ كما اقترح عليها هاينريش ـ عند بونافينتورا ماس وزوجته، وهما زوجان أسبانيان، كانت قد تعرفت عليهما مسبقاً في زنجبار. كان يعمل بالتجارة هناك، وكان واحداً ممن كانوا يتاجرون كذلك في العبيد؛ عندما أوقف الإنجليز هذه التجارة، انتقل للعيش على الخليج. حينئذٍ يبدأ في عدن الانتظار الطويل لقدوم هاينريش. بعد نشوة نجاح رحلة الهروب تتسلل الشكوك مرة أخرى. هل يمكن الاعتماد عليه حقاً؟ ألن يتخلى عنها؟ وماذا بعد؟ كل يومين يأتي الكاهن الأنجليكاني إلى البيت ليعلمها أساسيات الديانة المسيحية؛ هذا ما كانت قد اتفقت مع هاينريش عليه. تريد أن تغرس العقيدة الجديدة في نفسها، تريد أن تصير ألمانية مسيحية بأقصى سرعة ممكنة. ليس ذلك اشتياقاً لأن تتخذ يسوع الناصري ربّا لها؛ إلا أن المعمودية هي السبيل الوحيد، لكي تستطيع الزواج من هاينريش. أحياناً يبدو لها ما يعلمها الكاهن جافاً، بل مفزعاً كذلك، أن تقدس رجلاً معذباً، معلقاً على الصليب، بوصفه الرب. أليست طبيعة محمد أقرب كثيراً للطبيعة الدنيوية، أوليس أكثر جاذبية في وهجه النبوي؟ لكن سلمى تحفظ طائعةً الصلوات، التي يتلوها عليها الكاهن؛ فالطاعة مفروضة على المرأة في الديانتين.

يتأجل وصول هاينريش. يكتب إليها، إن عليه أن يحصل لشركته على ما يكفي من ودع الكَوري من سيشيل، من أجل التجارة في شرق أفريقيا، يطلب منها الصبر، ويؤكد لها حبه بكلمات رقيقة باللغة

السواحلية. مزيداً من الانتظار إذن، بينما الطفل ينمو في أحشاء جسدها. أما السلطان ماجد ـ وهو لايزال يرى نفسه كما في السابق راعياً لها ـ فيرسل خطاباً للرجل البريطاني المقيم في عدن. يطلب منه أن يرسل أخته إلى زنجبار مرة أخرى، وأن يمنعها ـ باسم السلطان ـ من التعامل مع الأوروبيين. قال إن عليها حتى موعد رحيلها أن تقيم عند عائلة مسلمة متشددة، وإنه غير مسموح لها على الإطلاق السفر مع هاينريش رويته إلى هامبورغ. فإن نفّذَت كل ذلك، يمكن أن تأخذه بها الرأفة. لكن سلمى ترفض مطالبه، وإن كان بوخزٍ من الارتياب. أما الشقة التي يعرضها عليها المسئول العربي الكبير، فهي لا تريدها، فهي الآن قد تنشّقت بالفعل نسيم الحرية، التي تأمل أن تهتدي إليها في أوروبا. كما أنها لن تستبدل بالملابس الأوروبية التي ترتديها الملابس العربية، هذا ما تؤكده للغريب المقيم هنا، وهو ينقل ذلك بدوره إلى زنجبار، حيث يشتعل غضب ماجد مرة أخرى بسبب سلمى.

في يوم ٧ ديسمبر ١٨٦٦ ـ كما اكتشف رودولف من خلال محاولاته الاستيضاحية عبر الخطابات ـ يولد ابن سلمى، تقوم بمعاونة الطبيب البريطاني، قابلتان من سكان المدينة، فيسلبانه كل سلطته بطبيعة الحال. إنها ولادة سهلة إلى حد الدهشة؛ لكن الأب على أية حال يظل مدة طويلة لا يعرف شيئاً عنها. الشهور الأولى للمولود تصرف انتباه سلمى عن كل همومها الأخرى. يحثها الكاهن والعائلة المضيفة لها على تعميد الطفل. يجري ذلك في بداية شهر أبريل في الكنيسة الإنجليزية؛ تسميه هاينريش على اسم الأب الغائب. بعد شهرين تقريباً يظهر أخيراً، فقد تحملت سلمى ثلاثة أرباع العام من دونه. أما مشهد اللقاء بعد الغياب، فيتخيله رودولف دامعاً، جيّاشاً، مع بعض العتاب من جهة سلمى: لماذا بقيت بعيداً كل هذه المدّة؟ لماذا لم تكتب سوى

قليلاً؟ إلا أن الطفل، بعد أن يبدى بعض الريبة من الغريب، يضحك في وجه أبيه، ويخلق بينهما رباطاً، يبدو لسلمى غير قابل للتمزق. في اليوم نفسه يتم تعميدها هي الأخرى، ومن باب التقدير لإيميلي سيوارد تسمي نفسها باسمها؛ وبعد التعميد يأتي الزواج، الذي يعطي بدوره الطفل صفة شرعية. من سلمى بنت سعيد يصبح اسمها على الأوراق إيميلي رويته. في اليوم التالي على الفور ينطلق ثلاثتهم، لتكون مارسيليا وجهتهم الأولى، إلى ما يمثل لهاينريش عالماً مألوفاً ولإيميلي المجهول.

عن هذا الطفل الأول، هاينريش الصغير، شقيق رودولف الأكبر، ولا كلمة واحدة طيلة هذه السنوات، ولا أتفه الذكريات. كونه كان موجوداً، فهذا أمر كانت أمه قد طوته في نفسها. لابد أنه قد مات خلال الرحلة إلى هامبورغ. أين؟ من جراء ماذا؟

١٩٢٣، في ليندا و، قبل وفاتها بعام واحد، حين كانوا يقضون بعض أيام الربيع معاً، سأل أمه عن الأمر. ملحوظة في خطاب خاص بأبيه، كان قد ظهر أثناء ترتيب أشيائه بالصدفة في أحد كتب التراتيل المسيحية، هي التي دفعته لذلك. كانا جالسين على دكّة في متنزه الشاطئ، كانت السماء تسطع بأصفى درجات الأزرق، فتجمّدت إيميلي كأنه كان قد استحضر روحاً شريرة. «كان ذلك منذ زمن بعيد» ـ نطقت بذلك بعد فترة من الصمت المعذّب ـ «لا أريد أن أتحدث عن هذا الأمر». ثم أضافت هامسة، كأنما كان عليها تبرير ذلك: «لا أستطيع..». حوّطتها هالة من استحالة العزاء، مما منعه من وضع يده على ذراعها؛ ظلت برهة صامتة تماماً، حتى أنه تساءل إن كانت أصلاً لاتزال تتنفس. دفعت نفسها فجأة دفعة واحدة، هبت واقفة وكانت تريد العودة إلى الفندق. عرف حينئذ: إن الإخوة الثلاثة الأحياء لن يعرفوا

شيئاً أبداً عن ذلك الطفل الميّت. لكن لابد أن الأمر كان مؤلماً لها جداً آنذاك! ياله من ألم، أن تفقد الكائن، الذي كان لها بمثابة حلقة الوصل مع الحياة الجديدة! بطلاقة وبلكنتها الخشنة بدأت أمه - التي كانت رغم ما حدث الآن تمشي معه متأبطةً ذراعه - تتحدث معه عن أفضل الطرق لمواجهة التضخم الرهيب في ألمانيا. بدا المعاش الضئيل، الذي لايتعدى بضعة جنيهات إنجليزية، والذي كانت السلطنة قد منحتها إياه بعد سنوات من المساومة، كأنه في هذا التوقيت تحديداً يعدّ انتصاراً. لذلك كانت إيميلي - بناءً على ما حثها عليه رودولف - قد تنازلت عن كل مستحقاتها الأخرى؛ كان ذلك يملأ نفسها غضباً من السلطنة الشحيحة، ومن ابنها، الذي رمته بأنه خارق الذكاء.

الطفل الثاني يتكوّن خلال الرحلة - يسهل حساب ذلك - على الأرجح بعد موت الأول بفترة قصيرة. لكن بأي حالة مزاجية؟ هل كان فعل واعٍ لمواجهة الموت بحياة جديدة؟ في تلك الحالة من القنوط، التي تدفَع جسدين إلى بعضهما، لكي تنسى الروح؟ هاينريش: الوحيد الذي يبقي عليها، الأب، والأخ، والحبيب، والصديق، كل ذلك في آن. يعدّها للحياة في هامبورغ، يحاول أن يشرح لها كيف تفرّق بين السلوكيات الألمانية الشمالية، وبين نظيرتها في زنجبار، ويعلمها جملها الأولى باللغة الألمانية. لابد أن هذا الدور - هكذا يخطر لرودولف - كان يثقل على أبيه كذلك؛ لكنه لا يستطيع أن يحكم على هاينريش على الإطلاق، إذ يبقى بالنسبة له شبحاً، وجهاً فوتوغرافياً بالأبيض والأسود فحسب. لن يحصل أبداً على إجابة عن أسئلته نفسها التي تتكرر باستمرار: ما الذي دفعك لكي تغوي هذه المرأة الغريبة معرضاً حياتكما للخطر، لتعيد زرعها في هامبورغ؟ هل كان هو الحب حقاً؟ هل كانت نشوة الانخراط في مغامرة عجيبة؟ ولماذا، يا أبي، قفزت بهذا الاستهتار

من على الترام الذي يجره الخيل؟ لماذا تركته يدهسك؟ لماذا دفعت بأم لثلاثة أطفال صغار إلى الشقاء؟ هذه الأم التي طالما كانت بالنسبةً لسعيد، بالنسبة لرودولف، لحماً ودماً، الأم التي كانت يداها تبرّدان جبهته، الأم التي تخلت عنه، الأم التي ارتضت، أن يساء استغلاله، كرةً في لعبة السياسية، الأم التي كانت لفترة طويلة جداً محور عالمه.

تعود أيام ليندناو للذاكرة، يرى أمام عينيه رقعة البحيرة، بحر شفابن[1]، يحاول تمييز الضفة الأخرى من الشاطئ، إذ كانت الشبورة الصباحية قد غطتها. كلاهما على مائدة الإفطار في شرفة الفندق، كانت تحب الخبز المحمّص، المدهون بكثير من الزبد والعسل؛ فقد كانت تفضيلاتها الغذائية قد صارت أوروبية منذ زمن. كم بدت إيملي بالفعل هشة حقاً! كأنما كان أبناؤها يغطون جسداً طفولياً هزيلاً. ومع ذلك كان فيها شيء من شدّة المِراس. فقد عاشت عقوداً طويلة مناضلة؛ لقد تحملت حنينها العارم للوطن، وموت زوجها، وتبرأ أخوتها منها، والفقر المستتر. وفي كل مرة كانت تحتفظ بالأمل في أن تُحدِث تحوّلا في مصيرها، وأن ترأب الشرخ الذي كانت قد تسببت فيه. نقلت لابنها أمنيتها في إعادة إصلاح الأمور؛ فقد كافح هو الآخر، باسمها في نهاية الأمر، ليعترف الأقارب الشرقيون بمساواته معهم. كانت الدعوة لحفل استقبال سلطان زنجبار في لندن، ١٩٢٨، انتصاراً، كما كان منحه وساماً زنجبارياً فوزاً، لم يجهر به، بل ذاق طعمه بنفسه، من خلال الحوار الداخلي مع أمه المتوفاه: أترين؟ لقد حققت ما كنتِ ترغبين فيه، أنا، ابنك.

---

(١) بحر شفابن: هو ليس بحراً، لكنه اسم يطلقه الألمان على بحيرة بودن زي، أو بحيرة كونستانس، التي قع في ثلاثة دول ألمانيا وسويسرا والنمسا. من أكبر المدن الواقعة على البحيرة: كونستانس، فريدريشسهافن، ليندأو، رومانسهورن، بريغنز.

فترة الإقامة الأولى لإيميلي في هامبورغ. يبدو الأمر صعباً، أن تضع نفسها في تلك الحالة التي تصفها في خطاباتها. أما ابنها فقد فقدته، لكن لا يجب أن يعرف أحد بذلك، فهي بالفعل حبلى مرة أخرى. كل الأشياء الغريبة حولها تشكّل عبئاً، لا تستطيع أن تزحزحه. إنهم في فصل الصيف، صيف اعتيادي في الشمال، أيام حارّة بين الحين والآخر، تتخللها فترات من المطر، لكن إيميلي تتجمد من البرد. عندما يتمشى الآخرون بالخارج بملابس بأكمام قصيرة، تلف هي شالا حول عنقها، فإذا جلست عند النافذة، فردت غطاءً قطنياً عليها، لكي لا ترتجف. كان هاينريش قد استأجر بيتاً مطلاً على نهر ألستر، فيلا، قال إنها فخمة، تليق بأميرة، تطل على المياه، التي تحبها جداً. ولكن كم هي صغيرة الغرف، وكم يبدو لها غريباً أن يكون من الضروري إبقاء الأبواب مغلقة طوال الوقت. ذلك الأثاث المعقد، الضخم، ذو الأدراج بكل أشكالها، المقاعد التي يجلس بداخلها المرء كأنها مناجل. الأدوات المئة التي يحتاجها المرء في المطبخ، مخفقة، فتّاحة، سكاكين، وسكاكين صغيرة من كل شكل ونوع، أقماع، مبشرة جبن، عصّارة ليمون: كلمات لا حصر لها، تظل وقتاً طويلا لا تريد أن تثبت في رأسها. لا شيء هنا من الهواء والضوء، من الستائر، التي تنتفع بفعل الريح الخفيفة، ومن دخول وخروج الزائرات المرحات.

هي تحت حماية هاينريش، وهو مسؤول عنها، هذا هو واجب الرجل الألماني. خلال النهار يتركها وحدها، يجلس من الساعة الثامنة والنصف حتى الرابعة في المكتب، أما ما يفعله هناك، فلا حاجة لها بأن تشغل نفسها به. التعامل مع الخادمتين اللتين استخدمهما صعب. إنهما تقومان عنها بكل شيء، وفقاً لما أمرهما به. لكن تعابير الوجه الغامضة تلك، والعيون الباردة، وضفيرة الشرايين على الوجنات الحُمر،

الأجساد الممتلئة في الثياب والمآزر المنشّاة. عندما تريد إيميلي منهن شيئاً غير اعتيادي، فإنها تصطدم بحائط سد، فهي بدايةً لا تفهم ولا كلمة واحدة مما تقلنه. إنهن فلاحات، كما يشرح لها هاينريش، يتقاضين أقل ممن لهن خبرة طويلة، ومع ذلك فلديهن قابلية للتعلّم.

كيف تقضي أيامها حتى موعد الولادة الجديدة؟ عليها أن تخرج للهواء الطلق، كلما كان ذلك ممكناً، كان الطبيب لحسن الحظ قد نصح بذلك. بناءً عليه تتمشى كل يوم مسافة كيلومترات على شاطئ نهر ألستر بخطى واسعة، متعجلة جداً بالمقارنة ببقية المارة، الذين يتفرجون عليها. بعضهم يعرف من هي: أميرة عربية؛ لقد كُتِب عنها في الصحف! إن الأمر يستغرق طويلاً حتى تستطيع أن تتفاهم بألمانية لكناء، لذلك فهي تتجنب الأحاديث التلقائية. في المقابل تشعرها الحركة بالدفء، حتى وإن هبت ريح قوية باتجاهها. أحياناً يُهيّأ لها أنها تشم رائحة الملح، حينئذٍ يتسع صدرها. البحر! تتمنى أن تكون في البحر، فعبر البحر كانت لتعود إلى جزيرتها. بين الحين والآخر تبقى جالسة قليلاً عند الماء، ترى ظلال السحب تتسحب فوق المساحة المضطربة، تنسى ذلك الشاطئ الآخر، تصير مرة أخرى تلك الطفلة التي كانت تلعب على شاطئ بيت المتوني بالحجارة، بالأصداف وأفرع الشجر المتيبسة. كانت قد أحضرت معها قطة بيضاء من زنجبار، حيوان ظريف، مصدر حي للسلوى. عندما تضع القطة على حجرها، وتضغط أنفها في فرائها، تعتقد أنها تتشمم - كأنما من بعيد جداً - رائحة توابل جزيرتها، القرنفل، والمسك، والزعفران، والكمون، الخلطة التي يفتقر إليها الطعام الألماني الماسخ. تصاب الطباخة بالذهول، حين تصر إيميلي على رش كمية وفيرة من مسحوق الكاري على الكرنب. تتعلم منها كلمة جديدة صعبة: غير *مستساغ*. في بعض الأيام، التي تشعر فيها

بمزيد من الوحدة، تأخذ القطة معها في سلة مبطّنة خلال نزهاتها، تدعها تموء بالداخل، فتشعر على الأقل أن هناك أحد ما بصحبتها.

في نهاية الأسبوع يصطحبها هاينريش أحياناً بالعربة ذات الأحصنة إلى نهر الإلبه، على الميناء، يقودها وسط زحام عمال الميناء، يشرح لها البضائع الموجودة في الصناديق والبراميل، التي يتم تفريغها وتعبئتها، وأرجحتها بواسطة الرافعات. تتساءل كم واحدة من بين تلك السفن تذهب إلى أفريقيا، وكم واحدة منها ترسو على جزيرتها؟ ترتعد حين ترى وجهاً أسمر، كل مرة يبدو لها الأمر كأنما نقلها سحر إلى زنجبار. هاينريش لا يريدها أن تتحدث إلى البحارة ذوي البشرة السمراء، يشرح لها إن ذلك الفعل لا يليق بمستواها.

يتضخم بطنها. في المساء المتأخر، وهما مستلقيان إلى جوار بعضهما في السرير، يضع هاينريش يده على ذلك الارتفاع؛ أما الطفل الميت، فيحاولان إبعاده عن فكرهما. البرد يشتد، تحتاج إيميلي بالخارج إلى شمسية أو رداءً مضاداً للمطر. بانبهار تراقب سقوط الأوراق، رقصة الأوراق في مهب الريح، ولا تدع شيئاً يثنيها عن أن تلملم الأوراق الذابلة في حديقتها الخاصة، تصول وتجول بفرحة طفولية وسط أكوام الأوراق الحافّة. تكاد لا تطيق الجو في الغرف التي صارت الآن تتم تدفئتها. وصحيح أنها تكره أن تلف الوشاح حول رقبتها، وأن تلبس الحذاء الشتوي، والمعطف المبطن بالفراء، لكنها ـ كما حذرها هاينريش ـ غير مسموح لها أن تصاب بالبرد. كل هذه الطبقات على جلدها، إلى هذا الحد تتثاقل خطاها. متى كانت آخر مرة تمشت على الشاطئ حافية القدمين، بثوب خفيف، وإن كان ذلك بالحجاب؟ كان ذلك بالأمس، كلا، بل منذ نصف دهر، لم تكن تعرف كم يمكن أن يكون الحنين للوطن جارحاً، وبلا رحمة. رغم برودة

الجو، تأخذ معها القطة، التي تظل تتحرك مضطربة داخل السلة. كلما أتيحت الفرصة، تخرجها إيميلي، وحين تبسبِس بها تعود القطة إليها مرة أخرى، تدعها تلاطفها، ثم تعيدها مرة أخرى إلى السلة. لكن ذات يوم ـ في بداية شهر ديسمبر ـ تختفي القطة. تتوجه إيميلي إلى المارة القلائل السائرين في هذا الطقس، تسأل بألمانيتها البدائية عن قطتها البيضاء، التي ترسم صورتها في الهواء بإشارات اليدين: آذنان مدببتان، ذيل طويل، تصحب ذلك بالمواء، الذي يبعث من تتحدث إليهم على الابتسام. تشير لها امرأة عجوز ببعض اللفتات إلى أنها كانت قد رأت قطة منذ قليل. تعود إيميلي معها إلى الموقع الذي تشير إليه، لكن كل النداءات والبسبسة لا تجدي شيئاً، لا يوجد أي أثر لذلك الحيوان. لو كانت إيميلي قد لفت شريطاً حول رقبتها وعلقت فيه جرساً ـ كما تُفهِمها السيدة ـ لصارت عملية البحث عنها أسهل. ألم يكن ممكناً أن تخطر هذه الفكرة لهاينريش كذلك؟ تعود إلى الفيلا مبتلّة ويائسة. لا تعير الخادمتان همَّها اهتماماً كبيراً، إذ يمكن إحضار قطة أخرى بسهولة، حتى هاينريش، يعرض عليها حين يعود أخيراً، أن يشتري لها غداً على الفور قطة بديلة؛ بل يسألها إن كانت تفضل عصفور الكناريا أو كلب البطباط، يمكنها اصطحابه مربوطاً بحبل، أو كليهما. تبكي برهة بين ذراعيه، وتشعر بالامتنان تجاهه، لكنه تحس أنه لا يفهم حقاً، ما تعنيه القطة البيضاء لها. تظل تبحث عنها بضعة أيام أخرى من دون جدوى. عبرت ليوني ـ إحدى الخادمات من ميكلنبورغ ـ عن شكها في أن يكون أحد الجائعين من الأحياء الفقيرة قد اختطف الحيوان السمين وذبحه. لا تريد إيميلي سماع ذلك؛ تقاطعها بحدة كما لم تفعل من قبل أبداً. يستغرق الأمر أسابيع حتى تسلّم بهذه الخسارة. الكلب البطباط، وكلب

الصيد السلوقي، والجروان، لا يستعاض بهم عن القطة البيضاء، لكنهم يصرفون انتباه إيميلي قليلاً.

أكثر ما يشق عليها خلال فترة البداية تلك، هي المناسبات الاجتماعية، التي يقدمها خلالها هاينريش ـ دون أن ينسى التفاخر بأصلها ـ بوصفها زوجته. أما الأوبرا فهي غريبة تماماً عليها؛ ومع ذلك فإن هاينريش يعتقد أن أوبرا *الأفريقية* للموسيقي مايربير[1] والتي يدور جزء من أحداثها في شرق أفريقيا، قد تشعرها بالألفة. يحفزها على أن ترتدي الملابس الفاخرة، وتلف شالاً حريرياً منقوشاً بمختلف الألوان، تخفي تحته حملها. يلفت مظهرها الانتباه؛ في الاستراحات توجه الكثير من نظارات الأوبرا المكبرة إليها، وهو ما يشعرها بالحرج. تنصرف عن العمل الفني التي استطاعت بالكاد متابعته، الموسيقى بالنسبة لها عالية جداً، وحادة جداً، وأما الملابس الخيالية فهي تراها مضحكة. لا أوبرا بعد اليوم! تقسم على ذلك. لكن هاينريش يقول بسخرية لا تخلو من العطف، إنها سوف تتعود عليها كما تعودت بالفعل على أشياء كثيرة.

الأسوأ من ذلك هي دعوات العشاء، التي يجب عليها أن تذهب إليها متأبطةً ذراع هاينريش. أما الأنخاب وأحاديث المائدة فهي لا تفهمها، وأما أن تحكي عن زنجبار فهذا شيء تبغضه، لأنه يعزز شعورها بالغربة. وفي كل مرة، تنسى ـ وهو ما يكون مثار تسلية الضيوف سراً ـ ترتيب أدوات الطعام الخاصة بكل طبق؛ ترفض أن تشرب أكثر من كأس نبيذ واحد، فهو يغشّي رأسها، وحينئذٍ قد يحدث أن تبدأ فجأةً في الجدال مع هاينريش بصوت مرتفع باللغة السواحلية.

---

(١) جياكومو مايربير (١٧٩١ ـ ١٨٦٤)، هو مؤلف موسيقي وقائد أوركسترا ألماني يهودي، كان من أنجح مؤلفي الأوبرا في القرن التاسع عشر، ويعد رائد الجراند أوبرا.

أما الأسوأ على الإطلاق فهي العزائم، التي يتعيّن عليها أن تقيمها في منزلها، بين الأربعة الجدران الخاصة بها. حينئذٍ تقع كل مسؤولية سيدة المنزل عليها. يكون عليها أن تستخدم خدماً ببدل رسمية أجورهم مرتفعة، وترتيب قائمة الطعام؛ فمع كل خطوة خاطئة تحرج نفسها أمام الضيوف. يكون أصدقاء هاينريش في العمل موجودين، وأحياناً حماها وحماتها، اللذان يعاملون إيميلي بتحفظ لطيف. كل شيء في المكان الصحيح، على مفرش المائدة ساطع البياض، هذا العدد الذي لا حصر له من الكؤوس، التي لا يُسمح برؤية أية بقعة على إحداها، الزبديات الكبيرة والصغيرة، باقات الزهور، التي تفسد رائحتها متعة الأكل. علامَ كل هذا التكلف؟ طالما كانت طوال حياتها تأكل بأصابعها، لا شيء يبدو لها اصطناعياً وعديم الفائدة مثل التعامل مع السكين والشوكة. نظام المائدة كذلك ـ حيث يجلس النساء والرجال إلى جوار بعضهم ـ تشعر أنها مكرهة عليه، فهي معتادة على الفصل التام بين الرجال والنساء، ومع ذلك يتوجب عليها الآن أن تلتزم بالعادات الأوروبية، وأن تتحمل المرح الصاخب حول المائدة، ضحكات أناس نصف ثملين. كما أن عليها أن تثبت كفاءتها في المحادثات القصيرة، ووسط الكلام التافه، الابتسامة الدائمة تصحب بعض الجمل الألمانية، التي تحفظها عن ظهر قلب وترددها كالببغاء: حسناً، أحوالي جيدة جداً. وكيف حالكم؟ أستطيع تدبير أموري على أكمل وجه. تجارة زوجي تسير بشكل جيد. أي نعم حسناً، إنه الكاري، أحد الأكلات التقليدية من زنجبار، لم أصنعه حاراً للغاية. تتطرق النساء إلى حملها، يسألن بحذر عن مساره. هي لا تحب ذلك، يحمرّ وجهها، وتتفادى الحديث، تقول على الأكثر: السنة القادمة، في شهر مارس يحين الموعد. آه.. حسناً، أي نعم، آه.. كلا.

تكون متعبة جداً بعد دعوات العشاء تلك، كأنما سالت طاقتها كلها منها، وسوف يتم كسحها الآن، أثناء غسل الأطباق، مع بقايا الطعام والصلصات. يريد هاينريش ـ وهو أمر لا يمكن إغفاله ـ أن يتباهى بأميرته العربية وتحولها السريع إلى ربة منزل ألمانية مثالية؛ ينبهها إلى أن تتوخى نفس القدر من اللطف ـ بل الرقة، كما قال هو ـ مع جميع المدعوين على حد سواء، حتى مع الرجال ذوي الأجساد البدينة، الذين يحملقون فيها بقلة حياء، ويشفطون الحساء بصوت عالٍ. عليها أن تومئ فقط، حين يكون هناك شيء لم تفهمه (وهذا هو الحال في كثير من الأحيان). ينذرها بعد ذلك، حين تنسى أن تصب مزيداً من النبيذ بنفسها لضيوف الشرف الجالسين على رأس المائدة.

تسأله: «هل هذا مهم إلى هذا الحد؟»

فيجيب بحزم: «نعم، من المفيد في التجارة أن يكون للبيت سمعة طيبة».

أما السمعة الطيبة، فهي تكتسبها فقط عندما لا تخطئ ولا خطأ واحد، وعندما تتصرف *باحتشام*. وفي الوقت نفسه يجب أن *تتألق* وأن تحفظ لهاينريش شرفه.

قبل عيد الميلاد المجيد ببضعة أسابيع، يتم بناءً على توصية منه، إرسال سلحفاة حية إلى البيت المطل على نهر ألستر؛ كانت قد جاءت على متن إحدى السفن من زنجبار، وسوف تضفي لفتة مبهجة على العشاء في ليلة عيد الميلاد. أن يستطيع المرء تحمل نفقات شيء كهذا، لهو دليل على يُسر الحال، وهذا الانطباع هو ما يريد هاينريش ـ الذي كان في تلك الأثناء قد أسس شركته الخاصة للاستيراد والتصدير ـ أن يتركه. سوف تودَع السلحفاة حوض الاستحمام نصف المملوء بالماء.

يناسب إيميلي هذا تماماً، فهي لاتزال تتردد في الدخول بنفسها إلى الحوض. إنها معتادة على الاغتسال بالمياه الجارية. تقزّزها المياه الراكدة ـ من دون أن تصرح بذلك ـ حتى وإن خضّر لونها ملح التنوب. تبدو لها السلحفاة كعلامة حيّة من بلادها، كل يوم تقرفص لبعض الوقت أمام حوض الاستحمام، وتراقب كيف يتأرجح ذلك الحيوان بخمول في المياه. أنت وأنا ـ تقول لها في سرها ـ كلانا بعيد عن جزيرتنا، وحين تمد السلحفاة حينئذٍ رقبتها وتلفها، تشعر بأن أحداً يفهمها، حتى وإن كانت تعرف أن ذلك غير معقول. يوم حزين ـ وقد كانت تعرف بالأمر ـ حين يُقتل ذلك الحيوان. هاينريش الذي يكشف الدمع في عينيها في المساء، يهزّ رأسه: «يا إلهي يا حبيبتي، كيف لك أن تبكين سلحفاةً؟! ثم إن لديكِ كلابك». وقريباً ـ كما يخطر له ـ سيكون عندك طفل مرة أخرى. لحسن الحظ لا يلح عليها هاينريش على المائدة لتتذوق حساء السلحفاة؛ فمجرد الرائحة تكاد تجعلها تتقيّأ. لكنها تتمالك نفسها، تجبر نفسها على الابتسام، وتحاول جاهدة ألا تكره حماها الذي يثني على الحساء ويستقي منه المزيد. غير أن هاينريش ـ فيما يكاد يكون إثباتاً لحبه ـ يكتفي ببضعة ملاعق، ثم يبعد الصحن عنه، غامزاً لإيميلي.

مشوار الذهاب إلى الكنيسة في الليلة المقدسة: كم غريب، ألا يسجد المؤمنون للإله القدير، طويلة جداً هي العِظة، ورتيبة هي التراتيل الجماعية. ومع ذلك تعجبها أضواء الشموع. إنها مجرد نصف مسيحية، ليست مؤمنة من كل قلبها، تظل هذه الفكرة تلاحقها حتى في المنام. كذلك تبادل الهدايا أمام شجرة عيد الميلاد جديد عليها، ومزعج. تفزع من معطف الفراء الذي يهديها هاينريش إياه. يقول إنه يفترض أن يدفئها؛ لكنها تحتج، إذ أن الفراء ليس مخلوقاً للبشر. لأجل خاطره

ترتدي المعطف، وتشعر بنفسها بداخله كالمسخ، لكنه بالفعل يحميها في الخارج من الصقيع، الذي يجعل نهري الإلبه والألستر يتجمدان.

التزلج على الجليد ليلة رأس السنة. في أكثر أحلامها غرابةً لم تكن لتتخيل أن تلك المساحة التي تنزلق فوقها السفن عادةً، تزدحم بالآلاف، الذين يتحركون عليها بلا هدف على زلاجات. يعيرها أحدهم حذاءً بزلاجات، لكنها غير ماهرة، تتعثر وتترنح، حتى أنها تسقط، فهي لا تثق بطبقة الثلج تحت قدميها.

يهطل الثلج مرتين أو ثلاثة، وتتعلم إيميلي، ما هي نُدَف الثلج، وكيف تذوب على كف اليد، وكيف تتكون آثار الخطى على الثلج. يصيبها السعال لبعض الوقت، فتتجرع شراباً مراً مضاداً للسعال. يطول الشتاء جداً، وحين تهل بشائر الربيع تلد طفلتها، أنطوني، وتختار لها طوقة اسماً ثانياً. لا يتعين على الأم إرضاع طفلتها بنفسها، فهاينريش يريد أن يحول دون إنهاك قواها. تجيء مرضعة إلى البيت، ترقب إيميلي حاسدةً إياها، كيف تعطي الرضيعة ثديها. لكن الآيام تصير أكثر متعة الآن، ولها محور واضح، يشكل نقطةً ساخنةً مرحباً بها. تصر إيميلي على الاستيقاظ وسط الليل، لتسلية الطفلة الصارخة، التي ما لبثت أن صارت ترضع من الزجاجة. أما خشيتها من أن يتكرر ما حدث مع هاينريش الصغير، فهي تحتفظ بها لنفسها؛ إنها لا تتحدث ولا حتى مع زوجها عن الأمر. لكن أنطوني قوية، فهي تنمو من دون مشاكل، وتشعر إيميلي ـ مع وجود الطفلة على ذراعها أو في العربة ـ أنها تصير مقبولة من العالم المحيط كله أكثر من ذي قبل. في الوقت نفسه تشعر أنها تنمو أكثر داخل الحياة الجديدة، تضرب بأول جذورها الرقيقة في الكثير من الأمور، التي بدت لها في البداية غير مفهومة، بل مثيرة

للاستياء. إلا لحم الخنزير ـ الذي يظل هاينريش يحاول إقناعها بأنه شهي ـ فهي لاتزال ترفضه؛ إن رؤية رأس خنزير، أو ذيل خنزير عند الجزار تسبب لها شعوراً بالغثيان. تحديداً لأنها بين الحين والآخر تعارض هاينريش، وتلقنه دروساً في اللوائح والقوانين، يصير شعوره باشتهائها أقوى. بفارق سنة بين كل طفل يأتي طفلاهما التاليان إلى الحياة، سعيد، وروزالي غادة، التي تنادى بروزا فحسب، الأطفال الثلاثة جميعهم من مواليد الربيع، مولودون في شهري مارس وأبريل. يضج المنزل المطل على نهر ألستر بضحكات الأطفال، وصراخهم، الذي يختلط مع نباح الكلاب وصياح الخادمات. خلال نزهة يوم الأحد يبدون مثل كل العائلات الألمانية من مدينة هامبورغ، التي تتمشى على شاطئ نهر الإلبه. طوني، كبرى أبنائهما تتحدث الألمانية؛ صحيح أنها تفهم بعض كلمات الدلال التي تقولها إيميلي لها باللغة السواحلية، لكنها ترد عليها بلغة الخدم ولغة أبيها. وقد كان الإخوة الثلاثة ـ كما يتذكر رودولف ـ يتحدثون فيما بينهم كذلك فقط باللغة الألمانية، إلى أن كان الأمر يتعلق خلال الرحلة إلى زنجبار، بأن يثبتوا لأمهم ببعض الكلمات والعبارات باللغة السواحلية، أنهم يريدون أن يجعلوا عالمها جزءاً من عالمهم هم أيضاً.

لدى هاينريش خطط مبهمة للعودة إلى زنجبار، لكي يوقف شركته ـ التي كانت قد انفصلت عن شركة هانزينغ وشركاه ـ على قدميها. لكن السلطان أوضح للقنصل الألماني، إن مثل هذه الخطوة غير مرغوب فيها، وأنه لا يستطيع أن يضمن سلامته ولا حتى يريد ذلك. قال إن رويته أساء لشعب زنجبار وعليه أن يتحمل عواقب فعلته؛ كان ظهوره مرة أخرى ليعرض حياته ـ بل وحياة الأوروبيين الآخرين ـ للخطر. أما

المسؤولون الألمان ـ هذا ما يتم إبلاغ هاينريش به ـ فهم يرونها إهانة، إن لم يأخذ هذه الظروف في الاعتبار. يكاد ذلك يعادل المنع من السفر. هل يجب عليه الالتزام بذلك؟ للوهلة الأولى تطير إيميلي فرحةَ بنيته؛ فإن تلك الكلمة، زنجبار، تصم آذانها عن كل الصعوبات التي لا يمكن التغلب عليها. كم كان ليسعدها أن ترى أبناءها ينشأون تحت النخيل، كم كانت لتفخر بأن تُريَ نفسها للرفيقات القديمات كأم! لكن خطة هاينريش لا تتضمن عودتها إلى زنجبار، كان ليسافر وحده، ويعود بعد ثلاثة أو أربعة شهور. يقول لها مقبلاً جبهتها: «لا يمكنك السفر كل هذه المدة بصحبة أطفال صغار هكذا، إنه أمر غير وارد على الإطلاق. كما أننا لا نعرف كيف يمكن أن يكون رد فعل ماجد لدى وصولك».

معه حق، وهذا شيء مرير؛ تنزلق إلى حالة عميقة من الانكسار، تجعلها ـ للمرة الأولى ـ تلزم الفراش. يقف هاينريش حائراً أمامها، يحاول أن يواسيها. عليه أن يدفن خطط سفره. ليس لديه خيار آخر، سوى أن يستأمن وكيله على تصفية أعماله التجارية هناك. يفعل ذلك دون رغبته، كما يتضح لاحقاً، بعد وفاته إثر الحادث، أن الوكيل كان قد غشه.

بالنسبة لإيميلي يعدّ بقاء زوجها في هامبورغ أمراً ضرورياً. وهي الآن رغم كل شيء تعيش لحظات سعادة غامرة مع أبنائها، لاسيما خلال فصل الصيف، أما فيما يخص التعاملات التجارية، فقد توصلت لحالة متوسطة من الرضا، تساعدها بين الحين والآخر على أن تبتسم ابتسامة حقيقية. ما يحدث يوم الثاني من أغسطس ١٨٧٠، يفقدها صوابها تماماً. حتى الآن لايزال رودولف ـ عندما يفكر في الخطابات

التي تركتها إيميلي بعد وفاتها - يتأثر بالفجيعة التي كانت في ذلك اليوم. إن استحضار أيامها الأولى في هامبورغ موجع بما فيه الكفاية؛ لكن ما يلي حادث هاينريش، أليم للغاية، لدرجة تجعل ابنها يغمض عينيه في مواجهة الصور التي تريد أن تتجلى له. لا شيء منها كان قد انطبع في ذاكرته، فقد كان صغيراً جداً، كان عمره سنة ونصف السنة. ومع ذلك يذكر حزن أمه، ووحدتها غير القابلة للعزاء، وشرودها العميق: لابد أن ذلك كان قد انعكس على الطفل الصغير. كثير مما كان يفعل، كان منذ البداية مشحوناً بالكآبة، التي لم يفهمها أبداً حقاً. من ناحية أخرى كان الأطفال تحديداً هم من منحوا إيميلي القوة، لتحمل الحزن والمذلة التي كانت تتعرض لها.

وقف، وأشعل ضوء مصباح المكتب. حزمة الصور الصغيرة توجد في درج آخر غير الذي كانت فيه علبة الأوسمة. يخلع عنها الرباط المطاطي، يقلّب نظره بين الصور مرة أخرى. رقيق جداً وجه سلمى، نظرة متسائلة إلى الصور، التي أُخِذت بناء على تكليف من هاينريش؛ إذ أنه أقنعها بأخذ صورة لها بالملابس الشرقية. فقد كان في نظر الطبقة العليا في هامبورغ (وفي نظر نفسه أيضاً؟) الرجل الذي غوى، بل غزى قلب إحدى الأميرات؛ كان لابد إذن من رؤية أنها كانت أميرة. كانت فخراً له، ولِمَ لا؟ وكان يحبها بإصرار، وبثبات، هكذا يتخيل الابن الأمر. ماذا كان ليصير بهذه الزيجة، لو كان هاينريش قد بقي على قيد الحياة؟ كلما كان يعاين سلمى الشابة، كان رودولف يتأمل كذلك الصور اللاحقة، التي تركتها له أختاه. «كنت طيلة حياتها المفضل لديها». - قالت روزا ذلك موجهة ملاحظة لاذعة له بوضوح، حين كانوا يقسمون التركة فيما بينهم. - «خذ ما شئت». كم يمكن للوجه أن يتغير! آخر

صورة من العام ١٩١٦: الملامح هزيلة تقريباً، شيء من الإذعان العميق في تعبير الوجه، الجبهة المرتفعة، مؤطّرةً بالقبعة الداكنة. الصورة ذات الحافة المتعرجة تنزلق منه، تسقط على حجره. من الذي صوّرها أصلاً؟ طوني في برلين؟ هو حتى لا يعرف. يتحسس صدره، سوف يزول الوخز، عندما يتنفس يشهق ويزفر. لم يقل الطبيب شيئاً خطيراً بعد الفحص الأخير. إلا أنه نصحه بتفادي المجهودات الكبيرة. ينظر رودولف إلى ساعته: حان الوقت، لارتياد قاعة الطعام.

١٢

إذا ما قررت يا أخي، أن تتصالح معنا، فسوف يُسرّ الحاكم الألماني وأسرته لذلك، لاسيما زوجة ابنه فيكتوريا، ابنة ملكة إنجلترا، فهي تقف في صفنا بإخلاص. حين أزورها، تسألني دائماً، إن كنتَ لاتزال غاضباً مني، وحين يتعين عليّ أن أردّ عليها بالإيجاب، يكون حزنها عميقاً.

مخطوط على الآلة الكاتبة بيد أنطوني برانديس رويته، باد أولدِسلوَه، كُتب في مارس عام ١٩٤٥، تم العثور عليه في منزلها المحطم.

الصفحات الأولى مفقودة... لم يكن برانديس ليصدق ما يراه. نحن جميعاً كنا عندما بدأت الحرب لنأبى أن نصدق أن صور المدن المدمرة تلك حقيقية. أما برانديس، المحافظ السابق لإحدى مستعمرات منطقة جنوب المحيط الهادئ، المتوفى قبل خمسة عشر عاماً، كان ليصير نازياً مخلصاً بِعمَى، وكان ليبقى كذلك حتى حلول النهاية المرة. أنا نفسي ظللت لفترة طويلة جداً مقتنعَة بالقوة المباركة للثقافة الألمانية، التي تودّ أن تقود الشعوب الأخرى إلى طريق أفضل. لكنني كنت أرفض العنف، ولا أنسى، كم زجرني برانديس كثيراً بسبب ذلك على ضعفي.

كنت أعتقد ـ بعد العودة من جالويت ـ أنني وجدت في الرابطة النسائية للمجتمع الاستعماري الألماني، أشخاصاً لهم نفس التوجه، بين النساء الفطنات، اللائي أردن تحسين الأوضاع الصحية، والعادات الغذائية الضارة، وتأسيس المدارس والمستشفيات. توليت بعض المهام في مجلس الإدارة، وكان كتابي عن الطبخ للمناطق الاستوائية قد فتح لي الباب من أجل ذلك. وقد شاركنا في عام ١٩١١، بجناح خاص بنا في معرض الصحة الدولي في دريسدن، وبعدها بعام في معرض «المرأة في البيت والعمل»، حيث أقمنا مطبخاً ملائماً للمناطق الاستوائية، في إحدى الخيمات، وصورنا وكتبنا الواجبات التربوية لزوجات مسؤولي المستعمرات على لوحات كبيرة. كان المعرضان انتصارين كبيرين، وقد بلغ عدد الزائرين عشرات الآلاف. ومع ذلك فإن براندايس ـ وكنا نعيش في برلين آنذاك ـ كان يسخر من عملي كناشطة، على حد وصفه. كانت سخريته تنم عن شعور بالمرارة، فقد كان التقاعد القسري قد أفقده صوابه. لم يكد يعرف ما الذي عليه أن يفعله بوقته. صار يتنمر للبنات ولي على الدوام. أما أنا فقد أخذ يصورني بوضوح على أنني عدوته. في كل مناسبة كان يشتكي بشأن الظلم الذي يدّعي أنه وقع عليه. طردوه ببساطة خارج الخدمة! بينما كان ـ بالعقوبات الغليظة التي فرضها على سكان الجزيرة ـ يقوم بتنفيذ قانون العقوبات الألماني فحسب. كنت أفهم الأمر بشكل مختلف، لكنني ـ بعد بضعة مواجهات عنيفة معه ـ صرت أنأى بنفسي عن معارضته. أكثر ما كان يؤثر في براندايس هو أنه عند خروجه من منصبه، لم يتم منحه ولا حتى وسام استحقاق. كان يراجع قائمة أسماء الحاصلين الجدد على الأوسمة، التي كانت تنشر في الصحف، بصيحات ساخطة. في الليل كنت أسمعه في الغرفة المجاورة أحياناً يلعن بشلال من الكلمات القيصر والإمبراطورية القيصرية. ومع

ذلك فقد تقدم للخدمة متطوعاً بلا تردد حين اندلعت الحرب. كان فيلهيلم الثاني قد أكد إنه لم يعد يعرف أحزاباً، بل فقط ألماناً. وقد كان هذا الرباط المقدس تحديداً هو ما يشعر براندايس تجاهه بالانتماء. هو، المحارب القديم، كان يودّ أن يناضل من أجل بلاده على الجبهة، وسط دخان البارود، وسط وابل القذائف. ربما طافت بمخيلته فكرة أن يسقط بشرف، فيمحو بذلك العار الذي كان يثقل عليه. لكنهم أرسلوه إلى المرحلة، التي لم يكن عليه فيها سوى أن يحسب قوة تسليح الوحدات المختلفة. وقد أخجله ذلك بشدة. عندما كان يعود للمنزل في العطلات، كان يتحاشى الحديث عن الأمر. لكنه اعترف لي في لحظة ضعف، كم يكلفه من طاقة، أن يؤدي واجبه من خلال تلك الوظيفة الدنيئة. بدا عليه السن سريعاً، لاعجب في ذلك بعد الإقامات الطويلة في المناطق الاستوائية. صارت يداه ترتعشان أكثر فأكثر، ولم يكد يستطيع إخفاء ذلك. بعد بضعة شهور تم نقله إلى خدمة البريد، إذلال جديد من وجهة نظره؛ لم نعرف أبداً إذا ما كان قد مارس الرقابة على الخطابات المرسلة للجبهة، أم أنه كان فقط يعيد إرسال الطرود التي ضلت طريقها، على الطريق الصحيح. عندما انتهت الحرب، عاد نهائياً إلى البيت، فلم يعد هناك مجال لخدماته. كان وقتئذٍ قد بلغ الاثنين وسبعين عاماً، ويبدو كأنه في الثمانين، بوجنتين متهدلتين، ونظرة خامدة، ومشية غير واثقة بساقين متباعدتين. باستمرار كان يبحث عن الشجارات المتذمرة، والضاجّة بين الحين والآخر معي. لم يكن يهمه، بم يتعلق الأمر، سواء كان بوعاء معيّن يُفترَض أنني غيّرت مكانه، أم باستهزائه بمدرسة نساء المستعمرات في رندسبورغ، التي قضيت سنوات طويلة في هيئة الإشراف والرقابة عليها.

«لقد فقدنا كل المستعمرات على أية حال!» ـ كان يزعق ويعض على

عود كبريت ـ «ماذا يعني إذن كل هذا الجهد لإعداد بنات العائلات الكبيرة للعيش في المناطق الاستوائية؟ إنه لأمر مضحك!»

أرد عليه بأن تعليم النساء يخدم قضية تفاهم الشعوب؛ وإن مهاراتهم يمكن استخدامها في كل مكان في المناطق الاستوائية.

«تفاهم الشعوب!» ـ يقول مستهزئاً ـ «أتؤمنين حقاً ببابا نويل؟»

بدلاً من أن أجيب، غادرت الغرفة في صمت. أما الضحكات التي أرسلها خلفي فقد بدت بائسة. إلى هذا الحد كانت انتصارته قد صَغُرت في تلك الأثناء.

خلال كثير من ليال السُّهد، كنت قد انفصلت عن ذلك الرجل، ولم أكن أجرؤ على المساومة. كانت ابنتاي تقفان في صفي، لكنهما كانتا تخشيان ـ مثلي ـ الفضيحة والعزلة الاجتماعية، التي يجلبها الطلاق معه. حتى إيميلي، التي كانت قد تبينت وضعي بالفعل مبكراً، نصحتني بالتحمل: فإن برانديس الذي يكبرني بعقدين سوف يموت قبلي، حينئذٍ ستكون بانتظاري عدة سنوات من الحرية. كان هذا الاحتمال غير مؤكد، كما أنه لم يعزيني.

حين كانت البنتان في عام ١٩٢٠ قد غادرتا البيت، طلبت من برانديس بعد شجار بغيض الانفصال ـ لكن ليس الطلاق الرسمي، وقد جعل هذا مطلبي يبدو أقل تشدداً. سار محمرّ الوجه من شدة الغضب، مرة أخرى لم يكن ينقص سوى القليل، لكي ينقض عليّ. غير أنني في تلك الأثناء كنت قد صرت أقوى منه بدنياً، أعتقد أنني كنت لأرد له الضربة. في اليوم التالي حضر إلى مائدة الإفطار محنياً ومنهكاً. همهم بأنه موافق، دون أن ينظر لي، وأنه سوف يستقر في زيكينغن، في موطنه الأصلي بجنوب ألمانيا. قال إن لديه أقارب هناك، يمكنهم أن

يرتبوا له مسكناً. كما قال إنه سوف يستقطع جزءاً من معاشه بما يكفي لنفقات معيشتي. أثّر فيّ هذا التنازل من طاغوت البيت. كانت هاتيك الليلة على مايبدو كافية، لتكشف له عن أننا معاً سوف ننتهي إلى الخراب.

بعد أسبوعين كان قد رحل. لم أكن أكاد أصدق، لقد اختفى من حياتي، كأنما لم يكن موجوداً أبداً. كما أنه التزم بالفعل بكلمته، فيما يخص النقود. كنت ممتنة له لذلك واندهشت، إذ كان يرسل لي كل عام بطاقة معايدة مهذبة بمناسبة عيد ميلادي، تماماً كما لم ينس أبداً إرسال هدية لبنتيه. انتقلت من برلين إلى هامبورغ ولم أره مرة أخرى، لكنني ذهبت بعد عشر سنوات من انفصالنا، في ديسمبر ١٩٣٠ لحضور جنازته؛ كنت مدينة له بذلك رغم كل شيء. كذلك البنتان اللتان حافظتا على قدر مناسب من التواصل مع أبيهن، كانتا حاضرتين، وكبراهن بصحبة زوجها. كانت جريتشن قد صارت مارجاريتا. وكانت قد تزوجت باروناً حقيقياً، صاحب قصر، وقد هاجرت معه بعد بضعة سنوات إلى الولايات المتحدة الأمريكية. كنت آنذاك بالفعل قد صرت أشعر بالاغتراب عنها، بينما كانت يوهانا لاتزال مقرّبة إليّ.

كان يوماً بارداً من أيام شهر ديسمبر، حين تجمّعنا مع المشيعين حول القبر. لم تذرف عيني الكثير من الدموع على الميت؛ بل كانتا قد احمرّتا على الأكثر بفعل الريح، التي كانت تحمل معها بعض نُدَف الثلج. كل من جاء من عشيرة براندايس، كان يحاول أن يتجاهلني. بيد أن البارون الواقف إلى جوار مارجاريتا بمعطفه الصوفي الفاخر، كان ملفتاً للنظر. ذهبنا معهم إلى مأدبة المأتم، من دون أن تتم توجيه دعوة صريحة لنا؛ مثل هذه الحريات كنت حينئذٍ أنتزعها بنفسي. أحد

الأقارب البعيدين ـ وكان يرتدي الزي الرسمي لكتيبة العاصفة[1]، ويجلس على الطاولة المجاورة ـ حكى لنا بلهجته الألمانية الجنوبية الغليظة، إن براندايس كان قد تابع صعود حزب العمال القومي الاشتراكي الألماني، وهو لايزال بكامل قواه العقلية، ووضع ثقته في هيتلر، لتخليص ألمانيا من اليهود ومن الشيوعية. إلا أنه في السنتين الأخيرتين كان قد ضعُف، وخلط الكثير من الأمور ببعضها، حتى صار في النهاية يثرثر فحسب. تدخلت زوجته في الحديث: في دار المسنين ـ ذكرت أنها تعرف ذلك من مصادر موثوقة ـ كان براندايس أحياناً في الليل يتوهّم أنه في منطقة جنوب المحيط الهادئ، فينادي عليّ: «طوني، طوني!»، وكان صوته يصل إلى الشارع. قالت، متفحصة إياي بنظرة مرتابة، إنني لابد أن أكون رغم كل شيء كنت أعني لأويغن المسكين الكثير. وقد أصاب ذلك نقطة ضعف في نفسي. ربما لم أكن فعلاً قد بذلت الجهد الكافي، لكي أرى في براندايس ذلك الرجل التواق للحب الذي يعاني من الوحدة. عاد يجيء ويروح في أحلامي، وكان المكان دائماً جالويت. ذات مرة مد لي يده، كانت عليها أسنان صفراء ساقطة، وحين ضحك بكآبة، أظهر لي ـ وهو ما بعث الفزع في نفسي ـ فماً خالياً من الأسنان. في مرة أخرى كان يلاحق دجاجة بخطى متبخترة، وقد نجح في القبض عليها، وليّ رقبتها. ثم رماها في الهواء، وقد طارت مبتعدة برقبة ملوية. ثم ضحكاته مجدداً، ساخرة وتعيسة في آن؛ هذه الضحكات، لم أستطع التخلص منها أبداً.

---

(١) كتيبة العاصفة: هي الجناح شبه العسكري للحزب النازي. وعادة ما تختصر بالـ«إس.أ» (SA) وقد لعبت دورا رئيسيا في صعود أدولف هتلر إلى السلطة في ١٩٢٠ و١٩٣٠.

حين مات وقتئذ، كنت أسأل نفسي كثيراً، لماذا لم تنمُ مودّة حقيقية بيني وبين براندايس؟ هناك أسباب كثيرة لذلك، لكن السبب الأعمق لا يتسنّى له أن يتجلى. هل يجب أن أسميه القدر؟ كنت ـ وهذا ما كان يشعرني لاحقاً بالخجل ـ أتمنى في بعض الأحيان موته. بينما كانت أمي في المقابل، تعدّ موت زوجها في حادث، مأساةً. صحيح أنها ربما كانت لاحقاً ترسم صورة مثالية لهاينريش، وتجمّل بعض ما كان بينهما من المصاعب؛ لكن هذا الثاني من أغسطس ١٨٧٠ ـ حيث كانت الحرب الألمانية الفرنسية قد بدأت لتوّها ـ قذف بها إلى أقصى درجات القنوط. لقد حاولت مراراً هذه الأيام، أن أتخيّل موقفها آنذاك، وأن أقترب من البلبلة العاطفية التي أصابتها، ربما كذلك لأنه ربما لايزال بالفعل بداخلي ـ على عكس ما كنت أظن لفترة طويلة ـ ظلاً من الذكرى. الآن عاد يمسني من جديد.

بعض الصفحات ناقصة أو سوّدها الهباب... ترقد إيميلي في فراشها مصابةً بالحمّى، بينما هي في سبيلها لفطم روزا التي تبلغ أربعة شهور، بعد أن كانت قد أرضعتها رغم كل شيء. توضع لها كمادات الثلج. أخبار الحرب تجعلها في شقاء كامل، أما الهتاف الحماسي والتهليل في الشارع فهي لا تستوعبه. كيف يمكن لمسيحيين أن يزحفوا ضد مسيحيين؟ أريد الاقتراب منها، من أمي، لكن مربية الأطفال تمنعني. لكنني أنا وسعيد نحصل رغم ذلك على قبلة قبل النوم، فقد كتبت ذلك لاحقاً في خطاباتها التي لم تُرسَل أبداً، وفجأة يُهيّأ لي أنني أستشعر تلك القبلة على وجنتي. كان هاينريش قد استقل الترام ذو الأحصنة في ساعة متأخرة من بعد الظهيرة، لكي يزور والده المريض، جدي، الذي يبدو لي دائماً شديد الصرامة. والآن تنتظر إيميلي عودة هاينريش، التي تظل تتأخر أكثر فأكثر. كل صافرة من صافرات انطلاق السفن البخارية المارة

في نهر ألستر تجعلها تتحطم. يبقيها الخوف مستيقظة. يحل الظلام، تمر ساعة بعد ساعة، ولا تستطيع مربية الأطفال كذلك تهدئة إيميلي. في منتصف الليل أو بعده بقليل، يقرع شخص ما جرس البيت. تفتح الخادمة باب البيت، غمغمة، خطوات مترددة، ليست خطوات هاينريش، صوت غريب. تستجمع إيميلي قواها، وتنهض، تنحني وهي في ثياب نومها من فوق درابزين السلّم، تنادي على زوجها. ألا يرن هذا النداء المتوسل: «هاينريش، هاينريش» في أذني حتى الآن؟ تقاوم إيميلي الخادمة التي تصعد السلم إليها وتحاول الإمساك بها، فهي تريد أن تخرج، إليه، لأن شيئاً بشعاً كان قد حدث، أصبح الأمر الآن جلياً. يسد عليها رجل الطريق، يقول إن هاينريش مايزال على قيد الحياة، عليها أن تتماسك، فهو طبيب. يستمر في حديثه إليها، يكرر كلامه، وأخيراً تفهم: في طريق العودة إلى البيت بالترام ذو الأحصنة، كان هاينريش قد قفز مبكراً وسقط، كانت الإطارات قد دهسته وتسببت في جرحه. استجمع قوته، وتوجه إلى إحدى العربات، وذهب بها إلى أقرب مستشفى. يقول إنه تم تضميد جراحه، وقد طلب من الطبيب أن يبلغ إيميلي شخصياً، وهذا هو ما فعله الآن. تريد أن تعرف مدى خطورة الجروح، قالت له إنه لا يجب أن يخدعها. يراوغها الطبيب، وهو ما لا يمكن أن يعني شيئاً آخر، سوى أنه لابد من الخوف حقاً على هاينريش. تفقد كل سيطرتها، تصرخ: «أريد أن أراه. لنذهب إليه!»

يحذرها الطبيب: «فلتتعقلي، ياسيدتي. في هذه الساعة المتأخرة، سوف يتم منع دخولك المستشفى».

فقاطعته: «كلا. لو لم تأخذني معك، سوف أذهب سيراً على الأقدام. وإذا لم يدعوني أدخل، فسوف أنتظر طوال الليل أمام باب الدخول».

كنت قد أدركت شيئاً من ذلك الأمر أيضاً، يقال إنني كنت قد بدأت أبكي، لكن أمي ليست في حالة تسمح لها أن تنتبه لذلك. إنها تستجدي، وتتوسل، تتوعد بألمانيتها اللكناء، وتمزجها بحشد من الكلمات بلغتها الأم، حتى يوافق الطبيب على اصطحابها معه، لكن يقول إن عليها أولاً أن تبدّل ملابسها. تساعدها الخادمات على ارتداء ملابسها، فيداها ترفّان، بل إن جسدها كلها يرتجف. ولا زراً واحداً - هل أرى ذلك فعلاَ أمام عيني - تستطيع أن تقفله بنفسها؟ ثم الطريق إلى المستشفى، الذي يبدو لها لا نهائياً. والمدينة تبدو كالميّتة، تتأرجح المصابيح وسط الريح، تردد لنفسها بلا انقطاع، كأنما كانت تلك تعويذة: «لا يمكنه أن يموت! لا يمكنه أن يموت!» عليها الانتظار في بهو مدخل المستشفي، طويلاً جداً مرة أخرى، حتى يظهر مفتش الصحة العامة. يوضح لها أنه في المستشفيات تسري قواعد مواعيد الزيارة، يكون حتى على أهل المريض الالتزام بها. لكن إيميلي تحتج: كم هو أمر غير إنساني أن يفصل بينها وبين زوجها، إنه بحاجة للمواساة، وللرعاية! تتولى ممرضتان التعامل معها، تودّان تجريعها شيئاً مهدّئاً. لكنها ترفض ذلك، تسير في الرواق جيئةً وذهاباً، تسب وتلعن بلغتين أو ثلاثة، تنتف شعرها، وتبكي بصوت مرتفع، لدرجة تقطع قلوب كل الذين كانوا في تلك الأثناء قد تجمّعوا. يدرك مفتش الصحة أن إيميلي لن يمكن التخلص منها سوى بالعنف. متأثراً بحالة اليأس التي تنتابها، يؤكد لها، أن بإمكانها رؤية زوجها لمدة ربع ساعة، بعد أن يكون الطبيب الجراح قد فحصه، وضمد جراحه، لكن ذلك بشرط أن تبقى متماسكة، وألا تثقل على المريض. حينئذٍ تهدأ فجأةً، وتتعهد باتباع هذه التعليمات، تجلس وتشرب الماء، الذي يتم تقديمه لها. مرة أخرى يتمدد الوقت ليصبح لا يطاق، حتى يصل الجراح، الذي كان

يتعيّن إيقاظه أولاً. يستغرقِ الأمر المزيد من الوقت، حتى يخرج من غرفة الفحص بملامح منعقدة، يلوّح بإشارة إلى مفتش الصحة، ويتهامس معه لبعض الوقت. فيمَ يتفاوضان؟ لماذا لا يقال لها بصدق ما هي حالة هاينريش؟

الساعة الثالثة صباحاً، عندما يتركونها تدخل إليه. الغرفة سيئة الإضاءة، وهي لا تكاد تراه. كل هذه الروائح العجيبة. يميّز وجهها، ويسلّم عليها، بصوت خفيض جداً، باللغة السواحلية، بصعوبة تتمالك نفسها. نعم، يقول إنه يشعر بآلام شديدة، وإن صدره منطبق. الذراع المهشَّم موضوع تحت الغطاء. تأخذ يده السليمة، تمسك بها، حتى ينذرها المفتش، لكي تترك هاينريش ينام. غير أنه يقول إنه سيسمح لها بمرافقة زوجها بدءاً من الغد، وسوف تُخصص لها غرفة مجاورة لغرفته. إن هذا الاستثناء لا يتم إجراؤه سوى لسيدة من الشرق.

يالها من ساعات! يالها من أيام! يتم اصطحاب إيميلي إلى المنزل، لا تطيق البقاء في غرفة النوم، تقضي ما تبقى من الليلة، متلفحةً بغطاءٍ، في الشرفة، وترقب مرتعشةً النجوم تأفل. تصلي لإله الإنجيل، لإله القرآن، أو لكليهما، ماذا يهم ذلك؟ مع حلول النهار تنتظر بالداخل أن يستيقظ الأطفال، تعانقهم دامعة. هنا أيضاً تظهر وسط الأشياء المنسية ذكرى باهتة: تضمني أمي بشدة إليها، بقوة تجعلني أنا وسعيد كذلك نبدأ في البكاء. وجهها متغير تماماً. شيء سلبي يوجد بالغرفة، شيء قاتم، يأتي من جهتها، من جهة أمي، أضرب بقدمي، أفلت منها، أدس وجهي في بطن مربية الأطفال المغطاة بالمئزر. إيميلي على الطريق مرة أخرى إلى المستشفى، تحكي ذلك في خطاباتها. الإنتظار في الرواق، حتى يتم تطبيب هاينريش مرة أخرى، ثم منظره في ضوء النهار. جرح في الجبهة، وجرح في الجمجمة، إحدى أذنيه مقطوعة، دم جاف في

كل الأنحاء. الأسوأ حالاً حسبما يقول الطبيب هو محيط الصدر، الأمل ضعيف. لكن الأمل ـ كما تقنع نفسها ـ يكمن في أن هاينريش قد زالت عنه الحمى في ذلك اليوم الثاني، يتحدث معها بهدوء، بينما يتخلل ذلك فترات استراحة طويلة. يسألها عن حال أبنائهما، وعما إن كان في البيت ما يكفي من الزاد والزواد، وعمّا يزهر من النبات في الحديقة. ترغم نفسها على الإجابات، التي تبدو عابرة مثل أسئلته، تهش الذباب من على سريره بمروحة يدوية من زنجبار. كلاهما لا يأكلان أي شيء خلال ذلك اليوم، لكن لابد من إجبار هاينريش على الشرب. مع حلول المساء تأتي الحمى، يبدأ في تخيل أشياءً، يعطي بعض الأوامر، كأنه في مكتب المحاسبة الخاص به. في ظل هذا الوضع لا يعود يسمح لإيميلي أن تبيت هنا. لقد فقدت الأمل في الكفاح ضد قواعد المستشفى، إنها متعبة، وتريد الحفاظ على قواها.

تقضي تلك الليلة في المنزل في غرفة الأطفال، اتخذت لنفسها مرتبة، فرشتها بين أسرة الأطفال. نحن الثلاثة كل ما سيبقى لها، وربما كنت قد أدركت، كم هي بحاجة إلينا، شعرت وسط النوم، كيف تمرّ شفتاها على وجنتي، وكيف تلمس يدها جبهتي.

تستأنف عملية الاستشهاد مجراها، تحوّل بين تفاؤل متنام، وفزع جديد. في الصباح التالي تبدو حالة هاينريش أفضل، يتصاعد في نفس إيميلي وهم التعافي المحتمل، تريد أن تأخذ المريض المصاب بالجراح الخطيرة إلى البيت، حيث كل شيء مألوف له. يحظر الأطباء ذلك، بل إنهم لا يسمحون لها حتى بقص لحية هاينريش المخضبة بالدماء الجافة. في المساء تسوء حالته على نحو سريع جداً، يتم إخراجها، وحين تعود ثانيةً، تكون القرح قد ظهرت على الجروح. تحوّل لون الأطراف الجريحة إلى الأزرق، يتم توضيح الأمر لها، إذ أنه في طريقه إلى

النهاية. يتحدث هاينريش حديثاً مشوّشاً، يظل يريد النهوض، يتعيّن أن يقوم ثلاثة ممرضين بتوقيفه. يتم صرفها مرة أخرى، تلعن انعدام إنسانية إدارة المستشفى، تصلي في المنزل راكعة على ركبتيها، راجيةً أن يتخلص هاينريش من عذاباته. مرة أخرى - إنه اليوم الرابع - يتعرف عليها، ويطلب منها الكرز الطازج، لكنه غير متوفر في بدايات شهر أغسطس، ثم يفقد هاينريش الوعي بعد ذلك مباشرة. لا تستطيع سوى أن تقطّر جبينه الساخن بماء الكولونيا.

يموت في ساعة مبكرة من المساء، تحت ناظريها، وقد استحقت ذلك على الأقل. تتشبث به، حين تقوم الممرضات بتغسيله، وتكفينه. تريد أن تندبه، أن تبكيه، كما هي التقاليد في زنجبار. لكن هذا لا يصح هنا، كما يقال لها، وهو غير مسموح لها لأسباب صحية أن تبقى لدى الميّت. ترفض أن ترفع يدها عنه، يتعيّن جذبها بالقوة لإبعادها عنه، وحتى مفتش الصحة الذي يتولى الحديث إليها، لا يستطيع أن يخفف غضبها وحسرتها.

يتم تحديد موعد الدفن، من دون أخذ رأيها، بعد ثلاثة أيام من الوفاة، تستسلم لكل القواعد الغريبة عليها مغلوبةً على أمرها. هل لي أن أتعجب، حين تكتب أنها كانت تتمنى مصيبة تحل عليها هي وأبنائها، فتقضي عليهم؟ هل هو خيال إن كنت أرى أمي فجأة أمامي، وهي تصعد وتنزل على درج البيت، تنادي على أبي: «هاينريش، هاينريش!»، وأنا أتبعها باكية، رغم محاولة مربية الأطفال أن تمنعني من ذلك؟ أجل، إنني أرى أمي أمامي، تشدّ معطفاً من المِشجب، ترميه على الأرض، ثم تعود تعلقه مرة أخرى، تأخذ إحدى القبعات، تقذف بها بعيداً، وتصرخ بصوت عالٍ. أما كيف تخطت هذه الليلة، فهذا ما لا أعرفه. الصلوات غير مجدية. لم يأت الرب بمعجزة، وهي تظل

تخوض معه في ذلك طويلاً. إنها الآن وحيدة، بلا وطن في بلاد تبدو لها عدائية، وباردة حتى في الصيف. أما الرجل الذي كان حبيبها، ومترجمها، وحاميها، ومحور حياتها، فقد تركها. يسطو عليها الحنين للوطن في هذه الليلة بأقصى قوة. ملوّعة هي ذكريات زنجبار. الضوء، والدفء، والجَرْس المألوف للغة، وضحكات الأخوات متعددة الأصوات. ألم يكن كل ما فعلته خاطئاً؟ هي، المرتدة، الخائنة في عيون كل من تركتهم خلفها. لو لم نكن نحن، الأطفال الثلاثة، لم يكن ليوجد سبب للتردد، كانت لتنطلق بين ساعة وأخرى، عائدة لبلادها، كانت لتعود مسلمةً، لأنها على أية حال لن تصبح شيئاً آخر سوى نصف مسيحية.

يوم الدفن يتم إحضار النعش المُمسمر إلى المنزل. ليس مسموحاً لها أن تفتحه، لكي تودّع الميّت، هذا محظور كذلك في هامبورغ، وبالمثل لا يستمع أحد إلى رغبتها في أن تركب معه عربة الموتى. فإن فيها الرجال، والقس، والحانوتي، وأخا زوجها المتشدد يوهان، وهم يعرفون ما يجب فعله. هكذا تسير وحدها، وتتبعها بعض العربات التي تجرها الأحصنة، مع المشيعين، تحت رذاذ المطر، إلى جوار العربة، طوال الطريق البعيد إلى مدفن أولسدورف، حيث توجد مقابر عائلة رويته. يشفق القس عليها، يفسح لها مكاناً في عربته، فتقبله أخيراً بعد أن أغرقتها المياه حتى جلدها.

تتشبث بالنعش نائحةً، قبل أن ينزلوه في الحفرة، يُنسب هذا الانفلات العاطفي إلى كونها امرأة شرقية. في طريق العودة تكون في حالة ما تشبه الضباب؛ في البيت ترى كل شيء كأنه ميّت، رغم أننا نحن الأطفال ننتظرها، بينما ألبستنا ليوني ملابس أشبه بملابس الحداد. هل فتحنا أذرعنا لها؟ هل بكينا؟ إن حجم حزنها أثقل علينا كذلك، كما

ظلل حياتنا، طيلة سنين. بالنسبة لها كنا نحن نمثّل عبئاً خلال هذه الأيام. في أعماقها ندمت فيما بعد لأنها كانت تحس بذلك، وقد شعرت ببعض وخز حين قرأت هذه الجُمل في الخطابات التي تركتها.

بالتدريج بدأت تقف على قدميها، وتجد الطاقة لكي تلتفت إلينا. عرفت أن أبناءها هم من كانوا يبقونها على قيد الحياة. لأجل خاطرنا ـ وخاطر المتوفى ـ بقيت في ألمانيا؛ ارتأت أن من واجبها، أن نعيش في بلد أبينا. هذا كله، بينما كان شعور جديد بالزهو بالنصر القومي يكتسح المعركة بين بروسيا ومنافسيها. ازداد اليقين بأنه بعد النصر في معركة سيدان وأسر نابوليون الثالث، سوف تتم إقامة دولة ألمانية موحدة. لم تقحم إيميلي نفسها في تلك الشؤون كثيراً، كان عليها التعامل مع وضعها المفاجئ كأرملة. ثم جاءت الضربات التالية. عرفت إن الأرامل في هامبورغ يوضعن تحت الوصاية، ويحرمن من حقهن في التصرف في الثروة. اعتبر الوصيّان اللذان حصلت عليهما أنه ليس من الضروري إبلاغها بحجم رأس المال، الذي تركه هاينريش؛ أقروا لها راتباً شهرياً ثابتاً يمكنها التصرف فيه. ثم اتضح أن شركة زوجها كانت مهددة بالإفلاس جراء اضطرابات الحرب. بالإضافة إلى ذلك جاء الشك المُلحّ، في أن أحد الوصيين كان قد ارتكب جرائم اختلاس، وزيّفها بطريقة ماهرة. هل كان هو ذلك الغليظ الرقبة، ذو الابتسامة الصفراء، الذي كان يحملني كلما جاء لزيارتنا؟ دافعت إيميلي عن زوجها في مواجهة ادعاءات هذا الرجل، الذي زعم أن المتوفى كان قد خسر جزءاً من ثروته في البورصة بعد عودته من زنجبار. هاينريش؟ مضارب في البورصة؟ لم يكن ذلك ممكناً، لم يكن ليسمح لنفسه بذلك؛ ولكن إذا ما كان كذلك أم لا، فهذا أمر لم يُحسَم أبداً. كل هذا زاد من نكبة إيميلي. فقد كان ذلك يعني بالفعل إن عليها أن تحدّ كثيراً من نفقات

عيشها؛ لم يعد ممكنا الاحتفاظ بالبيت المطل على نهر ألستر بما فيه من خدم على المدى الطويل. لكن حينئذٍ استيقظ حس المقاومة لديها، تكتب إنها عرفت مرة أخرى بم كان الأمر يتعلق: إنها مصلحة الأبناء، مما كان يعني كذلك إرجاءً جذرياً لاحتياجاتها الشخصية. مع اقتراب نهاية حياتها، كان هذا الإيثار، الذي كان يحلو لها التأكيد عليه، يشعرني بالريبة. كنت أقدّر روح المقاومة لديها، حين كان الأمر يتعلق بميراثها؛ لكنها لم تكن تناضل فقط من أجلنا، بل دائماً كذلك من أجل وضعها كأميرة، والذي كانت قد خسرته بإرادتها. لم أكن لأجرؤ على لومها على ذلك أثناء حياتها؛ لايزال الأمر حتى الآن ـ بعد عشرين عاماً على وفاتها ـ يتطلب مني الكثير من الجهد لكي أسمح لنفسي بالانخراط في مثل هذه الأفكار المتهرطقة. لا أعتقد أن أخوتي كانوا ليسامحونني على ذلك. حتى لو أن لو كانت لديهم أفكار مشابهة.

صفحة غير مقروءة عليها آثار حروق... ولم يلبث يمضي شهران على وفاة هاينريش، حتى بلغها خبر أن السلطان، أخاها غير الشقيق ماجد، قد توفّي فجأة. مع ماجد، الذي كان الأخ الحامي لها أيام الطفولة ـ هكذا صوّرت الأمر لنفسها ـ كان التصالح ليكون ممكناً. أما مع برغش، الذي خلفه على العرش، فقد تراجع هذا الاحتمال، حتى وإن كانت لاحقاً قد أقنعت نفسها، أنه ربما يلين لصالحها. بعد محاولته الانقلاب على ماجد، كانت قد تبرّأت منه، وهو لم ينسَ ذلك أبداً. حالة الوفاة الجديدة أعادتها مرة أخرى إلى ذلك الجدب الروحي، الذي كان هاينريش قد خلفه وراءها (هذه كلماتها هي). يبدو أنها هربت في اليوم التالي. وجدها الناس إلى جوار المياه، بالقرب من محطة البواخر، كانت تقول: «إنني غريبة هنا»، وظلت تردد هذه الجملة. تمت إعادتها، وأعطاها الطبيب دواءً مضاداً لصداعها غير المحتمل.

كانت أحياناً تحبس نفسها معنا نحن الثلاثة في غرفة الأطفال، كانت تتطلع فينا في صمت، لم تكن تتحرك، عندما كانت روزا، أصغرنا، تبكي. أعتقد أنني كنت أنا التي تحاول مواساة الأخت الصغيرة، كنت أنا من تجفف دموع أمي. لم تكن تدع مربية الأطفال تدخل، سوى حين يصير الطَرْق على الباب عاصفاً.

بدأ الانحدار التدريجيّ - والمستتر على نحو جيد - إلى الفقر، بدأت مرحلة الانتقالات من سكن إلى آخر، شبه ملحمة، انتقلت بنا من مدينة إلى أخرى، ومسكن إلى آخر أصغر فأصغر وأسوأ حالةً. لم أعاني كثيراً كطفلة في ظل الأوضاع المعيشية البسيطة؛ ما كان يتعبني حقاً في كل مرة، هو افتقاد الألفة تجاه الأماكن المختلفة، ووداع الجيران والمعارف، الذين أكون قد تعودت عليهم. لحسن الحظ بقيت لنا أمنا. حتى وإن كانت في بعض الأحيان تغرق في كآبتها، وحتى وإن كان قد تعيّن علينا نحن تقويمها على طريقتنا الطفولية بدلا من أن يحدث العكس، فإن محبتها كانت هي إكسير الحياة بالنسبة لنا. ومع ذلك فقد حدث أكثر من مرة أن كنا على وشك أن نفقدها هي أيضاً، ولا أعرف ماذا كان ليكون مصيرنا حينئذٍ. كان قلبي يخفق عندما قرأت الفقرات التي كانت تتحدث عن الانتحار في خطاباتها؛ يحتمل أن يكون تأثرها بالمعتقدات الإسلامية هو الذي أنقذها، من الاستسلام لرغبة الموت، التي كانت في تلك الأيام تنتابها كثيراً. إن من يؤمن بالله حقاً - هكذا كانت تعتقد - لا يستطيع ولا يسمح لنفسه أن ينهي حياته؛ أما العقيدة المسيحية فقد كانت لدى الكثيرين مجرد محض إيمان حرفي بالنص، ليس متجذراً في القلب، لذلك فهو لا يمنع العدد المفزع من حالات الانتحار في ألمانيا.

جاهدت نفسها. يالكثرة ما كان عليها التغلب عليه من الإحباطات

المستترة والمعلنة! كم بذلت من الجهد، لكي توفر لنا، نحن الأبناء، الحياة الكريمة في المجتمع البرجوازي الألماني! وقد أذلّها مسؤولوا الوصاية، وتعاملوا معها بوصفها امرأة بلهاء مستغلين قصور معرفتها باللغة الألمانية، كما كان الناس يرمقونها في الشارع لكونها أجنبية، يتعجبون لها، ويسبونها. لم تعد هالة الأميرات تكاد تسعفها، وما كان بالنسبة لمئات الآلاف في الأحياء العمالية الألمانية يعدّ حياةً يومية، كان وقتئذٍ قد حل بها هي الأخرى أيضاً. كان عليها أن ترشّد نفقاتها، كانت تسير مسافة أميال لكي تحصل على الدقيق الرخيص، والبيض الرخيص، وكثيراً ما كانت تمر أسابيع من دون مجرد التفكير في اللحم. أما الخدم فقد صاروا بالفعل في السنة الثانية من ترمّلها خارج الحسبة، لذلك صار عليها أن تقوم بالتنظيف وغسل الملابس بنفسها. في أيام الغسيل كانت تريَنا ليلاً يديها المحمرّتين المتورّمتين، وترغم نفسها على أن تضحك على الأمر. كل ذلك ظللنا زمناً طويلا لا نعيه على نحو كامل، لكننا كنا ندرك كم كان الأمر صعباً عليها، وقمنا بمساعدتها، بأيدينا الصغيرة، كلما أمكننا ذلك. حين كان الوصي، الذي كان يدير الجزء المتبقي من الثروة يتأخر في إرسال الراتب الشهري، كانت تبيع قطعة من مصاغها مجدداً، خاتماً من اللؤلؤ، مشبكاً من الذهب، وتساوم الصاغة الشّحاح، من أجل أن نحصل نحن الأبناء على قطعة صغيرة من الشيكولاتة. إلى جانب ذلك كانت تحاول جني بعض المال بنفسها من خلال إعطاء دروس في اللغة العربية. ولكن من ذا الذي كان يريد تعلم العربية في مدينة رودولشتات؟

لحسن الحظ وجدت إيميلي بعض من تعاطفوا معها، ودعمونا. كان بينهم مؤجّرات كانوا يهدوننا بعضاً من خيرات حدائقهن، يضعن أمام بابنا سلاّتٍ ملأى بالتفاح، والقرنبيط، والخيار، وأحياناً كذلك باقة

ورد. كان هناك جيران يتركون لنا بعض ملابس الأطفال الفائضة على حاجتهم. وكان هناك ذلك العالم الذي عرّف إيميلي على علوم الفلك وموادٍ أخرى مقابل تدريسه له اللغة العربية، ورغم ذلك كان يدفع لها بسخاء. كما كانت هناك أهم من كل هؤلاء، البارونة العجوز من بلدة تيتّاو التي كانت تصعد السلالم المرتفعة لاهثةً. وقد كان لها الدور الأكبر في قصة إيميلي، فقد كانت أول من وعد الأميرة، بأن يهيئ لها الحصول على ميراثها، ظلت أعواماً تروّج بين الدوائر العليا، لفكرة أن ألمانيا يجب أن تمارس الضغط على السلطان برغش. على سبيل المثال ـ اكتشفت ذلك بعد ذلك بسنوات ـ قصَدَت من خلال وصيفة من معارفها، الأميرة فيكتوريا زوجة ولي العهد، ابنة ملكة انجلترا وزوجة فريدريش فيلهيلم البروسي، فحملتها على التوسط لدى السلطان عبر القنوات الدبلوماسية لمصلحة إيميلي. الشيء نفسه فعله كذلك آخرون من أبناء طبقة النبلاء الأوروبيين. لكن برغش رفض سائر محاولات التدخل ساخطاً.

كنت أحب البارونة جداً، لاسيما لأنها كانت في كل زيارة تعطينا الحلوى، أشياء مسكّرة لزجة، كنا نمصّها نشوى. ملابسها كذلك كانت تفوح برائحة الليمون، وحين كانت تربّت على وجنتي، كان ينبعث من يديها عطر ورد رقيق. كنت أحب صوتها العميق، بما فيه من بعض إدغام دافىء؛ وكانت تحب أن تحكي لنا القصص الخرافية. لكن كان يتعيّن علينا قبلها، أن نثبت أننا كنا قد حققنا تقدّماً في القراءة. حتى روزا الصغيرة كانت قد عرفت الأبجدية كذلك. كنا نتبادل تعليم بعضنا الكثير. ما كان يدهشني، هو أن البارونة كانت تشفط الشاي، التي كانت أمي تقدمه لها، متلذذة، مع أنها كانت امرأة راقية، وقد كان الشفط محظوراً علينا البتّة. قبل أن ترحل، كانت البارونة بين الحين والآخر

تترك ظرفاً أبيض موضوعاً على المنضدة الصغيرة المجاورة للسرير. كنت أعرف ما بداخله: قطعة نقود معدنية، غالباً ما كانت تكون قطعة من الذهب حديثة الصك، من فئة العشرة ماركات، كما كنت أعرف أيضاً، كم الأشياء التي كانت بالنسبة لأمي تعتمد عليها. تلك ذكرى جلية تماماً، حتى أنني أعتقد ـ حيث إن الشمس كانت تسطع من خلال النافذة الصغيرة في فترة ما بعد الظهيرة ـ أنني أرى الأتربة ترقص على بياض الورق، أستشعر كيف أحبس أنفاسي، حين تشق أمي الظرف بالسكين، أسمع تنهيدتها إذ تتنفس الصعداء، حين تبرز لنا قطعة النقود: «هذا المساء يوجد شيء طيّب يا أولاد!» فنصيح: «حلوى الجيلاتين، حلوى الجيلاتين!» تؤدي أمي حركة كأنها مرتعدة، ثم تقول ضاحكةً كلمةً، تعلمتها لمن البارونة: «مفاجيع الحلوى»، فنعرف أنها سوف تخلط لنا بودنج الفانيليا.

بعض الصفحات ناقصة... وأي ملابس كنت ترتدين خلال تلك السنوات؟ تنورات داكنة طويلة حتى الكاحل، كما يلائم امرأة في حالة حداد، وقمصاناً مزررة حتى الرقبة. أقمشة سوداء، وزرقاء داكنة، ورمادية، من الكتان والقطن، لا حرير، قبعات منبسطة، طرحة أحياناً، ولا حلي. ذات مرة ـ حيث كنا لم نزل في هامبورج ـ لبستِ في عز الشتاء ثوباً أزرق بكشكشات صغيرة، وجلست في مقعد كبير، ووضعت يديك على ركبتيك، وابتسمت ابتسامة متأمّلة. كان ذلك غير معتادٍ، وقد وقفت قبالتك، وأعجبت بك. أصيبت الخادمة ـ التي كنا لا نزال حتى ذلك الوقت نحتفظ بها ـ بخيبة الأمل: «لكنكم لاتزالون في حالة الحداد، يا سيدة رويته. عليكم ارتداء السواد!» وقد رددتِ: «كنت فقط أريد معرفة إن كنت سأشعر بالراحة بداخله، بالطبع لن أخرج بهذا الثوب». التزمت الخادمة الصمت. وأنا خاب أملي، حين عدت بعدها

لارتداء الملابس ذات الألوان الداكنة. فبالخارج لابد أن يراكِ الناس هكذا، وليس على أي نحو آخر.

مع محاولاتها للتصالح، التي كانت على الدوام كذلك مصحوبة بالأمل في الحصول على ميراثها، كانت أمي مرة بعد مرة تسقط إلى الهاوية. الأسوأ على الإطلاق بالنسبة لها - قبل رحلتي السفر إلى زنجبار بزمن - كانت تلك الواقعة في لندن، ١٨٧٥. وهي تروي عنها كذلك في خطاباتها. كانت قد علمت أن برغش سيأتي في زيارة إلى لندن، وقررت أن تسافر إلى هناك. كانت تودّ أن تستخدم كل حيلها: أن تخرّ راكعةً أمامه، أن تتوسل، وتبكي، وأن ترجوه ليصفح عنها، وأن توضح له كيف كان باستطاعتها أن تنفعه بخبرتها الأوروبية.

هيّأت البارونة التواصل مع الدبلوماسيين. خلال الأسابيع السابقة للسفر اجتهدت أمي لتَعَلُّم الإنجليزية، وكانت على ثقة أن السفير الألماني في لندن سوف يفتح لها كل الأبواب اللازمة. تركتنا نحن الأبناء، لمدة سبعة أسابيع وحدنا. جاءت خادمة هادئة لرعايتنا، وكانت البارونة تمرّ للاطمئنان علينا، وتحضر لنا بعض الطعام. بالكاد أتذكر هذه الأيام، فقد كنت في السابعة من عمري، كنت أسأل كل يوم، متى ستأتي بيبي؟

في لندن تم تقديم العون لها بدم بارد. ثم تبيّنت متأخراً، أن الإنجليز أرادوا عرقلة اللقاء بينها وبين برغش بأي ثمن. كانوا يخشون أن تستقطب أخت برغش، السلطان الذي لم يكن يتحدث سوى العربية، إلى ناحية الألمان، وقد كانوا يريدون أن يوقّع عقود تسهيل التجارة المرجوة دون إبطاء.

أقامت أمي في فندق رخيص، جاء لزيارتها مسؤول كبير في وزارة

الخارجية. لا يجب على المرء أن يغضب شخصاً في ضيافة الدولة، هكذا قال لها السير بارتل فرير بنبرة لطيفة للغاية، ثم قال إن ما نما إلى علمهم من مصادر موثوقة، هو أن برغش ليست لديه رغبة في لقاء أخته، وإنه يرجوها لاحترام ذلك. بناءً عليه سألها، ما الأهم بالنسبة لها: التصالح مع عائلتها الأصلية المسلمة، أم مستقبل أبنائها؟ أما الأمر الأول، فهو بلا شك مستحيل بالنسبة لها، كامرأة متنصّرة؛ أما الأمر الثاني، فهو لزام عليها. عرض على أمي ذلك الخيار: إما أن تتنازل عن الاقتراب من برغش، ووقتها سوف تعتني الحكومة الإنجليزية بتوفير الاحتياجات المادية لأبنائها، أو أن تضرب بعرض الحائط تلك التحذيرات، فلا تتوقع من الحكومة الإنجليزية أدنى قدر من المساعدة. مصلحة الأبناء ـ كان السير بارتل قد انتقى رهانه بحنكة ـ كانت هي الورقة الرابحة، لاسيما إن مستقبلنا كان غير مؤمّن. وقد تعهدت، بعد صراع صعب مع النفس، أن تبتعد عن السلطان، بل إنها كانت تطالع أخبار المجتمع في الصحف، لكي تتجنب الأماكن التي كان برغش سيقصدها. وقد اعتمدت على أن الإنجليز سوف يفون بوعدهم. قيل لها على سبيل التهدئة: إن هناك بعض الأمور التي يجب استجلاؤها أولاً، ولابد من تحرير عقود مفصّلة. إلا أنه بعد مغادرة برغش، قيل لها بشكل مؤكد، إن الدعم المادي من قبل الحكومة الإنجليزية غير ممكن مع الأسف. فقد كانت قد تزوجت ألمانياً؛ وعليه فإن ألمانيا وحدها هي المسؤولة عن كل المسائل المتعلقة بنفقاتها. لابد أن صدمتها كانت بلا حدود، بل الأسوأ: كانت تشعر بأن الإنجليز خدعوها، وطعنوا كبريائها في الصميم. تصف ذلك في خطاباتها بكلمات بالغة الأسى والرغبة في الانتقام.

لم أعد أذكر، أي حال كانت عليها أمي حين عادت إلى دريسدن

بعد مدة غياب طويلة. كنت قد رأيتها في أحيان كثيرة دامعةً أو متحجرة تقريباً من شدة ألمها. كتبت خطابات أخرى لبرغش. وهو لم يرد أبداً...
الصفحات التالية مبقّعة وغير مقروءة.

لم تتحسن أوضاع إيميلي، إلا بعد أن تم حصلت أخيراً على معاشها كأرملة. استبدلت بأوراق رسمية روسية وأمريكية، إلى جانب بعض سندات السكك الحديدية، رأس مال سائل، كان باستطاعتها حينئذ الإنفاق منه. بقي نصيب الأبناء في المقابل بموجب القانون تحت الوصاية. فيما بعد اتضح يوماً ما أن المحامي المخوّل إليه إدارة الثروة، كان قد اقتطع جزءاً لجيبه الخاص. كان من غير المجدي تقديمه للعدالة من أجل ذلك؛ فقد كان لديه ما يكفي من المعارف المؤثرين، الذين كانوا سيتسترون عليه. أما الادخار فقد تمكّنت أمي منه بعدما تم قبول سعيد في المدرسة الحربية في بنسبرغ، إذ قلّ عدد الجالسين على مائدة طعامنا فرداً. كنت أشفق على أخي، فقد كان يعاني من الانفصال عنا. لكن لم يكن هناك بديل آخر. من أين جاء دعم مادي آخر، هذا أمر ملغز بالنسبة لي، واحد من ضمن أمور كثيرة، لم ترغب أمي في الإفصاح عنها. محتمل أن سعيداً، بعد أن كان قد صار رودولف، كان يرسل لإيميلي من ميراث زوجته الثرية شيئاً بانتظام؛ على الأقل ادعى هو ذلك عند قبرها. في نهايات حياتها، ١٩٢٣، حصلت أخيراً من سلطنة زنجبار على معاش صغير، في المقابل كان عليها التنازل عن كل مستحاقاتها المتبقية. الأرجح أن سعيداً كان قد حثها على ذلك، إذ كانت قيمة الجنيه الإنجليزي ترتفع، كلما انخفضت قيمة المارك الألماني. مئة ألف مارك مقابل رغيف الخبز! مليون! أصاب التضخم الشديد حياتي أنا أيضاً. كنت وقتئذٍ بالفعل قد انفصلت عن براندايس. لم أعد أريد تذكر هذه الأسابيع والشهور على الإطلاق. حينها

اضطررت أنا الأخرى ـ مثلما اضطرت إيميلي في السابق ـ لبيع جزء من مصاغي. وإنني أعترف أنني في وقت العَوَز كنت أسلّم أذنيّ لوعود الحزب النازي. بل إن خُطَبَ هيتلر، التي كان يروّج فيها للتوسّع الألماني باتجاه الشرق، كانت تحفزني كذلك، على الأقل لفترة ما. إذ أين ـ إن لم يكن في الشرق الشاسع ـ تستطيع نساء مدرسة رندسبورغ الشابات استخدام مهاراتهن؟

مرة أخرى صافرات الإنذار تلك... *هنا ينقطع المخطوط*.

١٣

لدي قناعة بأنك سوف تتخلى عن قسوتك، إذا ما رأيت أبنائي، يا أخي. إنهم يحبونك في أعماقهم، ويودّون لو يعانقون خالهم.

بعد عودة سعيد من القاهرة، بدأ يتزايد اهتمام سعيد بشؤون الاقتصاد، ونظام البنوك، والارتهان، والتدفقات النقدية. فقد كانت الكثير من الصراعات بين الأغنياء والفقراء تتأسس عليها، وقد تتوقف عليها قضايا الحرب والسلام. وإن كان يضع في باله إقناع، والتأثير على أطراف الصراع، فمن غير المقبول، أن يكتفي بمجرد معرفة سطحية بالأمور. لذلك فقد أخذ على عاتقه، أن يدخل القطاع المصرفي كعضو فاعل فيه.

كان لديه مطلب واضح: على البلاد الأوروبية ومصارفها أن تقوم بتمويل زراعة القطن في فلسطين وبلاد الرافدين على نطاق واسع. فإن الرخاء الذي قد يعم على المنطقة من جراء ذلك، سيخدم مصالح التعاونيات العربية واليهودية على حد سواء؛ وهو ما يحول دون العداء بينهما. حاول إيصال صوته هنا وهناك، لكن لم يحدث شيئ ذو أهمية. من خلال زواجه من ماريا ـ تيريزيا ماريا تنشأ لديه علاقات مع بعض الدوائر الصهيونية؛ كان يسمع الكثير عن تيودور هيرتسل، الذي يعدّ

مؤسس الحركة الصهيونية، فقرر أن يسافر إلى النمسا، ليحاول كسبه في صف مشروعه الخاص بزراعة القطن.

هيرتسل، اليهودي الذي كانت أصوله من بودابست، الخطيب المفوّه، كانت لديه رؤية واضحة. كان يطالب بموطن لليهود المهمشين والملاحقين من كل أنحاء العالم، دولة مستقلة في منطقة المنشأ على الأراضي الفلسطينية، على تخوم الدولة العثمانية السقيمة. عندما جاءه سعيد في المركز الصهيوني، كان جالساً منفرج الساقين، نعساناً متكئاً إلى الوراء على مقعده، إلا أنه نهض بهمّة وحيّا الزائر كأنه صديق قديم. لم ينتبه سعيد سوى لاحقاً إلى أنهما كانا قد أقاما الحوار كاملاً وهما واقفان، بينما كان هيرتسل دائم الحركة، وظل طوال الوقت يملس بتلك اليد وبالأخرى على لحيته الكثيفة المجعّدة، التي أخذت تطقطق طقطقةً خفيضة، كأنما كانت به شحنة كهربائية.

أما موضوع حقول القطن فقد تم تناوله على عجل. قال هيرتسل إنه سوف يستعلم عن الأمر، فهو يريد تَتَبُّع كل فكرة، تَعِدُ بزيادة محاصيل التربة الفلسطينية القاحلة. فإن المستوطنين اليهود معروفون بجدّهم وعنادهم، وقد يكون بوسعهم، بل إنه يتعيّن عليهم أن يصيبوا صغار الفلاحين العرب، ذوي الطبيعة المختلفة، بهذه العدوى. فإن الدولة اليهودية، سوف تمثّل بكل تأكيد نموذجاً للمنطقة بأسرها.

فقال سعيد: «لكن لا يجب إقحامه على العرب. لقد تجولت كثيراً هناك، يا سيدي الدكتور، لا يجب على المرء أن يجرح كبرياء الشعب العربي. بل يجب أن يتم التفاوض مع زعمائهم، النّد للنّد. كما تعرفون على الأرجح، فإن أمي عربية من زنجبار، لدي اطلاع على الروح العربية. مع أنني من خلال زوجتي كذلك على نفس القدر من القرب من الديانة اليهودية».

سار هيرتسل، كلا.. بل قفز خطوتين باتجاه سعيد. «بالطبع يا صديقي العزيز، نحن نعتمد على قدرتنا على الإقناع. قد يكون ذلك صحيحاً» ـ تقطّب جبينه ـ «لكي نستطيع أن نكسب القيصر الألماني رغم كل شيء في صفنا. إنكم تعرفون بالطبع، أن فيلهيلم كان قد وافق على مقابلة الوفد الصهيوني قبل ثلاثة سنوات أثناء زيارته لفلسطين. في القدس، عند قدس الأقداس! وأنا كخطيب، أوضحت للقيصر، أن قسماً كبيراً من الشباب الألماني اليهودي، لاسيما أولئك الذين لديهم أفكار اشتراكية وليبرالية، سوف يكون على استعداد للهجرة إلى الدولة الجديدة». ـ قفزة صغيرة أخرى، ثم وضع هيرتسل يده على ساعد سعيد بحماس. ـ «قلت إن ذلك بالفعل سوف يخلّص الحياة السياسية الألمانية من بعض الصراعات غير المجدية. إلى جانب ذلك، أمكنني إبلاغ القيصر بوعد من المصارف اليهودية الكبرى: إنهم على استعداد لتحمل ديون الدولة العثمانية، إذا ما تنازل الباب العالي عمّا يكفي من الأراضي للدولة الجديدة. ثم استطردت قائلاً، إن يهود العالم سوف يدينون بالفضل ـ إذا جاز التعبير ـ للإمبراطورية الألمانية، وأنه سوف يتم بالتأكيد منحه حق الحماية على الدولة الجديدة». ترك هيرتسل يده تهبط، تحسس لحيته. «لابد للمرء عندما يتحدث إلى قيصر أن يُسيل لعابه. لكن حسناً يا عزيزي، لقد تملّص من الأمر. من قبل ذلك كان وزير خارجيته بالفعل قد حذره منا. أبلغنا بأنه لن يمس السيادة على أراضي الدولة العثمانية بأي حال من الأحوال. إلا أنه يشجعنا على المضي في مساعينا». ـ ثم أصدر هيرتسل أنةً بأداء تمثيلي. ـ «لقد ماطلنا، قيصركم، هو لا يريد توريطات دولية لأجل بضعة مئات آلاف من «أبناء موشي»، كما كان يسميهم على الأرجح بين أقرانه. ثم أنه ـ كما نما إلى علمي فيما بعد ـ كان يتحدث في دوائره الصغيرة عن اليهود

في القدس بازدراء شديد. يقول إنهم متملقون وخبثاء. لزجون، ومنحطون، ولا يشغلهم سوى ابتزاز جيرانهم المسلمين والمسيحيين! زمرة من المرابين!»

خرقت تلك المقاطع الأخيرة أذني سعيد، بل قعقعت فيها، حتى أنه انتفض متخذاً خطوة إلى الوراء. قال: «اختيار غير موفق للكلمات. لكن هناك احتمال أنه كان يقصد العرب. إن ما يصفه، يستهدف الفقر، وليس العرق أو الدين».

«لكنه مع ذلك جارح، أم لا؟»

شعر سعيد بالانزعاج من سعيه للدفاع عن القيصر، وإعطاء هيرتسل الحق في الوقت نفسه. «تحديداً بسبب هذه التصريحات، أنا لست أميل إلى إقامة دولة يهودية في الأرض المقدسة. لكن تذكر يا سيدي الدكتور إن معظم اليهود في ألمانيا يعتبرون أنفسهم ألماناً. هؤلاء الناس لا يريدون الهجرة..».

قاطعه هيرتسل: «إذا كان الأمر كذلك، فمن الواضح إن علينا نحن إذن أن نتحمل المزيد من المذلّة، والنهب، والاعتداء. المزيد والمزيد حتى نكون مستعدين لهذه الفكرة».

«إنكم تبالغون، يا سيدي الدكتور. فعلى حد علمي لم يحدث لأحد من بين أقارب زوجتي ـ وهي من مدينة كولون ـ أن بصق عليه أحد أو سبّه».

«ولكن لماذا؟ لأنهم أثرياء. لا يمكن التفرقة مظهرياً بينهم وبين المواطنين المسيحيين. لكن فلتذهبنّ إلى الشرق، إلى أقصى الشرق، هناك سوف تصححون خطأكم. ألم تسمعون ما يحدث في روسيا؟ برنامج تلو الآخر!» ـ توقف هيرتسل عن الكلام، وصفق فجأة تصفيقاً

حاداً بيديه. «أوتعرفون، ما يعرضه علينا الإنجليز الآن؟ دولة يهودية في أوغندا، بل إنهم يودّون إهداءنا الأرض، ١٢٠٠٠ كيلومتر مربع من حشائش السافانا. شيء غير مقبول! إننا بذلك نخون قضيتنا. فنحن ننتمي إلى حيث جئنا!»

«لكن إذا تعاملتم بشراسة، فلتأخذوا في الاعتبار، إن اليهود سوف يتم اعتبارهم بالتأكيد دخلاء. وإنكم بذلك تأججون الكراهية المتبادلة». تلجلج سعيد، بينما أخذ هيرتسل ينتف لحيته الكثيفة. «أعتقد أنكم ستحتاجون يوماً ما إلى وسيط، شخص لديه القدرة على أن يتعاطف مع الناحيتين. في مثل هذه الحالة فإنني أحب جداً أن أرشح نفسي لذلك - إذا جاز التعبير - كسمسار صادق، على الأقل كمترجم ومستشار لشخصية مؤثرة».

توقف هيرتسل، وتفحصه بنظرة مبتهجة. «هل هذه مقابلة لغرض التوظيف؟ كان عليكم قول ذلك من البداية».

هز سعيد رأسه مرتبكاً. «لم يكن ذلك مقصدي. لقد واتتني الفكرة الآن للتوّ، لأن..».

«لا بأس» - قاطعه هيرتسل - «سوف أحفظ في الذاكرة اسمكم - وكان الأمر الآن مصبوغاً ببعض السخرية اللطيفة - «.. مؤهّلاتكم».

حادَ الحديث إلى ما هو غير ملزم، مرة أخرى أُتيح لسعيد التحدث عن القطن، لكن هيرتسل لم يعد يتطرق للأمر.

صارا يتبادلان الخطابات، وقد كان التواصل الكتابي بينهما به قدر مقبول من التفاهم، طالما أنهما بقيا على صعيد الأفكار. أكثر من ذلك لم يكن ممكنا. كان سعيد يأمل في الحصول على وظيفة مستشار سياسي لدى البنك الألماني الفلسطيني المُتأسّس حديثاً، أو ربما بالفعل

عن طريق وساطة هيرتسل، في المؤسسة اليهودية الاستعمارية. ولم يحصل لا على هذا ولا على ذاك.

من خلال المراسلات المكثفة استطاع أن يعرّف جوتمان الأب والابن به. الأب ـ أويجن ـ كان رئيس بنك دريسدن، أما الابن ـ هيربرت ـ الذي كان يصغر سعيداً بعشر سنوات، فقد كان يدفع لتأسيس بنك ألماني في الشرق؛ كان من المخطط إنشاء عدة فروع في الشرق الأوسط ـ مما يتضمن القاهرة ـ يراد بها تعزيز النفوذ الألماني بقوة. قدّم سعيد نفسه باعتباره شخصاً خبيراً بالأوضاع المصرية، وعلى هذا فقد لفت انتباه آل جوتمان. حتى وإن كان لم يحصل على المؤهلات الدراسية المطلوبة، إلا أنهم اعتبروه مناسباً، لتأسيس وإدارة فرع بنك الشرق في القاهرة. إلا أنهم نصحوه باتخاذ اسم أشدّ رنيناً. قبل أن يغادر بصحبة أسرته الشابة إلى القاهرة سمح له مجلس الشيوخ في هامبورغ أن يسمي نفسه في المستقبل رودولف ـ سعيد رويته. أما التوقيع الجديد فقد كان يتدرب عليه على كل أنواع المستندات، وعلى هوامش الصحف. تتهكم تيريز عليه بسبب ذلك، ونصحته بأن يضيف التواءً أومايشبه الأكاليل. كانت قد عارضت طويلاً الانتقال بطفل صغير إلى القاهرة، كان من الصعب إثناءها، وجعلها تصدّق أن في ذلك فرصة لرودولف لا تتوفر سوى مرة واحدة في العمر.

هكذا جاء، في بداية عام ١٩٠٦، إلى القاهرة. وقد أسّسا مسكناً كبيراً يطل على النيل. كانت المدينة قد توسّعت، وقد بدت في عيني تيريز كفوضى مجهدة. ولم يكد ذلك الرأي يتغير طيلة الأربع سنوات التي قضياها هناك. تحولت ممانعتها تدريجيّاً إلى نفور مفعم بالكراهية؛ وقد حرصت على أن يبقى ابنها في المدرسة الألمانية بعيداً عن قذارة الأسواق وزعيق أولاد الحارات. في المقابل أرى فيرنر أبوه المدينة

خلال رحلات التجوال في عطلة نهاية الأسبوع. لم يكد الابن يترك يد أبيه، كان يتقهقر أمام الشحاذين الكسحان، يرمي لهذا أو ذاك عملة معدنية، يكون رودولف قد أعطاه إياها، ينصت مندهشاً إلى غناء السقايين وبائعي الفاكهة، وإلى تلك النداءات، االتي تخرج متعددة الأصوات من المآذن. أما المغامرة الأجمل بالنسبة له، فكانت لدى ركوب الحمار ـ ولابد أن يكون حماراً أبيض ـ عند هرم منقرع، أن يرفعه أبوه ليصعد تلك الدرجات الحجرية العظيمة المتلفة بفعل عوامل التعرية. كانا يصلان معاً إلى القمة المنسطحة، حيث يبدو غَمْر البيوت، الذي يمتد أمامهما لا نهائياً. في هذا المكان، كان فيرنر يشعر أنه في مأمن، فيستيقظ فضوله. لم يكن أبوه يستطيع أن يجيب على القدر الكافي من الأسئلة التي كانت تتفجر بداخله: إذا ما كانت الكثير من المومياوات موجودة بالداخل، وإذا ما كانت هناك خطورة في السير بين الأزقة ليلاً، وإذا ما كانت الصحراء على الناحية الأخرى الآن خالية تماماً كما تبدو، بسبب نقل كل الأحجار الكبيرة إلى هنا.

كانت مَعِدة فيرنر حساسة، كان يعاني بانتظام من الإسهال، الذي كان بعد ارتخائه، يجعله يظل لبعض الوقت يبدو كالشفاف. كانت تيريز دائمة القلق عليه، وكانت تلك الأجواء في المنزل تذكّر رودولف بين الحين والآخر بفترات مرضه هو نفسه في الطفولة، أيام هريس الشوفان والشاي الخفيف، وبضيق صدر إيميلي، ويدها الباردة على جبينه.

إلا أنه كان يرغب في شيء واحد قبل أي شيء: أن يستحق الاحترام في منصبه الجديد. كان يبذل كل ما أوتي من جهد لكي يقترب من أهدافه الطموحة، مما كان يعني إيجاد الحلول الوسط المناسبة بين الدوافع الاقتصادية والمثالية لمَنح القروض. وقد دفع لبناء سد أسوان، الذي تم تدشينه في عام ١٩٠٢. كما وافق ـ بالتفاوض مع رؤوسائه في

برلين ـ على منح القروض لتجهيز مرافق ميناء سواكن على البحر الأحمر، ولتأسيس الصحف الخاصة بزراعة القطن في الإسكندرية، ولدعم حركة البواخر في النيل، ولتوسيع خطوط السكك الحديدية الضيقة في دلتا النيل. يفعل كل هذا آخذاً في عين الاعتبار إلى ازدهار المنطقة بأكملها؛ وحين كان سكان البلاد يوجهون اللوم إليه، إذ كان بذلك يخدم مصالح الإنجليز، الذين سوف يستحوذون على كل المكاسب في النهاية لأنفسهم، كان يعارض ذلك بشدة: إن ما يفعله يخدم كذلك صادرات مصنّعي الماكينات الألمان، أما كون ذلك يقلل حجم الفقر عموماً، فهذا أمر لم يكن ليسمح بإقناعه بغيره.

أما الفرص غير المستغلة لزراعة القطن، فإنها لم تغب عن باله أبداً. كان قد رأى حقول القطن في دلتا النيل وخلال رحلاته في أنحاء فلسطين، وكان يحب أن يزن لوزات القطن المتشققة، ذات الوبر الأبيض بياض الثلج بيده، يتلمس ذلك الوبر الطيّع، فيبدو له عديم الوزن، شتوياً بحتاً رغم ملمسه الصيفي. أجل، فحين كان يضيّق عينيه، كان يتولّد لديه الانطباع أنه يرى مساحات مُوَشّاة ومرقطّة بمئات الآلاف من رُقع الثلج، وكان يحلم بحقول ـ كتلك المزروعة في جنوب الولايات المتحدة الأمريكية ـ تمتد حتى الأفق. كان يقول لنفسه إنه لابد أن تنشأ شركات لتمليك الأراضي بحق الانتفاع على امتداد خط بغداد للسكك الحديدية، تدفع بزراعة القطن، ويكون عليها أن تعنى بنظام فعال للريّ، وبزيادة رأس المال، لإحلال الحاصدات المخترعة حديثاً. في الوقت نفسه سيمكن للقطارات جلب أشولة السماد. هل من قطاع زراعي أكثر سلمية وربحاً من ذاك؟ أما الحيوانات فمن المعروف أنها تتحاشى شجيرات القطن، وأما عصابات اللصوص فسوف يتركون المزارع وشأنها، فسيفضلون سرقة الحبوب والذرة. بالإضافة إلى ذلك

نصيب آمن في التجارة العالمية وحركة نقل سريعة على القضبان. مزايا لا تعدّ. وسوف يكون رودولف، كمدير بنك، على استعداد، للاستثمار هنا على نطاق واسع. لكنه قوبل بالمقاومة في المؤسسة الأم، فقد أصر آل جوتمان على تسهيل شراء شاحنات النقل الألمانية في مصر، بدلاً من دعم المشاريع الزراعية المرتبطة بالطقس.

شعر رودولف بخيبة الأمل تجاه انعدام بعد النظر لدى رؤسائه. أهدى فيرنر علبة كاملة من كرات القطن، التي كانت لاتزال عالقة بلوْزاتها، وأخذ يراقب كيف كان فيرنر يفرزها، وينتفها، ويبللها بالماء ثم يعجنها؛ يشكّل منها رجل القطن، كأنها فعلاً ثلج. كان الوقت منتصف شهر ديسمبر، تذكّر فيرنر احتفال عيد الميلاد المجيد في العام السابق، وقال إنه يشعر بالحنين للوطن. التزمت تيريز الصمت، واستشعر رودولف كذلك حنيناً للوطن، حين كانوا يحتفلون مع ألمان آخرين بليلة رأس السنة. كانت الصواريخ تُطلَق، وقد كان يشعر بالسعادة عندما يسمع فيرنر يهلل من الانبهار.

أما حقول القطن فقد ظل يحلم بها بين الحين والآخر. كانت تلك أحلام طريفة. كان يجدف في زورق وسط الحقول الشاسعة، كما كانت لكُريّات القطن وجوه صغيرة، كانت تبتسم له، فكان ذلك يشعره بالسرور، حتى أنه كان يغني، وهو ما لم يكن فيما عدا ذلك يفعله أبداً. لحن أوبرالي، «هذه الصورة ساحرة الجمال»، وإلى جواره وقف فجأة فيرنر، كبير في نفس طول رودولف، وراح هو الآخر يغني: «في خفة الريشة، في خفة الريشة!» ثم صار فجأة في البحر، تحول القطن إلى زَبَد، ارتفعت الأمواج، كان يودّ أن يطير بعيداً، لكنه لم يستطع. أو أنه استلقى على الأرض، رجال غرباء بعمائم كانوا يفرغون أكواماً من القطن فوقه، فتعلو وتعلو. كانت الكومة خفيفة جداً، حتى أن لا شيء

كان يؤلمه، كان إطلاق نفس واحد كافياً، لكي يتطاير القطن، فبدت السماء حافلة بالطيور البيضاء.

حان الوقت، حيث إن القيود والتعليمات من برلين صارت تزعجه، بل تسرق النوم من عينيه. كانت أيام عمله لاتزال كما كانت في السابق مزدحمة، لكن غالباً بأعمال روتينية؛ أما أفكاره التي كان بالفعل يصوغها بدقة، تتلاشى في برلين البعيدة، وغالباً ما لم يعُد يتلق أية إجابة من الأساس على اقتراحاته. ولكي يشغل نفسه عن الأمر بدأ يلقي بعض المحاضرات في جامعة القاهرة، عن انتشار الإسلام، وقد انشغل بالقرآن بجدية، رغم أن لغته العربية لم تكد تتحسن. كان القنصل العام شرودر قد أهداه وقتذاك نسخة من النص الأصلي العربي، وقد كان يأخذها معه في كل مكان. كثيراً ما كان يهمهم لنفسه ببداية السورة الأولى: «بسم الله الرحمن الرحيم»، كان النص الكامل لايزال محفوظاً في رأسه: «الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا السراط المستقيم، سراط الذين أنعمت عليهم». كانت تلك كلمات ملحّة؛ لم تكن تبدو مختلفة عن بعض المواضع في العهد القديم، ومع ذلك فقد كان المؤمنون، الذين كانت تلك الكلمات تقرّب بينهم، في أماكن يقفون بعضهم لبعض أعداءً.

على النقيض التام من هذه الدراسة الشخصية، كانت الدعوات لدى بيوتات كبار المسؤولين العرب. الولائم المفرطة في شهر رمضان، بعد غروب الشمس، لم تكن تشعره بالانبساط. ذات مرة اصطحبه أحدهم معه إلى عرض رقص شرقي على متن مركب نيلي. شعر بالذهول، وكان يودّ لو يسأل مضيفه، عما إذا لم يكن ذلك الرقص، الذي يبعث الرجال على الحملقة، يتعارض مع المزاعم الأخلاقية للأئمة. لكنه فضل الصمت؛ لقد أخجله أنه هو نفسه كان ينتمي لهؤلاء الرجال. أما

ذكرى ليلة الخيمة، فقد أزاحها عنه، لكنها كانت تسطو عليه بين الحين والآخر في الصباح الباكر، مع شهوة لا حدود لها.

أخذ شعوره بالبَوْن بينه وبين الأعمال المصرفية يتزايد، في السنة الثالثة تغلب عليه قرار الانفصال عن آل جوتمان. لكنه لم يرفض رحلة السفر إلى إيران لمدة شهرين، بناءً على تعليماتهم، لكنه لم يعُد إلى القاهرة سوى بنتائج ضعيفة للمفاوضات، لكن في المقابل فقد جلب بين متاعه وثائق تخص التاريخ الفارسي، ومجموعة من القصص الخرافية مترجمة إلى اللغة الإنجليزية لابنه. أوضح هذا الإخفاق للطرفين أن منصب المدير لم يكن هو العمل المناسب لرودولف ـ سعيد رويته. انفصل الطرفان بهدوء، وقد خصص آل جوتمان مكافأة نهاية خدمة سخية له، أما تيريز التي كانت قد فقدت كثيراً من وزنها في القاهرة، فقد فرحت بالانتقال إلى لندن، وفقاً لما خططه رودولف. صار المؤكد بالنسبة له، أنه سوف يكرس نفسه الآن بالكامل، كفاعل خير وبشكل شخصي، لمجهودات الوساطة بين الأطراف المختلفة. لم يكن غير ميسور الحال. أما ما يعوّض ذلك فهو ما كان قد استثمره في بعض الجهات الآمنة في السنوات الأربعة الأخيرة. وقد أدخل ميراث تيريز من أبيها بعض المال، كما أن لودفيغ موند، الذي كان قد توفي قبل فترة قصيرة، ترك لها مبلغاً كبيراً غير متوقع، كانت تديره بنفسها ضمن ذمتها المالية الخاصة، بينما كانت تسمح لرودولف بالإنفاق منه كلما احتاج الأمر إلى ذلك.

. بدت اغتيالات سارايیفو[1] كأنها تضع نهاية لكل الآمال في إحلال

(١) اغتيال سرايیفو: في ٢٨ يوني ١٩١٤ أثناء زيارة ولي العهد النمساوي الأرشيدوق فرانز فرديناند وزوجته لسرايیفو، قامت مجموعة تابعة لتنظيم اليد السوداء السري باغتيالهما.

السلام. لكنه تمسّك بها، فقد صارت هي الهدف من وجوده في الحياة. وقد ظل يدعو بلا كلل للصلح بين إنجلترا وألمانيا، حتى حين جرفت هتافات الحرب كل بادرة للحكمة. كان عليه أن يتحمل الطرد من إنجلترا لكونه ألمانياً، وأن ينظر إليه في ألمانيا ـ حتى وسط أهل بلده ـ على أنه خائن؛ وقد اعتبر مسألة أن يتم تجميد حسابه المصرفي اللندني أمراً حتميّاً. أما لوتسيرن فقد كانت خلال سنوات الحرب مكاناً جميلاً وآمناً. وقد سعى هنا أيضاً إلى التمتع بقدر من الشعبية واعتراف الرأي العام بمجهوداته الساعية لإحلال السلام. على الأقل كان بإمكان قادة الرأي العام في أحد البلدان المحايدة أن يثبتوا جدارتهم. لكنهم لم يفعلوا، وقد كان ذلك يثير استياءه. حسناً، ذلك الكِبر لم يتسنّى لأحد دحره.

الثانية عشرة والنصف. إلى هذا الحد تأخر الوقت. ماهي إلا بضعة خطوات من الأريكة إلى السرير. الغطاء مردودٌ إلى مكانه بِيَد الخادمة التي يظل ينسى اسمها. كم هي مرهقة تلك الذكريات المطلة على المرء كالأشباح. كان بإمكانه أيضاً أن يقرأ، بدلاً من أن يقارن نفسه بهيرتسل. كان قد أخذ معه «*الأحمر والأسود*» للروائي ستندال، وهو أحد أحب الكتب إليه. أو يتعمق مرة أخرى في القرآن، ليقابل آيات كان قد نسيها. أم يكتب خطاباً آخراً لروزا، على عنوانها في يينا؟ لم يكن قد وصله ردّ حتى ذلك الحين. لكنها قد ربما لاتزال على قيد الحياة، أخته الصغرى، مضى نصف دهر منذ أن سمع منها آخر مرة. كانوا ذات يوم عائلة واحدة، أي نعم بلا أب، لكنهم كانوا مترابطين. كانت روزا تحب الحيوانات الصغيرة، يمكنه تذكّر ذلك، الفئران، والطيور، والسناجب. ذات مرة، في أواخر الصيف، ارتطم حسون بنافذة غرفة الأطفال، فسقط جريحاً في الحديقة، بين زهور الأذريون. فقامت روزا ـ وهي في

السادسة أم السابعة من عمرها؟ - بوضع الطائر في صندوق أحذية مبطن بالحشائش، حاولت إطعامه بعض فتات الطعام، التي كانت قد شكّلت منه كرات صغيرة. انهمكت تماماً في سعيها لإدخال الطعام بملقاط في المنقار المقفل. كل سقسقة ضعيفة، كل رفرفة من جناحيه، كانت تعدها بادرة أمل للحياة. في الصباح التالي كان الحسون قد مات. كان سعيد أول من رآه. أفزعته كتلة الريش المنتفخة الساكنة ذات الرأس المقلوب إلى الناحية. أخذ الصندوق، أفرغ كل محتوياته بالخارج خلف إحدى الشجيرات، نثر فوقها بكلتي يديه العشب وأوراق الشجر اليابسة. وحين أخذت روزا تبحث يائسةً عن الطائر، اعترف لها أنه كان قد دفنه. طيلة حياتها لم يبلغ سخطها هذا الحد. أخذت تضربه بقبضتي يديها، فأمسك بهما، ثم راحا يصرخان كلّ في وجه الآخر. كانت الأم في ذلك الوقت مريضة، فرجتهما الهدوء بصوت شاكٍ من غرفتها، وقد وبخت طوني الصغيرين. أشار لروزا إلى المكان الذي رقد فيه الطائر بالخارج. وقد زعمت باكية إنه لم يكن قد مات أصلاً، وإن ذلك لم يكن قبراً، بل إن بإمكان أي قط سرقة الطائر من هنا. حفرت قبراً حقيقياً بجاروف الأطفال، وضعت الطائر بداخله، وحين كان قد تغطى تماماً، أرادت من سعيد أن يردد معها أحد الأدعية. لكنه قال إنه لايعرف واحداً. رددت عدّة مرات: «كان الرب معك»، كان تعرف ذلك من البارونة، وقد طوى هو يديه مثلها.

عزا كل من روزا وسعيد بعضهما، بينما توارت أمهما خلف سياجها غير المرئي. كان بينهما شعور صامت بالقرب، يختلف عن ذلك الشعور تجاه طوني، الأخت الكبرى، التي اضطرت لرفع معنويات أخويها باستخدام بعض الكلمات الأمومية. قبل دخول سعيد المدرسة الحربية لاحظت روزا بدقة، كم أصاب الخوف حالته المزاجية، رغم أنه

ـ لأجل خاطر أمه ـ امتنع عن إبداء أي ملاحظة. اتجهت روزا نحوه، عندما كان قد وقف بالفعل ومعه حقيبته في رواق الفندق الصغير في كولون، وضعت يداً على وجنته، ابتسمت له، وقالت: «سيكون كل شيء على مايرام، يا سعيد يا عزيزي». لم يتسنّ له كبح دموعه، فمسحتها له بمنديلها واستمرت في الابتسام. لم ينسَ ذلك أبداً. كانت طوني، الأخت الكبرى، تتصرف منذ وقتها كشخص بالغ، فرمقت أخاها بنظرة، موجّهة إياه لضبط النفس. بدت أمه في ذلك اليوم متحجرةً، فقد كانت هي الأخرى بحاجة للمواساة، فلم يخطر له، سوى أن يتظاهر أمامها بالبسالة.

يخلع ملابسه بصعوبة، هنا مفصل يؤلم، وهناك آخر، يعلق الملابس على متّكئ المقعد، ينسل بصعوبة أكبر داخل ملابس النوم المخططة باللون الأزرق، والقميص التحتاني الإنجليزي من أجل الأيام الباردة، فقد صار بحاجة لحماية نفسه من ذلك منذ فترة. يال هذا الجسد الحَرون. يطفئ الضوء، يتلمس خطاه في الظلام ـ الذي لم يظهر وسطه سوى مربع النافذة أفتح قليلاً ـ عائداً إلى السرير، يستلقي، ويتغطّى. قدماه باردتان كالعادة، لقد نسي أن يرتدي جوارب النوم. تدق أجراس الكنيسة في الساعة الرابعة. كم يمرّ الوقت بسرعة، ويمتد، كم يثقل وأحياناً يتلاشى: هذا أحد الألغاز التي لن يستطيع حلّها. كل ثانية من المحتمل أن تحوي حياة كاملة.

١٤

لقد صرت الآن أرملة يا أخي الحبيب، لم يعد لي أحد سوى الله وأبنائي الثلاثة. منذ ثلاثة عشر عاماً توفي زوجي. لم أتمنّ أن أتزوج ثانيةً أبداً. إنني أعيش مع الأبناء في المدينة الكبيرة برلين، حيث مقر القيصر وعائلته. إنني أضع ثقتي في الله ثم فيك يا أخي.

يينا، في ٢٦ مايو، ١٩٤٣

عزيزي سعيد (أم تريد بالضرورة أن تكون رودولف؟)..

سيكون هذا خطابا طويلاً، ولا يسعني سوى أن آمل أن تستلمه في وقت ما، فأنا لا أعلم أساساً إن كنت لاتزال على قيد الحياة، لكنك لا تغيب عن رأسي في الوقت الحالي، تماماً مثلما لا تغيب أمي، التي - لحسن حظها - لم تعد على قيد الحياة منذ زمن.

إن من بقي في ألمانيا، على عكس ما فعلت أنت، يتعيّن عليه أن يقلق. فقد تحوّل المصير. إن قنابل الحلفاء تسقط على برلين وهامبورغ، والآن جاء كذلك دور مدينتنا يينا بما فيها شركات زايس. الذنب ذنبكم، هذا ما سوف تقوله، فقد كنت تتنبأ بهذه البلوى على أية حال.

لقد افترقنا - أنا وأنت - لسنوات طوال. كنت على أية حال دائماً

أقرب إلى طوني. بينما أتوقع، أنك ـ نظراً للظروف ـ لم تعد على تواصل معها هي الأخرى. لكن العجيب هو أنه تحديداً في هذا الوقت، حيث يشتد الخطر، يصحو الماضي في أعماقي على نحو شبحي، وكثيراً ما تسترجع ذاكرتي موت أمي، ومحاولتنا البائسة لنثبت لها احترامنا للمرة الأخيرة.

أريد الآن أن أكتب من قلبي، كل ما يدور برأسي. والأفضل أن يلهيني ذلك عن الأحداث اليومية. بالمناسبة لقد مات زوجي ترومر في شهر فبراير عام ١٩٤٠. هل كان ذلك الخبر قد تسرّب إليك؟ لم يكن قد شهد استسلام فرنسا ولا الهجوم على روسيا. ولا أيضاً، كيف يحتفل جوبلز وأقرانه حالياً على الدوام بوقاحة بالنصر الوشيك. أما هنا داخل البلاد فإن التشكيك في ذلك علناً ممنوع، كما تعرف على الأرجح. إنني لحسن الحظ لا أزال تحت حماية الجنرال المتوفى؛ فالمسؤولون الذين يودّون الحفاظ على الشعب الألمانيّ نقيّاً، يتغاضون عمداً عن أنني أنا كذلك بحكم الدماء أعدّ هجيناً.

إن هذا يرجعني في الوقت الحاضر إلى الوراء، إلى الحرب الماضية. أتساءل لماذا؟ ربما تكون لدي رغبة في توضيح بعض الأمور التي تتعلق بنا. أما إن كنت تريد قراءة ذلك أم لا، فهذا شأنك. عندما جاءت أمي، في عام ١٩١٤ من بيروت، لكي تزورنا في وحدة برومبرغ، لم نكن لا أنا ولا زوجي نعلم أن زيارتها ستمتد لعشر سنوات. وكيف كان لنا أن نتنبأ بأنها سوف تموت عندنا في يينا؟ إن المصائر لا تدع أحداً يضع لها الخطط؛ إن مسارات حياتنا نحن الثلاثة تحديداً، مختلفة بقدر ما هي ملغزة.

لم يكن ت. في البداية يريد بقاءها عندنا. أنا التي فرضت رأيي.

كانت الأوضاع وقتها في برومبرغ مجهدة جداً، لم يكن هو بعد قد صار ذلك الرجل المسن الصامت النكِد، الذي صاره من فردان. وبدت لي أمي هزيلة، وطاعنة في السن، وأقل كلاماً عن آخر زيارة لها. «يا إلهي» ـ قالت ذلك ردّا عليّ حين ذكرت لها قصة الإرث التي لاتنتهي ـ «لم يعد لذلك معنى أصلاً». في السابق كانت عادة ما تدمع عيناها على الفور مع مثل هذه الاستفسارات، أما حينئذٍ، فقد بقيتا جافتين، وإن كانتا قد احمرّتا بشدة، وكذلك بدت رغم هذا على مائدة الإفطار كأنما قضت الليل كله تبكي. كانت بنتاي ـ أحد عشر، واثنا عشر عاماً آنذاك ـ تعاملانها بلطف، تتصرفان بدلال بناتيّ وتبديان استعدادا للدردشة، لكن الجدة، التي كانت تراهُن كل بضعة سنوات كانت غريبة عليهن، ويبدو أن ذلك الاغتراب أخذ يعشّش بينهم باستمرار. لا أكاد أتذكر الآن كيف قضينا الأيام حتى يوم التاسع والعشرين من يونيو. كانت بداية صيف حار جداً. كانت البنتان تذهبان صباحاً إلى المدرسة، وكان «ت» في الوحدة العسكرية، وكنت أنا أنهي بعض الأمور المنزلية مع الخادمة، وكانت أمي تجلس غالباً عند نافذة الشرفة المستديرة، وعلى ركبتيها الصوف الذي كانت قد بدأت في حَبْكه (ترى متى كانت قد تعلّمت حَبْك الصوف أصلاً؟)، تحملق في الخضرة بالخارج، أو تنتف البَتَلات الذابلة من زهور الغرنوقي الحمراء على جلسة النافذة. كنا نخرج في فترات ما بعد الظهيرة خلال العطلات المدرسية، في نزهات خلوية، على أحد الجداول أو على أطراف إحدى الغابات، كانت البنتان تفتشان عن ثمرات الفراولة البرية، التي كنا نسحقها في الأكواب ونخلطها بالسكر والحليب. ذات مرة قالت إيميلي إنها تحب هذا الخليط تقريباً مثل حبها للشَرْبات بالنعناع أو بنكهة ماء الورد، وقد ذكرني ذلك على الفور، بيوم تذوقناه لأول مرة في الإسكندرية، خلال رحلتنا إلى

زنجبار، أو كيف كنا لاحقاً خلال مساءات كثيرة في بيروت نغرف منه بالملاعق من الأكواب الزجاجية، في شرفة بيتنا، حيث كنا متقاربين بلا كلام، في حالة عدم اكتراث بالمستقبل، بدت لي في حينها مناسبة جداً. هل تتذكر أنت أيضاً ذلك؟ إن السنوات التي قضيتها مع «ت» كانت قد ردمت على كل هذا تقريباً، إلا أن إيميلي جعلته يطفو على السطح مرة أخرى. فرشنا حاجياتنا على ملاءة قطنية، تناثرت عليها رقع الظل وضوء الشمس، كانت ذراعا أمي قد صارتا مجعدتين، وقد كانت رؤيتهما إلى جوار أذرع البنتين المشدودة شيء مؤلم. كانت قد أغمضت عينيها، بين الحين والآخر كانت ابتسامة ترتسم على شفتيها، في حين صار ذلك في تلك الأثناء أمراً نادراً ما يحدث لها. لم يكن من الضروري سؤالها إلى أين كانت أفكارها في تلك اللحظات تحملها. حتى أنا كنت في أعماق قلبي أشتاق لذاك البلد الآخر، للضوء الآخر، للروائح الأخرى، حسناً، على الأرجح لذلك الشباب البائد. أما أنت، يا أخي الحبيب، فقد تعاملت بصورة مختلفة مع هذا الحنين، أيها المندفع. ولكن هل أعادت لك أسفارك، وفترات إقامتك في الشرق شيئاً مما كنت تتمناه؟

لم تكن تريد في ذلك الصيف ١٩١٤، أن تأتي خصيصاً من لندن بصحبة تيريز، لترى إيميلي. وقد سخطت عليكما بسبب ذلك، بينما كان لابد أن يكون واضحاً بالنسبة لها، أنكما - أنت و«ت» - كنتما تتحاشيان بعضكما. فخلال لقاءاتكما القليلة، كنتما تعرفان من دون كلام كثير، كم كانت مواقفكما السياسية متباعدة. أما مع براندايس الصَلِف، فقد كان الأمر أسوأ، أنت الذي كنت قد تشاجرت معه بالفعل، عندما جئت لحضور زفاف طوني في بيروت.

في بداية شهر يوليو كانت أمي تريد أصلاً الرحيل وقضاء أسبوعين

آخرين لدى طوني في برلين، وللأسف كذلك لدى براندايس. ثم تم اغتيال فرديناند في سارايفو، وقد جعلتنا أزمة يوليو نحبس أنفاسنا. صارت الحرب لا مناص منها، رغم أنك كنت تزعم لاحقاً أنه كان من الممكن منعها حتى اللحظة الأخيرة. في برومبرغ كذلك، في مقاطعة بوزنان، كان الألمان، الذين تجمعوا في الشوارع يطلقون صيحات الحرب. وقد قلتُ ل «ت» إنه في ظل هذه الظروف، سيكون من التقصير أن نترك إيميلي تسافر إلى بيروت، فإن هناك كذلك تهديد بحرب بحرية. فكانت إجابته أنه: «بإمكانها أن تبقى بضعة أسابيع أخرى، ثم نرى ماذا بعد». كان يعتقد في أنها ستكون معركة قصيرة، وفي تفوق السلاح الألماني (تماماً كما كان الحال في العام ١٩٤٠ مرة أخرى). تم تحريك الجيوش، وكان على «ت» قيادة كتيبة المدفعية إلى الشرق، على الحدود الروسية. لم أقرأ على ملامحه المتحجرة الحماسة، وإنما روح القتال إلى أقصى الحدود. حصلت على قبلتي الوداع على وجنتيّ، وبكت البنتان.

«سيكون كل شيء على ما يرام» - قالت ذلك أمي، التي كانت تقف إلى جوارنا؛ كانت لديّ شكوكي، لكنني فضلت الاحتفاظ بها لنفسي وسط تلك الأجواء الهائجة.

بقيت معنا. توسعت الحرب وطالت مدّتها. على الجبهة الشرقية - كما كتب لي «ت» بفخر - حققت الجيوش الألمانية نجاحات لا يستهان بها، إلا أن الأعداء تكاتفوا على الجبهة الغربية. جرت الدولة العثمانية إلى الحرب في شهر نوفمبر، في صف قوات المحور. وكانت أمي - كونها رغم كل شيء عربية في أعماقها - تشتاق للعودة إلى بيروت، كانت تطالع أخبار الحرب في الصحف كل صباح، لكي تتبين إن لم يكن هناك بالفعل طريقاً آمناً للوصول إلى هناك، براً أو بحراً، ومن

الممكن أن يكون بالالتفاف حول أفريقيا بالكامل. لكن لم يعد هناك إمكانية، للسفر عبر قناة السويس ـ التي كانت حيئذٍ محاصرة من الدولة العثمانية، تحت حماية القوات البريطانية والمصرية ـ من دون المخاطرة بالحياة. وقد تفهّمت أمي ذلك على مضض.

كان البريد العسكري يعمل ولكن ليس بانتظام. في أحد خطاباتي إلى «ت» أوضحت له أنني أعدّ الأمر من ضمن واجباتي كإبنة، أن أبقي أمي عندنا. بعد ثلاثة أسابيع جاء رد فعله شديد اللهجة، بضعة سطور مخربشة: لمَ لا تسافر إيميلي إلى طوني أو إلى سويسرا، حيث كان سعيد يختبئ، فإن على الإخوة تقسيم الأعباء فيما بينهم. لم تكن أمي في نظري عبئاً ـ وقد أغاظتني تلك الكلمة ـ لكنها كانت مع ذلك تحدياً. كانت لتكون كذلك بالنسبة لك، بالنسبة لكما أيضاً، لكنك كنت دائماً تجد أسباباً جليّة، لصعوبة إقامتها لديكما لمدة طويلة. وهو صحيح بالفعل أنها كانت تواجه صعوباتها مع زوجتك تيريز. وقد سألتها لدى أيٍّ من أبنائها الثلاثة تفضّل أن تقيم، أم أنها تفضل ما يشبه التنقل الدوري من هذا الابن إلى ذاك. أجابت أمي بأنها تريد الإقامة معنا، وأنها لا تستطيع على الدوام التكيف من جديد، وأنني بالفعل الأكثر عطفاً، وصبراً بين أبنائها. بدا صوتها مخنوقاً، حين أفصحت عن ذلك، وقد اغرورقت عيناي بالدموع، فلم أكن لأظن هذا.

كتبت ل «ت» ـ وكان قد صار في تلك الأثناء قائد لواء ـ أنني لن أدع حماته ترحل، وإن باستطاعتها الاحتفاظ بغرفتها عندنا لأي مدة تريد، وكما يستلزم الأمر. جاءت إجابته بأنه لن يجبرني على شيء، لكنه لايزال معترضاً مثلما كان، ثم أضاف إنه ربما يسعدني أن أتلقى خبر أنه رغم القصف المستمر لمدة ليالٍ من قِبَل العدو، إلا أنه حتى الآن لم يُصب بأذى. أخذت أمعن التفكير في سبب كرهه لإيميلي. فلم

يكن قد أظهر ذلك صراحةً قط، كما أنني لم أسأله صراحةً أبداً. هل كان الأمر يتعلق بأصولها العربية، أم بأسلوبها في تفحصه بارتياب، أم بأنها لم تكن تقابله بحرارة بالغة؟ كانت علاقة بنتيّ بها ـ ربما خاصةً لأن «ت» كان غائباً ـ قد صارت أكثر دفئاً على نحو ملحوظ، صارتا تحبان الاستماع إلى الجدة، على الأريكة وهما على يمينها وعلى يسارها، عندما كانت تقرأ لهما في المساء بعضاً من حكايات *ألف ليلة وليلة*. كان المفَضل لديهم هو «سندباد البحري»، الذي تقول الأسطورة أنه كان قد نزل على جزيرة زنجبار أكثر من مرة. بل إن برتا تجرأت كذلك على وضع رأسها أثناء الاستماع على كتف جدتها. بينما لم تفعل أختها ـ إيميلي الصغيرة ـ فقد كانت طفلة رزينة ومنضبطة، كما ظلت لاحقاً تتجنب أية انفعالات عاطفية زائدة، مثل أبيها تماماً.

بقيت أمي عندنا. صارت جزءاً من هيكل العائلة الذي كان «ت» يعود كل شهرين أو ثلاثة ليكمّله خلال أيام العطلة القصيرة. لكن العادات الجديدة بيننا وبينها خلقت نوعاً جديداً من الألفة، جعلته مستَبعَداً. قبل أن يتم إرساله إلى فردان، استغرقت عطلته مدة أطول، ثلاثة أسابيع كاملة. منذ ذلك الحين كان بالفعل مزاجه قد بدأ يتشوّش، لم يحب أن يحكي أي شيء من مشاهداته، أطلعني مرة واحدة فقط على قائمة من سقطوا من لوائه. أثناء العطلة كذلك راح يكتب بطاقات رثاء للأقارب المكلومين. أما بعد عودته بصورة نهائية، فقد صار أقل كلاماً من أي وقت في حياته.

منتصف عام ١٩١٧، لازلت أذكر ذلك جيداً، أبلغتنا أنت بصورة مفاجأة خبر زيارتك. كتبتَ إنك سوف تجري محادثات مهمة بالقرب منا، وإنها بالفعل فرصة للقائنا مرة أخرى. لم أكن أشاركك الكثير من آرائك، لم نكن قد تقابلنا منذ وقت طويل، لم أكن حتى قد تعرفت

على ابنتك أولجا التي كانت في تلك الأثناء بالفعل تذهب إلى المدرسة. حين كنت وحدي مع «ت» بعد تناول العشاء ذات ليلة، فتحت الموضوع معه. وقد ألحت إيميلي كذلك على زيارتك؛ على الأرجح كانت هي على كل حال من دبّرت تلك الزيارة من ورائنا. ظلت علاقتها بك غامضة، فلفترة طويلة كنت أنت ابنها المفضل، ابن أمك على حق. وقد كاد الأمر يقتلها، عندما اضطرت لنفيك إلى المدرسة العسكرية. بالطبع شعرت لاحقاً أنك كنت تحاول اتخاذ مسافة منها، وأنك اكتفيت بمساندتها فيما يخص مطالبتها بالميراث.

أما ما حدث وقتئذٍ، فقد حجبته عنك حتى الآن. استشاط «ت» غضباً على مقعد القراءة، كأنني لكمته لكمةً بقبضة يدي.

صرخ في وجهي: «لن يحدث ذلك أبداً»؛ ـ كان ذلك بمثابة انفجار دون أي سابق تحضير ـ «لن يدخل هذا الرجل بيتي!»

أفزعتني نبرة القائد العسكري في صوته، لكنني صمدت أمامها. قلت محاولةً أن أثبت نظري على نظرته الوميضة: «أيّا كان ما يمثله، فهو أخي وسيظل كذلك».

لكي يلجم غضبه، فرك «ت» يديه... الغليظتان: «إنه جبان، متخاذل! أنت تعرفين ذلك مثلي تماماً. في الوقت الذي يصطف فيه الناس في ألمانيا، في الوقت الذي يضحي فيه شبابنا بأنفسهم من أجل بقاء الأمة، زاغ هو، السيد الملازم الأول الخارج من الخدمة. لقد هرب، إلى بلد تخون القيم الألمانية، كما خانها هو. وحجته أنه هناك في مأمن، أي نعم، حسناً. كيف يُسمح له أصلاً بدخول بلادنا؟! ولماذا كان عليه أن يتزوج تحديداً من يهودية؟ هذا في الحقيقة محض

استفزاز!» صمت، وعضّ بقوة على شفته السفلى، حتى بدأ الدم يسيل منها؛ تلك العادة السيئة كنت أعتقد أنني بالفعل صرفته عنها.

أيقظت خطبته العصماء المهينة غريزة الأخوة في نفسي. قلت: «إن الأمور كلها أعقد مما تريدها أن تكون. إن سعيداً شخص ذكي، بل كذلك عنود، آراؤه غير مريحة، لكنها ليست انفعالية أبداً، على عكس آرائك أنت الآن. وربما كان عليك بالفعل إيلاءه الحق في بعض النقاط. لكنك في الحقيقة لا تسمح لنفسك بذلك».

لم يبقه الأمر طويلاً على مقعده، فهب واقفاً، وظل يروح ويجيء ملوّحاً بذراعيه. «إنه شخص مؤسف من دعاة السلام، أخوكِ هذا! لقد تم إبلاغي بأنه يرسل خطابات معادية لألمانيا إلى بريد القراء بإحدى الصحف السويسرية. لديه من البجاحة ما يسمح له بالمطالبة باستسلام ألمانيا، بينما يهدد الأعداء باجتياح بلادنا! علينا ألا نستمر في كراهيتنا لإنجلترا، هذا ما يطالب به، بل والأسوأ: يريدنا أن نفرط في مستعمراتنا!» انفعل «ت» بشدة، لدرجة أن بدا لي أنه يؤذي جسده المتثاقل. وقف فجأة أمامي، وفحّ في وجهي، حتى تقهقرت إلى الوراء، إلى الحائط. قال: «أتعرفين ما هذا؟ خيانة للوطن! سوف أعمل على إيداعه السجن إذا ما خطى إلى هنا، سيؤخذ رأساً، إلى السجن!»

«إن هذا في الواقع لا يقع ضمن صلاحياتك» ـ قلت له ذلك ومددت له يدي بمنديل عتيق منقوش بالمربعات الزرقاء، قال إنه لا يرغب في أي شخص آخر في بيتنا. أشرت إلى فمه. «امسح الدم من على فمك، رجاءً».

كانت عيناه ترفّان، وبدت في وجهه حمرة، أفزعتني أكثر من

مسبّاته. أخذ المنديل، مسح على فمه بتعجّل، مما لم يؤدِّ سوى لتلطيخ ذقنه فحسب، إذ كان الدم قد قطّر عليها.

في تلك اللحظة سمعت صوت إيميلي من خلفي؛ كانت قد دخلت إلى غرفة الطعام في صمت، وكانت على الأرجح قد استمعت إلينا لفترة. «لا أريد عراكاً في هذا البيت!» بدت فاترة، بل متكبّرة بعض الشيء، بحة صوتها وحروف العلة المدغمة فقط هي التي أنبأت عن توترها. قالت ل «ت»: «بإمكانك أن تطمئن، فلن يزورنا سعيد هنا. سأذهب أنا إليه في لوتسيرن. فإن خطوط القطارات في سويسرا سليمة».

«لكن تلك مصروفات لا حاجة لها» هكذا أردت أن أردّ. لكنني توقفت عن الكلام بعد الكلمات الأولى؛ كانت التجاعيد قد تشكّلت حول شدق إيميلي. كنت منذ طفولتي أستطيع أن أفهم هذا التعبير. كانت المسألة جديّة بالنسبة لها، لم تكن تريد أن يقف أفراد عائلتها في مواجهة بعضهم البعض، على الأقل ليس بوجه مكشوف.

قال «ت» بهدوء مدهش، على الأرجح فرِحاً بكسبه المعركة: «فلتسافري إذن إليه»؛ عاد إلى مقعده وهوى بكل ثقله عليه، حتى أصدرت مفصّلاته صريراً.

«إنّ أيَّ أُمّ» ـ التفتت إيميلي إليّ ـ «من حقها أن تضم ابنها وأحفادها بين ذراعيها».

فأجبتها: «لا يخلو السفر كل تلك المسافة من الخطورة في هذه الأوقات. إن القطارات تعج بالجنود. وهي لا تلتزم بالمواعيد المقررة لها. وأنت كذلك لم تعودي شابة صغيرة في السن».

حينئذٍ قررت أن تمنحني ابتسامة، وقد انفرجت أساريرها. «كلا، لم

أعد كذلك. لقد علّمتني الحياة الانتظار. وسوف أنتظر حتى تنتهي الحرب. قريباً، على ما أظن. لكن ساعتها سوف أسافر، وحدي».

«قريباً»، ـ همهم «ت»، واضعاً يده على صدره، بعدها ـ بينما كنت لا أزال جالسةً أتحدث إلى أمي ـ لم تصدر عنه ولا كلمة واحدة. في العموم آوى إلى صمته مرة أخرى بعد ذلك المشهد. كانت تلك هي الهبة الأخيرة بالنسبة ل «ت» ولمرة واحدة. ربما كان قد أزاح فردان من ذاكرته لبضعة دقائق، لكنها كانت بداخله، كانت قد خرّبت روحه، والتهمته. هل تستطيع أن تقدّر يا أخي الحبيب، ما قد نجوتَ أنت منه؟ هل تشعر على الأقل بالامتنان، إذ لم تكن مضطراً للتسلق فوق الجثامين في الخنادق الموحلة؟

لكننا مع ذلك في ذاك المساء شربنا القهوة معاً، القهوة الخفيفة باللبن، التي كانت أمي تسميها «مرقاً». بل إن «ت» ترك مقعده بالفعل لينضم إلينا. نزلت البنتان إلينا، أكلتا بعض الكعك، أدارتا أنظارهما بيننا في خجل. بعدها سألتني كبراهما عن سبب ارتفاع صوتنا. أجبتها بإجابة مراوغة. آهٍ، يال عائلتنا المفككة! أما الخال سعيد، الذي كان الحديث يدور حوله، فلم تكادا تعرفانه، كما أنه لم تربطنا علاقات قوية كذلك مع طوني بسبب براندايس. على أية حال، فقد كانت هي، منذ نجاح كتاب الطبخ الذي نشرته، تعاملني بكبر بالغ، كأنني أنا الوحيدة بين الإخوة الثلاثة التي لم تحقق شيئاً. لم يكن أحد يعلم ـ ولا حتى أنت ـ إلى أي حد كنتُ قد ساعدتُ أمي أثناء كتابة مذكراتها. كنت قد أقسمت لها ألا أقول ذلك لأحد، وأنا أقوله الآن، بعد مرور وقت طويل على وفاتها، كما أنني أكتبه إليك، دون أن أعرف إن كنت سوف تقرأه. آنذاك، بعد رحلتنا إلى زنجبار، بدأت تكتب ذكريات طفولتها، لم نكن نحن فقط، بل إن بعض المعارف في محيطها كذلك كانوا قد حثوها

على ذلك أكثر من مرة. كنا نسكن في برلين، في شارع غينتينر (حيث لم تأتِ أنت، عندما كنت طالباً عسكرياً، إلا نادراً). كنت لا أزال أذهب إلى المدرسة، وكانت طوني تعيش في قصر شتاينهوفل، مرافقةً للبارونة ماسّو. ذات ليلة طلبت مني أمي أن أقرأ بداية المخطوط غير المكتمل. لم أكن أكاد أبلغ السادسة عشرة، لكنني كنت أتمتع بحس لغوي جيد وحصيلة كبيرة من المفردات، كما كنت ضليعة في قواعد الإملاء والنحو. شعرت بالفخر لثقة أمي بي، فكنت في المساء أراجع الصفحات التي أعطتني إياها بعناية بالغة. أدهشني كيف صارت أمي في تلك الأثناء تجيد اللغة الألمانية بدرجة لا بأس بها، ومع ذلك فقد كانت كثيراً ما تستخدم أدوات التعريف الخاطئة، وتختلط عليها التصريفات، كما كانت لديها بعض الأخطاء الإملائية. وقد صححتُ كل ذلك، وحين أعطتني المزيد لأقرأه، صرت أتناقش معها حول المضمون كذلك. وقد ألححت عليها كذلك لكي تقدّم وصفاً أكثر مرونة وحيوية لهذا أو ذاك. فقد كنا قد زرنا بالفعل أطلال بيت المتوني معاً في العام السابق، وكانت أمي قد أبدت حزناً على كل الأشياء الضائعة، ولم تحكِ إلا القليل. إلا أن تفاصيل كثيرة جداً كانت قد تجلّت حينئذٍ، بحيث صار باستطاعتي أن أضع نفسي في حياة البلاط، كأنما كنت أنا نفسي طفلة نشأت هناك. هكذا فهمت على نحو أفضل، أي شرخ جذري كان ذلك الذي حدث، حين تحولت سلمى إلى إيميلي. ومرة أخرى كنت أودّ ـ بفضول متلهّف ـ أن أعرف المزيد عن قصة الحب بينها وبين هاينريش، لكنها ظلت متكتمة حيال ذلك، بل بالفعل خجِلة. قالت إنه من غيراللائق إفشاء قصة حب كهذه. أعادت نقل المخطوط بعد تصحيحه مرة أخرى. وقد عقدنا اتفاقاً جديّا على عدم الإفصاح عن مشاركتي إياها في العمل. تم العثور على الناشر، من خلال وسيط،

بسرعة مذهلة، تم تحرير النص مرة أخرى، ثم تمت طباعة الكتاب وحقق نجاحاً كبيراً؛ بل إن أمي صارت مشهورة لفترة، وهو ما لم يريحها. على الناحية الأخرى، فقد كانت تقدّر، أن كتابها «*مذكرات أميرة عربية*» صار على غير المتوقع يجلب لها بعض الإيرادات المالية.

لكنني سأعود إلى السنوات الأخيرة من حياة أمي. فقد صارت الحياة أصعب خلال شتاء الحرب ١٩١٧/١٩١٨، كانت الإمدادات تشحّ، كثيراً ما كان يوضع على مائدتنا البنجر المسلوق. كان «ت» يعلق آماله، بعد السلام مع روسيا الثائرة، على الهجمات الأخيرة في الغرب، وقد صار أكثر تجهمّاً، حين فشلت. أما فيما يتعلق بالهدنة التي عقدت في نوفمبر، والتي كانت تعادل الانسحاب، فقد هز رأسه، لكنه قال مرة واحدة بنبرة فيها شيء من الرضى: «الآن يتوقف القتل أخيراً». بعدها وضع وجهه على الجريدة، التي كان يقرأها لتوّه، وأغمض عينيه، رجل عجوز بوجه متجعّد، ومع ذلك فهو لم يتعدّ الستة وخمسين عاماً. ربما كان هو وبراندايس، في خيبة أملهما المفرطة على مقربة من بعضهما إلى درجة أكبر مما كانا يريدان أن يتصوّرا طيلة حياتهما.

بداية ديسمبر ١٩١٨ سافرت إيميلي بالفعل إليك في لوتسيرن، حيث بقيتَ أنت مع العائلة نصف عام آخر أرسلت بطاقة من بحيرة لوتسيرن، وقد وقّعتما أنت وتيريز عليها، وكذلك أولجا، دون سابق معرفة بيننا، بخط مُخربَش. وقد كتبت أنت على الهامش بخط صغير جداً، يكاد يكون غير مقروء: تحياتنا كذلك لمارتين! كأنما كدت تودّ أن تسأل، إن كان الجنرال قد تعلّم الدرس. وقد بلّغتُ «ت» التحية لكنه لم يقل شيئاً حيالها.

كان من المتوقع، أن تتم إعادة إحياء الدولة البولندية على حساب

ألمانيا، وأن برومبرغ ـ منطقتنا ـ سوف تكون تابعة لها. لذلك انتقلنا في بداية عام ١٩١٩ إلى يينا، إلى بيت أهل «ت»، الذي كان قد ورثه. في هذا البيت لانت طباعه تدريجياً، وتراجعت قسوته كثيراً. لم تفارقه حركة هز الرأس، صارت الآن ترتبط بالتطورات السياسية لجمهورية فايمار، التي لم يعد يثق في استقرارها على هذا النحو. عرفت مرة أخرى كيف أحب طفولة «ت» المتفردة، بعض الشيء على الأقل. أما كون أمي سوف تعود إلينا مجدداً، بعد إقامتها الثانية في لوتسيرن، فقد كان ذلك بالنسبة له أيضاً أمراً بديهيّاً. كانت غرفتها في الطابق الثاني هي الأصغر ضمن غرف المنزل، لم تكن تريد غرفة أكبر. بدا لي الأمر كأنما كانت ترغب في أن تدع حيز حياتها يتقلّص أكثر فأكثر باختيارها. كانت هي و«ت» يتصرفان في بعض المساءات بمبدأ إن في العجلة الندامة، وقد رأيت كيف كان كلاهما يضحكان، وهو ما كنت لفترة طويلة أعدّه مستحيلاً.

ذات ليلة أفصحت لي عن أنها كانت قد كتبت ـ بعد مذكراتها ـ نصّاً عن أيامها الأولى في ألمانيا، سراً، أجل، وعلى شكل رسائل إلى صديقة قديمة في زنجبار، من دون أية نية لإرسالها، وليكن فقط لأنها كانت قد عبرت عن أفكارها باللغة الألمانية. قالت إنها تكتب بين الحين والآخر في هذا النص، أو تضيف إليه، وأنها تشعر بالارتياح تجاه تقديم كشف حساب يخص عجزها آنذاك. تأثرت بشدة وسألتها إن كانت تسمح لي بقراءة المخطوط الجديد، وإن كانت تفكر في نشره. هزت رأسها: كلا، إن أحداً لن يرغب في قراءته، فهو نص حزين للغاية، كما إنها لم تعد بحاجة لمصحِّحة لغوية، فقد صارت اللغة الألمانية حالياً مألوفة لها كما كانت اللغة العربية تماماً. لكن نحن الأبناء، علينا أن نعرف بعد وفاتها، ما كانت قد مرت به لاسيما في هامبورغ؛ هكذا قد

نفهم أيضاً حالاتها المزاجية الكئيبة. أما ما نفعله وقتها بتلك الدفاتر، فإن هذا شأننا.

قلت لها: «آهِ يا أمي. لا تتحدثي عن هذا، فإنك سوف تعيشين طويلاً».

ملست بلطف على ذراعي والتزمت الصمت. ثم أشارت إلي، أين كانت تضع الدفاتر في دُرج المنضدة الصغيرة بجوار سريرها، في الدُرج نفسه الذي كان فيه كيس الرمال الصغير، الذي كانت قد جلبته معها من زنجبار. وعدتها أن ألتزم بتعليماتها. مرة واحدة ـ أثناء زيارتها لك ـ لم أستطع مقاومة المحاولة، أن أخرج أحد الدفاتر وأتصفح ما بداخلها. وما لبثت أن أوقفت المطالعة، إذ كان الموضوع يدور حول حادث هاينريش وموته، ولم أتحمل أن أضع نفسي في موضعها آنذاك. وعليه أعدت الدفتر إلى جوار الدفاتر الأخرى وقد أعمتني الدموع، ولم أتساءل سوى لاحقاً، لِمَ صارت لغتها الألمانية الآن تكاد تخلو من أي عيب. لا شطب، ولا تصحيح على الصفحات. هل كانت تلك نسخة نهائية؟ أغلب الظن أن أحداً كان قد ساعدها هنا أيضاً. لكن لم يكن ذلك ممكناً، كنت لألحظ ذلك. إن كان الأمر كذلك أم لم يكن، يعدّ هذا بالنسبة لي حتى اليوم لغزاً، وقد أخذته ـ كما فعلت بأمور أخرى ـ معها إلى القبر.

أخذت تضعف في السنوات التالية، رغم جلادتها المدهشة، ظلت تفقد المزيد من الوزن. كان الرأي العام قد نسي تقريباً الأميرة العمانية وزنجبار. زارت أنطوني بضعة مرات، وقد كانت في تلك الأثناء انفصلت عن براندايس، وانتقلت إلى هامبورغ، مسقط رأسنا. مرة أخرى تقابلت معك، في صيف عام ١٩٢٣، في لينداو على بحيرة بودن

زي. قبل ذلك بفترة قصيرة، كانت حكومة زنجبار قد اعتمدت صرف منحة سنوية قدرها مئة جنيه للأميرة السابقة. كان الفضل - وإنني أقدر لك هذا - يعود في المقام الأول لمساعدتك أنت، أي لمخالفاتك، والتماساتك إلى السلطنة وإلى الحكومة البريطانية، وقد كنت أنت من انتزع منها الموافقة على التنازل، التنازل بشكل نهائي عن كل ما تبقى، مما كانت تأمل فيه من زنجبار. كان الوقت قد حان لذلك، لكنه ربما يكون كذلك قد سلبها آخر ما لديها من جسارة على الحياة، آخر طاقة للنضال، والتي كانت لاتزال تبقيها منتصبة القامة. بعد عودتها من بودن زي، صارت تكاد تكون صامتة تماماً مثل زوجي. كنا ثلاثتنا فحسب في البيت، فقد كانت البنتان تدرسان في ميونيخ، وكنا نعيش كزوجين، ما يشبه الحياة في الظل. إنني لا أنكر أننا، قبل الأحداث التي كانت أشبه بحرب أهلية، كنا نودّ أن نختبئ في ألمانيا.

ذات مرة عبرت إيميلي عن فكرة، أن تعود رغم كل شيء - لكي تموت، كما قالت ذلك بموضوعية شديدة - إلى الشرق؛ لم تعد تتطرق للأمر بعدها أبداً. لابد أنه كان قد اتضح لها، ما كنت أحتج عليه: أنه سيكون باستطاعتها هنا الحصول على الرعاية، إذا ما احتاجتها، على نحو أفضل مما ستتلقاه في بيروت أو في زنجبار، وأعني رعايتي أنا.

أنا مرهقة، يا أخي الحبيب، الضوء ضعيف، مصباح زيت قديم يقوم بمهمته وامضاً لي أنا المرأة المسنة، فإن الكهرباء مقطوعة عنا منذ أيام، من بعيد الآن، انفجارات. أحياناً أصلي لكي يبقى بيتنا محفوظاً، في الطابق الأرضي تعيش إحدى الأسر الناجية من القصف، أناس لطفاء، لا أكاد أسمع لهم صوتاً. غداً سأذهب لإرسال هذا الخطاب. سوف أرسله على عنوانك القديم في لوتسيرن. فلن يتم حمله أبداً إلى لندن.

١٥

سأكتب لك عنواني باللغة والحروف الألمانية على ورقة منفصلة. ليل نهار سأكون في انتظار ردّك. ومرة أخرى يا أخي، لا تُقسّ نفسك عليّ. إن الشقاء الذي حلّ بي، يثقل عليّ بشدة. فإذا أنت صفحت عني، سيرضى عنك رب العالمين.

نهار الأحد. كان عندتيريزوكان قد وجدها على حالها لم تتغير، ضعيفة وشاحبة، ومع ذلك ثرثارة. كان يحاول إقناعها وإقناع نفسه أنها ستصحّ قريباً، وكانت هي ـ مرتدية المعطف الصباحي ـ تستعرض له كيف أنها عادت تستطيع أن تمشي بضعة خطوات، بل إنهما خرجا بالفعل إلى الرواق وتمشيا لبعض الوقت روحةً وجيئةً، وقد حاول أن يتجاهل الاستماع إلى أنفاسها، كم كانت أنفاسها ضحلة ومتسارعة.

على أريكة الزوّار الصغيرة إلى جوار الدَرَج جلسا ليستريحا قليلاً، أسقطت تيريز نفسها بقوة على الأريكة، بحيث تصاعدت من الفرش سحابة من التراب. تحدثت عن حرارتها، التي كانت ترتفع غالباً في المساء، وعن أولجا وصمتها المستديم، وحكى هو عن أنه ينوي الآن بالفعل ـ في ظل خطط إنشاء دولة يهودية ـ إعداد مقال عن الوضع المتأزم للعرب في فلسطين، وأخذت هي تعدّ من كان لايزال مفقوداً من

أقاربها. بطرق غير مباشرة ـ هكذا كان يحدث كثيراً ـ كانا يعودان إلى سنواتهما اللندنية، التي طالما طغت عليها بشكل متزايد الأحداث في ألمانيا. كان ما يحدث هناك، يستعصي على رودولف فهمه. كيف تتبع الأغلبية الشعبية دجالاً، ومدعياً شاذاً، وصل إلى منصب مستشار الإمبراطورية، نظراً لتضافر مجموعة من الأحداث المؤسفة؟ ألمانيا تلك، التي كان قد تم وصمه فيها بخيانة الوطن، صار ينفر منها شهراً بعد شهر، أكثر فأكثر. فهل كان يفترض به في ظل هذه الظروف أن يبقى ألمانياً؟ بأم عربية، وزوجة يهودية، كان في جميع الأحوال لا يعدّ آرياً خالصاً. ومع ذلك فقد كلفه الأمر الكثير من العناء، للتقدم بطلب الحصول على الجنسية البريطانية، وحين صار ـ في شهر نوفمبر من العام ١٩٣٤ ـ بريطانياً بالفعل، لم يكن بأي حال من الأحوال يشعر بالسعادة، وإنما فقط بالطمأنينة، من أجل تيريز قبل كل شيء. أما كونه قد اضطر بعد ذلك إلى تسليم جواز سفره الألماني، فقد كان ذلك أكثر إيلاماً له مما كان ليظن. بحث في ألبوم صوره عن صورة لذلك الملازم المتخرج لتوّه، وقد وقف هناك منتصراً، في كامل هيئته، وبشارب فيلهيلم الثاني؛ فقد كان كل الجنود الشباب آنذاك يودّون أن يظهروا بمظهر القيصر. كم كان ـ وهو الألماني العربي ـ فخوراً بألمانيته! إلا أن الشروخ الأولى كانت قد حدثت بالفعل خلال تلك الأجواء القومية المتعالية. لكن أن يظل شعوره يتفتت على نحو متزايد، فهذا ما لم يكن ليظن أنه ممكن.

وصلا بالحديث ـ وهما جالسان على مقربة شديدة من بعضهما ـ عن تلك السنوات، التي كانت أوضاع اليهود خلالها تزداد تأزماً في الرايخ الثالث، وعندما تسربت إليهما الأخبار الأولى المفزعة عن معسكرات الاعتقال. رغم أنه لم يكن يريد ذلك على الإطلاق، إلا أنه تطرق مرة

أخرى إلى قضية هيدفيغ كلاين. كانت في ربيع عام ١٩٣٨، قد لجأت إليه من أجل المساعدة والمشورة. كانت يهودية تدرس العلوم الإسلامية في هامبورغ. وكان بحثها عن تاريخ سلطنة عُمان قد تمّ تقييمه من قِبَل أستاذها، بدرجة امتياز مع مرتبة الشرف؛ إلا أن العميد كان قد رفض، أن يمنح فتاة يهودية درجة الدكتوراه. فكانت حينئذٍ تحاول أن تحصل على تأشيرة سفر، للحصول على وظيفة في أي مكان خارج البلاد. كتب رودولف لأجلها خطابات توصية إلى بعض المستشرقين من معارفه في هولندا، وفي إنجلترا، وفي الولايات المتحدة الأمريكية، وقد وصلته ردود ودّية بالرفض. أرسل نسخاً من رسالة الدكتوراه الخاصة بها إلى سلطاني عُمان وزنجبار. سأل عن إمكانية وجود فرصة هناك، للعمل في الأرشيفات، أو في مجال أبحاث الأنساب؟ كلا، للأسف لا توجد.

كانت هيدفيغ كلاين على الأقل ترغب في استئناف أبحاثها، إلا أنه بموجب القوانين العرقية لم يعد لديها حق استخدام المكتبة الجامعية. فرتّب رودولف من لندن، إتاحة كتبه الخاصة لها. إلا أن مصلحة الجمارك الألمانية لم تعد تسمح بمرور طرود الكتب. فكتبت هي في النهاية، أنها قد تقبل وظيفة جليسة أطفال أو مدبرة منزل، وأنها لم تكن تريد سوى الخروج من ألمانيا. لكن رودولف لم يجد لها وظيفة.

صارت نبرتها في الخطابات بعد بضعة شهور أكثر إلحاحاً. إلا أن ارتياحاً كبيراً بدا محسوساً في جُمَلِها، عندما أتيحت لها فرصة السفر إلى مومباي، لتعمل سكرتيرةً لأحد أساتذة العلوم الشرقية. كانت في الطريق بالفعل، عندما اندلعت الحرب، فاضطرت السفينة للعودة، وصارت هي عالقة مرة أخرى في هامبورغ. لم تعد تصل إلى لندن

سوى بعض الخطابات المتفرقة، ثم توقفت تماماً. فتعيّن الافتراض بأنه قد تم نقلها إلى أحد المعتقلات.

«آهٍ يا تيريز» ـ قال رودولف ذلك بينما اتكأ دون وعي منه على كتفها ـ «لم أفعل سوى القليل جداً من أجلها، لقد فشلت، في الكثير جداً من الأمور كنت قد فشلت».

«ما الذي كان بإمكانك فعله بعد؟» ـ سألت تيريز مملسةً على يده.

فعارضها رودولف: «كان علينا أن نستقبلها في بيتنا. ربما كانت لتتمكن بالفعل من الحصول على تأشيرة سفر، وقد كان بإمكاننا كذلك أن نجمع لها بعض المال. كانت موهوبة، وكانت لتصير سكرتيرة جيدة».

«أجل، ومن كذلك؟ كان الآلاف في نفس موقفها، تحديداً أيضاً شباب من عائلتي. وأنت تعرف كم كان المكان لدينا محدوداً بعد القصف، وبعد انتقالنا من مسكننا، كما أنه لم يكن لدينا من المال ما يكفي لنبدده. ولا تنسَ: لقد رتّبنا للعشرات ممن استطاعوا السفر سكنا في لندن. بل إنك وفرت لبعضهم وظائف كذلك».

«هذا صحيح» ـ قال رودولف بائساً ـ «لكن ذلك لا يواسيني». توقف عن الكلام، وقد بقيا جالسين لبعض الوقت، بينما مرت إحدى الممرضات أو أخرى ملقيةً التحيّة. ثم عادا إلى الغرفة. ساعد رودولف تيريز لكي تستلقي مجدداً، وتقطعت أنفاسه هو نفسه أثناء ذلك.

كان الحديث القصير عن هيدفيغ كلاين قد أثار الغضب في نفسه، لم تغِب عن خاطره أبداً، ولا لحظة منذ ثمان سنوات. كانت الذاكرة تبهُت أحياناً، ثم كانت تعود تصير واضحة على نحو مؤلم، كان الأمر يبدو كأنها قذفته بخيوط، فربطته بوجودها. بحث عن صورتها في غرفة

الفندق. تذكّر أنها كانت موضوعة بين صفحات رسالة الدكتوراه الخاصة بها، والتي كان قد أحضرها معه من لندن، ربما لأنه كان يعتقد أن بإمكانه أن ينقل استشهاداً منها في إحدى مقالاته. تصفح الأوراق المدبّسة، وهزّها، فانزلقت الصورة منها، صورة جواز سفر، حرفها مسنن بدقة، بل ومصفرّ بالفعل كذلك. رفعها وسوّاها بين إصبعين. كانت قد أرسلت إليه تلك الصورة، اعتقاداً منها أنه سوف يرفقها بإحدى استمارات طلبِ وظيفةِ مساعدة، فبعد عدة وعود مبهمة من ناحيته، كانت متأكدة أنه سيوفّر لها وظيفة كهذه، حتى وإن كانت براتب هزيل. ليس وجهاً يهودياً تقليدياً، خطر ذلك له، ثم وبخ نفسه على هذا الخاطر. شعر أسود لامع، قصير، نظرة منفتحة، مستريبة بعض الشيء، وابتسامة خفيفة. كانت تصغر أولجا بعام واحد، مولودة في أنتفيربن؛ فتاة، استيقظ بداخلها في وقت ما، لأي سبب كان، اهتماماً صادقاً بالإسلام وبسلطنة عمان، وهكذا تقاطت طرقهما، كتابةً على الأقل. نعم، كان من الممكن أن تكون ابنته، ولم يكن لينجح في مساعدتها. الغريب أن ذلك بدا له أقرب من الافتراض - غير المؤكد بعد - بأن بنات عمومة تيريز قد تم اعتقالهن. لم يكن قد رآهن سوى بضعة مرات، ولم يكد يتذكر وجوههن. أما هيدفيغ كلاين في المقابل، فقد لجأت إليه عبر بحر المانش؛ كانت كلماتها الراجيّة، المتوسّلة، مرصوصةً إلى جوار بعضها بخط منمق، كانت لاتزال تجلجل في نفسه.

لم تكن إيميلي لتنفع طالبة الدكتوراه كلاين، وإن كان ذلك رأي سطحي. ومع ذلك كانت هنا أيضاً بعض خيوط الارتباط، التي كانت تتقاطع في ضميره. كان مناسباً له كون أمه كانت تعيش عند روزا، كان قد حدّ من مقابلاتهما على نحو متزايد. فلم يكن قد تغلب على كآبتها، ونوبات الحزن التي تصيبها. فهو إذا ما سمح لنفسه بالانخراط بقوة في

ذلك، كانت تسحبه معها في ذلك الشقاء القاتم؛ فقد كان هو الآخر يرى حياته أحياناً حياةً فاشلة، ضالة. فإن كل مساعيه لخدمة السلام، لم تجدِ شيئاً. وأما على المستوى البسيط، أي أن يخدمها، هي أمه العجوز، فإن ذلك لم يكن ممكناً له. كانت أشياء كثيرة بداخله تعارض ذلك. لا بد أن ذلك كان مرتبطاً أيضاً بالعلاقات الخرِبة بين إيميلي وتيريز؛ فهو، من كان يدفع من أجل المصالحة في كل مكان، كان أجبن من أن يدفع لحوار بينهما. كانوا يلتزمون الصمت، الثلاثة جميعهم؛ فقد ظلوا سنوات يقابلون بعضهم ـ إذا ما تقابلوا أصلاً ـ بابتسامة متشنجة، يهودية وعربية وهو، الذي يعتبر نفسه مواطناً عالمياً، في الوسط بينهما.

تذكر تلك الأسابيع، التي كانت إيميلي قد قضتها معهما، في بداية عام ١٩١٩، في لوتسيرن. هذا الاحتكاك الحذر والفاتر بين السيدتين. صورة مكتملة الوضوح: على مائدة الطعام قرنبيط مطهو على البخار، مسقي بالزبدة المحمّرة، مع خليط البيض والبقدونس، كانت تيريز قد أعدته على الطريقة اليهودية. تريد أن تضيّف حماتها. تضع إيميلي يدها فوق طبقها، وتلتفت إلى رودولف: «إنني لا أحب القرنبيط من الأساس».

يحمرّ وجه تيريز: «لقد نسيت ذلك، آسفة. هل أعد لك حساءً؟»

تتصدى لها إيميلي: «لست جائعة. قطعة خبز تكفي».

تزيح أولجا الصغيرة الطبق من أمامها، وتغمغم: «أنا أيضاً لا أحب القرنبيط!»

يُفترض برودولف أن يعاقبها، لكنه لا يفعل، لكأن فمه مدروز. تنهض تيريز، ترفع طبق القرنبيط، وتضع بعض الخبز والزبد، ومربى

التوت البري المصنوعة في البيت، على المائدة. تنظر إيميلي إلى الأسفل.

تقول تيريز لزوجها متجاهلة حماتها: «حسناً، هي لا تريد سوى الأرز دائماً. بينما ليس هناك ما هو أكثر صحيةً في الشتاء من الخضروات».

يومئ رودولف، ويلتفت لأولجا: «على الأقل كان بإمكانك أن تتذوقي بعضاً منه». يرى أن تيريز تومئ هي الأخرى، بينما تسحب إيميلي الهواء من أنفها بحدّة.

كثيراً ما كان يشعر، أن كلمة واحدة خاطئة قد تكون كافية، لكي تشعل مشاجرة عنيفة بين السيدتين. ربما كان الأمر ليصير أفضل إذا ما صرخت كلّ منهما في وجه الأخرى؛ لكن ثلاثتهم كانوا يعرفون كيف يمنعون أنفسهم من ذلك حد الاستسلام.

كان لايزال يمسك بصورة هيدفيغ كلاين المتجعدة بعض الشيء. أعدها مرة أخرى بين صفحات رسالة الدكتوراة، لكنه قرر بعد ذلك أن يدسها في أحد الكتب، حيث يمكن أن تُضغط فتعود ملساء كما كانت. المجلد الذي مد يده إليه، حيث كان على الرفّ الصغير، كان كتاب «*مذكرات أميرة عربية*»، المنشور قبل ستين عاماً. طالما كان يسافر معه، مثله مثل القرآن والإنجيل؛ كان قد قرأه عشرة مرات على الأقل. كان يحفظ بعض الفقرات تقريباً عن ظهر قلب، ومع كل نص جديد كان يتعثر مرة أخرى في المسافة بين تلك الطفلة المتوقدة، التي كانت تعربد في أنحاء القصر، والسيدة البالغة التي لا تشبه تلك الطفلة على الإطلاق. لكنه لم يكن يعلم لمَ صارت فجأة صورة اليهودية هيدفيغ كلاين وذكرى أمه متوائمتين. ربما لأن كليهما كانت قد ناضلت وعانت

خلال حياتها؟ تردد وترك الصورة على المنضدة الصغيرة بجوار السرير. أما الكتاب فقد أخذه وجلس به في حجرة القراءة عند النافذة، التي كانت في ذلك الوقت من بعد الظهيرة لاتزال تسمح بدخول ما يكفي من الضوء. كانت قد مرت حوالي عشر سنوات حينئذٍ، على آخر مرة فتحه فيها. انهمك في قراءة الفصل الأول، الذي كان يصف طفولة سلمى في بيت المتوني، والقصر، الذي لم ير منه سوى أطلال، ومرة أخرى تصاعدت في نفسه صور ذلك العالم الغائر. الكثير من الحيوية نضحت بها ذكريات سلمى، الكثير من المرح. طفلة لاهية بلاِ هموم، وقد ساوره الأمر حتى وأمه على فراش الموت، تلك الصغيرة الثرثارة بألاعيبها، والفارسة على الحمار الأبيض. أما ما يخص دفاعها العنيد عن مسألة العبيد، فقد اضطر أن يتناساه؛ كانت هناك بعض الفقرات التي لم يفهمها أبداً. كانت تصون نفسها بها من وخز الضمير؛ فقد كان أبوها، بل وهي نفسها، يملكان العبيد. وعلى الرغم من أنه صحيح فعلاً، أن طبقة البروليتاريا العاملة في المصانع الأوروبية كان حالها أسوأ من حالة العبيد في زنجبار، إلا أنها بذلك تخطئ تقدير الجور الذي يتمثل في معاملة البشر كسلعة، والمتاجرة بهم. وقد كان ذات مرة قد شطب على تلك الصفحات القليلة التي تحتوي على التبريرات، مثل رقيب غاضب، بقلم رصاص مسنن، بل ظللها حرفيّاً وسوّدها. ومع ذلك فقد كان هو نفسه - في كتيّبه الخاص عن جده سعيد بن سلطان - قد تكتم إلى حد كبير على مسألة العبودية وما تمثله من ظلم. وقد أخذ يمعن النظر الآن إلى أوجه النقص، بينما حلّ المساء بالخارج، وابتسم تجاه نخوته الشخصية، وتناقضاته. آهٍ يا بيبي، لقد انخدعتِ في الكثير من الأمور. وقد حدث ذلك لي أنا أيضاً. ولابد لنا في وقت ما أن نتحمل مسئولية أخطائنا. كنت أتمنى أن أستطيع تغيير العالم. لكن ربما

كان الأهم هو أن نعيش مع أولئك الذين نحبهم لحظات من السعادة، وألا ننساهم.

انتهى وقت الطعام. تشعره صحبة المائدة ـ التي لم تتغير منذ أسبوعين ـ بالملل. فكلٌ يخشى أن يقع في شجار ما، فيقتصر كلامه على الأحاديث القصيرة. فايتسمان يلتزم الصمت في معظم الأحيان، وتفوح من السيدة بلوخ رائحة عطر حلو، أما بيكوك الأمريكي، فهو يمدح نفسه وبلاده بلغة ألمانية رديئة، ويحاول زراسين إخفاء آرائه شديدة المحافظة. وهو، رودولف؟ ماذا عساه يقول؟ هل لايزال لديه، بعد كل ما حدث، موقفاً واضح المعالم؟ ألم يكن بالفعل قد ضاع منه منذ زمن؟

مرة أخرى في غرفته، يستلقي على الفور على سريره، لكي ينام. لكن ها هي سلمى، ها هي إيميلي. أي هدوء مفاجئ، حين رقدت، جثة هامدة، كالتماثيل، في كل دقيقة يزيد شعوره بالاغتراب تجاهها، وقد تكبد العناء، لكي يطبع قبلة على جبهتها. كان لابد من فعل هذا، إنه واجب الابن. إلا أن هناك مع ذلك حركة، أصوات أطفال. الكلمات الأخيرة، التي تلقاها منها: «هل تسمعون الأطفال يتضاحكون؟»

فوضى اللغات في ساحة القصر الكبير، بهاء ألوان الأردية، وألوان البشرة المتنوعة. يتم التحدث بالعربية، والفارسية، والتركية، والسواحلية، والنوبية، والحبشية، والهندية، وأنت تلتقطين بضعة كلمات من كل واحدة منها. الطواويس تختال في أنحاء الساحة، كما يوجد نعام أحمر، وبجع، وأنت تحبين إطعام الغزلان، وتلعبين الغميضة مع أخواتك غير الشقيقات. وعندما تجدن بيضة نعام، تجلبنها

لرئيس الطباخين، وتحصلن مقابلها على ملء أيديكن حلوى، تقسّمنَها فيما بينكن. شعركِ مجدول في ضفائر صغيرة، وعلى ظهركِ مشبك شعر ثقيل من الذهب، كان أبوكي قد أهداكِ إياه، فهو لا يعود من رحلاته أبداً من دون هدايا. تتقربين إليه بخشوع، لكن بلا خوف، يجلسك برهة على حجره، يملّس على وجنتك، تفوح من يديه رائحة الخيل، وخشب الصندل، والقرفة، رائحة لا تخطئها الأنف.

المدرسة: تلك أيضاً صورة جليّة. بنات في عمر السادسة والسابعة جالسات على الأرض، يتعلمن القراءة تحت ناظري المدرّسة الصارمة، أما الكتاب المدرسي فهو القرآن. من تريد يمكنها إحضار جاريتها معها، على مسافة واضحة من أبناء السلطان. أحياناً، عندما كانت المدرسة تهدد باستخدام العصا، تختبئن منها، تتسلقن أشجار البرتقال المزهرة، المصفوفة إلى جوار الحمامات. ضحكات جذلة من هناك ومن أعلى، رائحة أخاذة تحبس الأنفاس.

تنزعن أنتن الخمسُ بضعة ريشات من ذيل طاووس هائج، بعدها يتركّكن لحالكن. مرة من ذات المرات تتسلقين شجرة جوز الهند حافية القدمين، تنادين على العابرين من الأعلى، فإن أكثر من ألف شخص يعيشون في بيت المتوني. تفرحين لأنهم يفزعون، يعنفونك على جرأتك، ولا تنزلين إلا طاعةً لأمك، التي يكون قد تم تنبيهها.

يال فضولك غير القابل للترويض! إن الكتابة ليست مقررة على البنات، لكنك تعلمين نفسك إياها، تنقشين سراً حروف أول سورة، بإبرة على جلد ظهر جمل باهت. درس الفروسية مع أحد الخصيان. تحصل كل أميرة على حمار أبيض، ذيله مخضب بالحناء، أما اللجام فيلمع برقائق الذهب والفضة. تتعثرين في الرمال عدة مرات قبل أن

تجلسي على السرج. لا يهمك هذا، وعندما ينطلق الحمار عادياً، تهللين من الفرحة، هكذا وصفت الأمر، وأنا لم أسمعك يوماً خلال حياتك تهللين. أبيض بياض الثلج، هكذا وصفت الحمار لاحقاً في ألمانيا. فإنك لم تتعرفي على الثلج سوى عندنا، وهكذا أذبت بهذا التعبير الحياتين معاً. هكذا نجحتِ هنا على الأقل، في الأمر الذي كان فيما عدا ذلك يصعب عليك، كلا، بل صار في النهاية مستحيلاً.

أكثر ما كنت تحبينه كانت تلك الرحلات إلى المزارع. تستغرق الاستعدادات عدة أيام. بعد صلاة الفجر، قبل شروق الشمس بقليل، تنطلق القافلة، بضعة عشرات من الأشخاص، أمهات، وأطفال، وعبيد، وخصيان، ملتزمون في البداية، خلال عبور المدينة، ثم متحللون في بهجة من كل شيء. يحمل السود الزاد والزواد في سلاّل على رؤوسهم، ويسحبون الأطفال الذين يحفزون حميرهم للإسراع، وآخرون يقون سيداتهم من الشمس بالمظلات. الاستقبال الحافل بعد ذلك في المزرعة، المأدبة، الوضوء قبل صلاة العصر. في المساء يطلق بعض الهنود الألعاب النارية، ويقدّم السود رقصاتهم بالضرب بالأقدام، يستلقي الناس على حصائرهم التي جلبوها معهم، تحت القمر والنجوم، يتهامس كلٌ، ويقهقه مع جيرته، حتى تغفل الأعين.

كل هذا يتجلى لرودولف وهو شبه نائم. كان ليحب أن يكون طفلاً مثل سلمى، ابن سلطان في أحد قصور الجزيرة. كلا، ليس حاكما، بل فقط ابن حاكم، ابن محبّب. ومن أجل الطقس شديد الحرارة توجد أشجار المانجو القوية، حيث يمكن للمرء أن يحلم وهو يتطلع إلى البحر في دهشة. أنشودة رعوية مثالية؟ لكنه يعرف بالفعل أن تلك هي نصف الحقيقة فحسب، فإن المرء ليجد الشقاء خارج القصر. الصور تعتم على أية حال. يتوفى والد سلمى على نحو غير متوقع، وعمرها

أحد عشر عاماً، على متن السفينة بين عمان وزنجبار. يدوّي النواح في الحجرات البعيدة طيلة أيام. يبدأ صراع السلطة بين الأبناء، تنقسم السلطنة، يعتلي ماجد العرش في زنجبار، بينما لا يكاد أخوه برغش يتحمله على مضض، ولا يلبث أن يخطط لانقلاب، لكي يصبح هو السلطان. تأخذ أخت سلمى المفضلة ـ خولة ـ صفه، وتقنع سلمى بأن تشارك معهما في التحضير للانقلاب. وهي تريد بأي ثمن ألا تفقد عطف خولة، فتبدي استعدادها لتولي مهمة توصيل رسائل برغش إلى بقية المتآمرين، وتصير محررةَ محاضر المقابلات السرية، تصير الرسول. لكن ماجد يعرف بأمر خطة برغش، فيتم تطويق منازل المتآمرين، ويفشل الانقلاب، وهو ما يرعب الأختين. أما برغش الذي تساعدانه على الهرب في ملابس نسائية، فيتم ضبطه ونفيه. ويتم معاقبة سلمى بالإقامة الجبرية. وتحديداً بسبب تسامح ماجد إلى حد كبير، تشعر هي بالخجل.

لقد انكسر شيء بداخلك، والذنب ذنبك أنت. ربما لذلك كنت تتحينين الفرصة لإيجاد بدائل أخرى للحياة، وربما لذلك فتنك الأوروبيون على هذا النحو. في البيت الذي تسكنين فيه الآن في المدينة، يدفعك الحال حتمياً باتجاه هاينريش، إلى السعادة، وإلى الويل. تريدين أن تتبعي الغريب، وأن تنسي في بلاد مجهولة، ما كنت قد فعلتيه، وأن تتمّي الشقاق إلى آخر مداه. أم كان الأمر غير ذلك يا أمي؟ اضطررت لارتداء القناع المطرز بالذهب، بعد أن بلغتِ الخامسة عشر من عمرك. لم أكن قد رأيت هذا القناع في حياتي، ومع ذلك فقد كنت تضعينه على الدوام، حين كنت أودّ أن أعلم، كيف كنت تبدين في أعماقك؟ من كنتِ يا أمي؟ من كنت في أعماق أعماقك؟ لم أكن قد عرفت ذلك، سوى بعد أن قرأت الخطابات التي تركتيها بعد وفاتك. كان الوقت قد تأخر ليتعرّف كلٌّ منا على الآخر.

١٦

أتمنى منك يا أخي أن تحتفظ بما أفشيت لك عن الإنجليز لنفسك. لقد أطلعتك على ذلك فقط لأنني أحبك وأريد أن أقف إلى جوارك. الصور التي أرسلها مع الخطاب تظهر ابني سعيد. وإذا كنت ترغب في رؤية صورة لبنتيّ كذلك، فإن الأمر لا يتطلب سوى إشارة منك، ولسوف أرسلها لك في أقرب فرصة ممكنة.

يينا، في ٢٧ مايو ١٩٤٣

سأكمل حديثي يا عزيزي سعيد، أحكي لك ما تعرف معظمه بالفعل، لكنني سأحكيه من وجهة نظري أنا. فلا يغضبنك ذلك مني، ربما تكون الآن قد صرت مستعداً لتقبل أنني أحياناً قد أرى بعض الأشياء بطريقة مختلفة عما تراها أنت.

منتصف شهر فبراير ١٩٢٤، بعد عدة أيام شديدة البرودة، بدأ السعال يشتدّ على أمي. فتجرعت تلك الأدوية المعتادة، التي لم تكن تنفع شيئاً بالمناسبة، وظلت أياماً تتردد في استدعاء الطبيب. دمدمت بأن التفسير بسيط؛ مرة أخرى كنا نواجه عنادها الخالص الذي يصعب التغلب عليه، والذي كان على الأرجح مستنداً إما على الحياء، أو على الخوف. وعندما ارتفعت حرارتها، وصارت تبصق بلغماً، وتشتكي من

ألام في الصدر، حثثتها على أن تدع الدكتور شفارتس، طبيب العائلة، يفحصها. وقد بدت على وجهه ملامح القلق، حين غادر غرفتها. همس لي بأن صفير أنفاسها، وبداية أعراض ضيق التنفس، وكل الأعراض المتبقية، جعلته يشتبه في التهاب رئوي. حسناً، يمكن أن تكون لذلك نهاية غير محمودة. نصح بالراحة التامة في السرير، وترطيب الهواء، وتدفئة القدمين، واستنشاق الأعشاب المغلية. يمكن المساعدة على طرد البلغم بشرب الشاي المحلّل له، كما يمكن ضرب المريضة على ظهرها ببعض القوة. نزل السلم كالسائر أثناء النوم، فما من طبيب يحب أن يُسَلّم بأنه لا يملك من الأمر شيئاً في النهاية. لم ألبث أن أرسلت في الليلة نفسها برقيتين إلى هامبورغ وإلى لندن، أخبرتك أنت وأنطوني: إن أمنا مريضة جداً، وإن عليكما الإسراع إن كنتما توَدّان اللحاق بها حيةً. وقد رددتما أنتما الاثنان بأنكما ستأتيان بأسرع ما يمكن. أما «ت» فقد قلت له، إن عليه الآن أن يتقبل، طوعاً أو كراهةً، أن سعيداً سوف يدخل بيتنا؛ فلا يمكنه أن يحرم ابناً من أن يودّع أمه المحتضرة، كما إن الوقت قد حان لطيّ الخلافات القديمة. جلس «ت» على مقعده كالمعتاد ونظر إليّ متشكّكاً، كان سمعه بالفعل قد ضعف قليلاً، ولم أعرف إن كان قد فهم ما قلته على نحو صحيح. لكنه حينئذٍ أومأ، بل وإن ابتسامة خفيفة زحفت على وجهه. قال بلطف شديد: «نعم، حسناً، بإمكانه أن يأتي على أية حال. أليس يقال: إن الوقت يشفي الجراح؟!»

في زيارته التالية شخّص الدكتور شفارتس التهاباً رئوياً مضاعفاً، ووصف تقطير المورفين عند الحاجة، كما ألمح بطريقة غير مباشرة إلى احتمالية ألا تعيش إيميلي أكثر من أسبوعين أو ثلاثة، وليس أكثر من

ذلك بكثير. أما نقلها للمستشفى فلم يكن له معنى، إذ إنه لم يكن من الممكن علاجها أو الاعتناء بها أفضل من هنا.

وصلت أنطوني قبلك (لم أكد أتعرف عليك، فقد كان وزنك قد زاد بشكل ملحوظ)؛ ولكننا قضينا الأيام الخمسة الأخيرة من حياة إيميلي سويّاً في البيت. أظنّك أنت أيضاً لم تنسَ ذلك. كان وقتاً غريباً، وحزيناً، ومع ذلك أحياناً ـ من قبيل المفارقة ـ احتفالياً ومبتهجاً. فمنذ ذاك العام في بيروت، لم نكن قد تقاربنا على هذا النحو أبداً. كانت قصة في سبيلها إلى النهاية، وقد بدا الأمر كأنما كان ذلك يمنحنا نحن الإخوة بداية جديدة. أما بالنسبة ل «ت» فقد كان الأمر مختلفاً. صحيح أنه حيّاهم بطريقة مشاكسة، وهو لطف بالقياس إلى أسلوبه، لكنه آوى إلى عزلته بعد ذلك، حمل مقعد القراءة الخاص به من الصالون إلى غرفة مكتبه. لكي لا يزعجنا، هكذا زعم.

كانت إيميلي مستلقية، بمنتهى الهدوء، لا أعتقد أنها كانت تشعر بعناء كبير، رغم أنها كانت تتنفس بصعوبة. سوف تتذكر: كنا أحياناً نجلس نحن الثلاثة حول سريرها الصغير، وكانت هي تميزنا، وعبّرت عن فرحتها، لرؤيتنا مجتمعين. «أبنائي» ـ قالت مرة ـ «كم كبرتم!» ثم كان أحدنا يسهر وحده على رعايتها. كنت أحب أن أملس على جبهتها لأزيح عنها خصلات شعرها الفضية، وأتطلع إلى تموجاتها الجميلة، كما كان معصماها الهزيلان الطفوليان يمسان قلبي. كنت أتولى فترات الرعاية الأكثر ثِقلاً، رغم أن أنطوني كانت قد عرضت المساعدة، وقد أوليت اهتماماً لأن تتوفر دائماً الملاءات وملابس النوم النظيفة، وكنت أقوم بتهوية الغرفة باستمرار، لطرد الروائح الكريهة.

كانت أمي ـ هكذا بدا لي ـ في تلك الأيام الأخيرة تشعر بالامتنان،

تجاه كل شيء كنا نفعله لها. كنتَ تصبّ لها الشاي، أما الأكل فلم تعد ترغب فيه. كانت طوني تقيس لها الحرارة، وتمسح البلغم عن فمها، سألتها إن كانت تريدنا أن نقرأ لها من الإنجيل شيئاً. لم تكن تريد ذلك، كما رفضت زيارة راعي الكنيسة. ولكن كان علينا أن نعدها بأن الجرّة التي سيُحفظ فيها رمادها سوف توضع إلى جوار تلك الخاصة بهاينريش. عندما كانت أمي تنام بعمق، كنا نترك الباب بالطابق العلوي مفتوحاً، ونجلس إلى مائدة الطعام. كانت ملامح طوني قد صارت جامدة، كانت تتحدث بنبرة ما، كأنما كانت مضطرة للدفاع عن نفسها طوال الوقت. بتنورتها الزرقاء ذات الطيّات، وقصّة الشعر القصيرة، كانت تبدو كبيرة في السن، لم تعد أنيقة على الإطلاق كما في السابق؛ كان انفصالها عن براندايس على ما يبدو أصعب عليها كثيراً مما كانت تحب أن تعترف. أما أنت فكانت في عينيك نظرة محمّلة بالأسى، لم يعد دور العارف المغتر يظهر عليك. بينما نوّهت لنا بأنه سوف يتم الاعتراف بك عن قريب كذكر، سليل لعائلة آل بو سعيد الحاكمة، وأنه بإمكاننا نحن الثلاثة أن نضع في اعتبارنا أنه سيتم ضمّنا رسمياً لشجرة العائلة. لابد أن أعترف أن الأمر كان أقلّ أهمية عندي مما كان بالنسبة لك. أما أمي فقد قلت بحفيظة محزونة، إنها سوف تحمل ذاك الشقاق معها إلى القبر، رغم المئة جنيه استرليني السنويّة، التي تم منحها إياها على سبيل الصدقة. كانت الأجواء تصير حيوية على المائدة، حين كنا ننغمس في الذكريات، التي كانت مع ذلك عند كلٍّ منا تأتي على أوجه مختلفة. صارت رودولشتات حاضرة مرة أخرى، وتلك اللحظة، حين اتضح أن أمنا كانت أميرة، وبارونة تيتّاو بعقدها الذهبي الصغير، ومقرمشاتها التي كانت تجلبها معها من متجر الحلوى. أيام كولون، عندما دخلتَ المدرسة الحربية، وأيام الآحاد الحزينة، عندما كانت تحل

نهاية عطلتك. وقبل كل شيء الرحلة إلى زنجبار، كل ما هو بعيد المنال، ما هو جديد على نحو مفزع، مما سطا علينا على الجزيرة. كان من الممكن أن يحدث، أن يتصاعد بنا الصفو، حتى نضحك معاً بصوت عالٍ، حتى دخل علينا «ت» الغرفة مثل شبح منذر، واضعاً إصبعه على فمه. أجل، كنا ندين لها بالمراعاة. كنا نواجه امرأة تحتضر، ومع ذلك كنا نريد أن نعيش بعد موتها. سكتنا، وجرجر «ت» قدميه عائداً إلى زنزانته التي صنعها لنفسه، والتي كان يغادرها مرتين في الأسبوع في الموعد نفسه، للقاء أربعة من رفاق الحرب على مائدة سمر. أما الصراعات بيننا نحن الإخوة فلم تظهر سوى بصورة جزئية، بالأساس عندما كنا نتحدث عن كيفية التصرف في تركة إيميلي. وقد أبلغتنا بأن هناك وصيّة، وكان من الواضح أنك تعلم فحواها. هل كنت أنت من صاغها ووثقها لها؟ أين ومتى؟ في ليندأو؟ كان من الأفضل التجاوز عن الأمر.

أما ما يلي فإنك بالطبع تعرفه. لكن كتابته لك، ولي أنا نفسي، من مسافة بعيدة، يشعرني بالارتياح. ماتت أمنا في مساء يوم ٢٩ فبراير. كنا ثلاثتنا معها، منذ قراءة الوصية لم تعد تتجاوب مع أحد، كانت في النهاية قد همهمت بشيء ما غير مفهوم، على الأرجح باللغة العربية. كان الدكتور شفارتس قد اكتشف انخفاض نبضها على نحو متزايد، وودعنا بصوت مكتوم. كانت الساعة الأخيرة صعبة، صارت تواجه صعوبة أكبر في التنفس، وكانت أصابعها تتشنج ممسكة بالغطاء على السرير، وكان وجهها يتجهم، ولم نستطع نحن أن نخفف عنها شيئاً، ولا أن نفعل أي شيء. بعد ذلك تنهيدة، ثم زفير أخير، ثم استرخى الجسد المتنشنج. تداعى وجهها فجأةً، ولكنه كان هادئاً. وضعت لها ربطة الذقن، أما عيناها فلم نكن بحاجة إلى أن نغمضهما لها. خطر لي

كيف كانت حالتها بالضرورة، عندما مات هاينريش، حينها فقط راودتني الدموع. سمعت طوني تنتحب بصوت خفيض، بل إنها مدت يدها لتمسك بيدي. أما أنت فلم تصدر أي صوت، لكنك ترنحت حين قمت واقفاً. تعيّن علينا استدعاء الدكتور شفارتس مرة أخرى، لكي يحرر شهادة الوفاة. وقد دخل معه كذلك «ت» إلى غرفة المتوفاة، التي كاد يسود فيها حينئذٍ شيء من الزحام. وقف بيدين معقودتين أمام المتوفاة، أمال رأسه الأقرع وقال: «مع ذلك فقد كانت ميتة هادئة». لمْ تكن تودّ الاستماع إليه على الإطلاق؛ فقد كان الاتهام غير المنطوق لك بأنك بالأساس خائن، يقف دائماً بينكما، وربما كانت المسألة كلها أنك كنت تشعر بالخجل. عندما كنت بعدها في الغرفة وحدي مع «ت»، فعل شيئاً، كدت أن أكون قد نسيته منذ زمن: احتضنني وملس على ظهري مسترضياً إياي، وقد جعلني ذلك أتصالح مع بروده العاطفي المُدّعى. في الحقيقة إنه لأمر يدعو للدهشة، كون الرباط بيننا ـ حتى وإن كان في بعض الأحيان يتعلق بخيط رفيع ـ لم ينقطع بشكل كامل أبداً.

قررنا إقامة عزاء وحفل تأبين لإيميلي في كنيسة سانت ميشائيل، وأن نلتقي بعدها بأسبوعين، نحن الإخوة الثلاثة فقط، في مدافن أولدسدورف بهامبورغ، لكي نضع جرة حفظ الرماد في مقابر عائلة رويته.

قبل العزاء أم قرأنا وصيّة إيميلي. كان لابد من فتحها في حضور ممثل عن محكمة المقاطعة. كانت أمي قد عيّنتك للقيام على تنفيذ الوصيّة، وقد أشعرني ذلك بطعنة، بل أكثر من ذلك، لقد شعرت أنني تعرضت للخداع إلى حد كبير، ألم أكن أنا ـ من بيننا نحن الثلاثة ـ أكثر من اعتنى بها؟! تم تقسيم المال القليل الذي كان متبقيًا في حسابها المصرفي بالتساوي فيما بيننا، أما ما كان يجب فعله بما تبقى، فإن ذلك

لم يُحسم أمره. ولا كلمة عن مذكراتها، والعائدات المحتملة منها في حالة صدور طبعات جديدة، ولا كلمة عن مخطوطات الرسائل غير المنشورة، والتي كنت وحدي على علم بها. وقد وضعتكما في الصورة بشأنها، وقد رأيتما أنني لابد أن أكون أول من يقرأ تلك الدفاتر. وقد فعلت ذلك في الليلة السابقة على العزاء. جاء دور طوني بعدها؛ أما أنت، يا أخي الحبيب، فقد أخذت تتملص من قراءة تلك النصوص، أخذت الدفاتر معك إلى لندن، وتعهدت بإحضارها معك وقت الدفن. وقد قررت أن أتولى وضع كيس رمال زنجبار الصغير، وجرّة حفظ الرماد بنفسي في القبر.

تقابلنا، كلنا بالملابس الداكنة، في ذلك النهار البارد العاصف من شهر مارس، في ساحة محطة القطارات الرئيسية في هامبورغ. ومع ذلك فلم يكن الجو ماطراً. كانت طوني قد جاءت من فولسبوتّيل، وأنت من لندن، وأنا من يينا. أما ابنتاي، اللتان كانتا تريدان المجيء معي، فقد أوضحت لهما، إن تلك كانت مسألة تخصنا نحن الإخوة فحسب. حملت الجرّة التي حوَت الرماد معي، في حقيبة من الكتان الأسود، حيث كان أيضاً كيس الرمال. كنت أنت تحمل معك شمسيّة رجاليّة لونها أزرق داكن، كانت ملفوفة بإحكام. بذلنا الجهد لإلقاء التحية بمودّة خفيفة، ثم استقلينا القطار الكهربي إلى أولسدورف. أما المسافة القصيرة إلى مدخل المدافن، فقد قطعناها في صمت. وكنا قد تخلينا عن فكرة استدعاء أحد القساوسة. لكن الحانوتي والموظف المسؤول عن المدافن كانا في انتظارنا، فقادانا عبر طريق متعرّج، مروراً ببعض المراعي الجدباء، والمئات من شواهد القبور، إلى مدافن عائلة رويته، حيث سمح أفرادها بعد شيء من الشدّ والجذب، أن يتم دفن رماد إيميلي إلى جوار قبر هاينريش. كانت المقبرة قد تم حفرها

بالفعل، وشكّلت كُتَل التربة الرطبة كومة قبيحة إلى جوارها. كانت لوحة القبر، التي كنت أنت قد أوصيت بصنعها، متكئة على وردية رودوندرون. كان محفوراً عليها الاسم وتاريخ ميلاد وموت المتوفاة، وعبارة كنت قد اخترتها وحدك دون استئذان من أحد: «إن الشخص المخلص من أعماق قلبه، هو من يحب وطنه كما تفعلين أنتِ». منذ وقتها كنت بالفعل لا أستطيع التصالح مع هذه العبارة ـ التي كانت مقتبسة من فونتانه ـ فهي تبدو لي مزدوجة المعنى عندما يتعلق الأمر بأمنا، التي كانت بالفعل ممزقة بين وطنين، وهو ما شكّل جزءاً كبيراً من شقائها. لكنني في البداية لم أكن أودّ أن أجادل بشأنها على أية حال. فقد كنت أنت على الدوام تدعي التفوّق الثقافي في عائلتنا، وأنه من الأفضل ترك تلك الشؤون لك. غرست ـ بمساندتكما ـ الجرّة في القبر، ووضعت كيس الرمال معها. سألتني طوني هامسة، ما هذا؟ فجاوبت بأنها رمال من زنجبار، وإن وصيّة أمي كانت أن نعطيَها إياها معها. أومأت بملامح متحجرة. وقفنا هناك صامتين، أيادينا معقودة، بينما راح الحانوتي يهيل التراب على حفرة القبر. وقد وضع هو ومسئول المدافن لوحة القبر على تلك الفتحة؛ كانت ثقيلة جداً، بحيث اضطررت أنت لمساعدتهم. أثناء ذلك انزلقت قدماك، فوقعت على ركبتيك، ورحت تحاول مستاءً مسح الطين من على سروالك بمنديل. وقعت الشمسيّة على الأرض. كانت تلك لحظة مثيرة للسخرية، سامحني لأنني أكتبها صراحة هكذا. طلب منك الموظف ـ الرجل القصير النحيف ـ أن تمر عليه بعد ذلك في مبنى الإدارة، لكي توقّع المحضر. تنحنح، وانسحب، هو والحانوتي، بهدوء. كنا وحدنا، والسحب المنخفضة فوق رؤوسنا. هلا نصلي؟ تشككت فيما لو كان ذلك مناسباً، بالنسبة لأمي، التي كانت تصف نفسها باستخفاف، بأنها

نصف مسيحية. لكنك مع ذلك همهمت بشيء ما؛ ربما كان ذلك الشيء «أبانا الذي في السموات»، أو حتى سورة من القرآن، فقد كنت أنت الوحيد بيننا الذي يعرف اللغة العربية إلى حد ما.

فسألت طوني بصوت شبه مسموع: «لماذا لم يكن لدي أية فكرة عن كيس الرمال هذا؟»

انتابني الفزع: «لقد أخذت حفنة رمال من بيت المتوني، وضعتها في منديل وعقدته عليها. ألم تكوني موجودة معنا؟!»

«إنني لا أتذكر» ـ ردّت طوني بحدّة ـ «لكنني فقط أعتقد إنه كان باستطاعتك أن تمهدي لنا الأمر».

قلت: «أنا أيضاً كنت قد نسيت أمر الكيس الصغر. لكنه ظهر حين قمت بترتيب أشياء أمي في درج المنضدة الصغيرة».

أطلقت طوني صوتاً، يكاد يكون نشيجاً. «بعبارة أخرى، لقد قمتِ، في غيابنا، بالتفتيش في أغراضها». ـ صارت نبرتها أكثر حدّة ـ «أتظنين أنها حكر لك، لمجرد أنها كانت تسكن عندكم؟»

عارضتها: «كلا، لقد كانت تسكن معنا بناءً على رغبتها، وأنت تعرفين ذلك».

«حسناً!» ـ صاحت في وجهي، وبدا صوتها متوجّعاً ـ «أنت من أقنعتها بذلك، تملّقتِها، كنت دائماً تريدين أن تكوني المفضّلة لديها، ربة المنزل الصغيرة الصالحة».

أصابني هجومها بالذهول، رحت أبحث عن الكلمات: «كيف تفكرين بهذه الطريقة؟ أنا لم أفعل سوى ما كنت أظن أنه واجبي فحسب».

خطت خطوة باتجاهي، كأنما أرادت أن توجه لي تهديداً جسدياً.

«لقد أبعدتِها عني بالفعل، دائماً كانت لديها حجة ما، حين كنت أدعوها إليّ».

أغاظتني مزاعمها. رددت عليها بصوت أعلى مما كان يجب: «إن كان الأمر كذلك فعلاً، فلابد أن يكون للمسألة علاقة بك وبحياتك الزوجية. ألا يمكنك تصوّر أنها ببساطة كانت تشعر براحة أكبر عندنا؟!»

تدخلت أنت في الحديث: «يا إلهي، ماذا دهاكما؟ الزما حدودكما! نحن نقف هنا أمام قبر أمنا. أرجوكما بعض الإحسان».

التفتت طوني إليك؛ كان صوتها يرتعش: «حسناً يا أخي العزيز، فقد كنت بالفعل دائماً محسناً. لكن حين كان الأمر يتطلب تواجدك، كنت غالباً ما تشعر بالضغط».

شددت قامتك، وقد استيقظ بداخلك ـ هكذا بدا لي ـ ذلك الجندي السابق: «أرجوكِ! إن هذا تجنٍّ خبيث! لقد فعلت على طريقتي من أجل أمي قدر ما فعلتما تماماً».

«حسناً إذاً.. على طريقتك *أنت!*» أطلقت هذه الصياغة لساني أنا أيضاً؛ انفجر من داخلي الغضب، الذي طالما كنت أكتمه. «لقد استضفتموها عندكم لبضعة أيام، ثم أرسلتماها إلينا مجدداً. لقد كنت على أية حال طوال الوقت على سفر، مشغولاً جداً، حين يكون المرء بحاجة إليك. كما أن تيريز لم تتعلّم أبداً أن تتعايش مع أمِّنا».

تتشوش ذاكرتي هنا بعض الشيء. أعتقد أن صوتك قد بدا فظّاً ومعتصراً. «لقد كان هناك استياء متبادل في تلك اللعبة. لكن كلاًّ منهما كانت تحترم الأخرى على الأقل. هل كان الأمر بيدي، أن أجعل منهما صديقتين؟ إنك تنسين أنني كنت أكافح بكل الوسائل لكي أضمن لأمي ميراثها. أتعلمين كم التماسٍ كتبت؟ كم حديث خضت من أجلها؟»

حينئذٍ شعرت طوني كذلك بالاستفزاز تجاهه. «ونحن الأختان، كنا نضع أيادينا في الماء البارد، أليس كذلك؟ كلا البتّة أيها الأخ الطيّب، لقد صرت نشيطاً فقط عندما تعلق الأمر بالأموال. فلسوف تنال من ذلك شيء أيضاً، أليس كذلك؟»

«إذا كان الأمر كذلك، فسينوب ثلاثتنا شيئاً». صار لونك شاحباً، وتحولت كلماتك إلى نوع من النباح. «لقد كنت أرسل لها ـ فقط لكي يكون ذلك قد قيل مرة واحدة ـ من أموالنا شيئاً بانتظام. لقد تقاسمنا أنا وتيريز معها أموالنا».

فردت طوني: «إن لديكما ما يكفي من الأموال. لقد تزوجت امرأة من بيت ثري، ولحسن الحظ كان لها خال أكثر ثراءً أورثها شيئاً كذلك، فالحق أنه لا يتعيّن على المرء أن يقلق بشأنكما».

كانت محقة، لكنني لم أكن لأجرؤ على النطق بذلك بكل هذه الصراحة. استمر الحديث. تطايرت الاتهامات المتبادلة هنا وهناك، بلا تحفّظ، بين الحين والآخر كنا نتحدث في وقت واحد، بصوت عالٍ جداً، يكاد يقترب من الصراخ. وقد اتهمناك نحن الاثنتين بأنك لست سوى متهرّب كبير، أي نعم، خائن. في تلك اللحظة كنت أتحدث بلسان الجنرال ترومر، وقد كان ذلك أكثر ما أخجلني فيما بعد. ونحن؟ تابعتان قنوطتان ـ هذا ما قلته أنت ـ معميتان وسط غمرة المشاعر القومية، تعميان عن البغي الألماني، قلت إننا ذليلتا زوجينا. أما كل ما طفا على السطح فيما عدا ذلك فلم أعد أذكره، كما أنني أيضاً تدبرت أمر كل ما سبق، حتى إذا ما خانت تفصيلة دقيقة الذاكرة، التي لا تترك مجالاً لمثل هذه الجلبة العاطفية.

في وقت ما ـ وأنا متأكدة من ذلك ـ صحت بشيء ما مثل: «كفى

الآن! كفى!» كنت قد لاحظت كيف كان كلّ منا يتنمر للآخر على نحو غير لائق، وحاولت أن تضبط نفسك، مسحت بعصبية على شاربك. «إن كان لابد لكما من النقاش، فلتتفضلا. ولكن ليس هنا، ليس أمام قبرها». بدا كلامك عن «النقاش» مستنكراً، فيما يشبه «غسل الغسيل الوَسِخ». انحنيت لتلتقط الشمسيّة، ثم استدرت فجأة، كأنك كنت تطيع أوامر أحد القادة، ومشيت بخطى ثقيلة على الطريق الضيق مبتعداً. ومع أنك كنت تخطو بثبات، إلا أن مشيتك بدت غير واثقة. وقد استخدمت الشمسية كالعصا. ترددت أنا وطوني، لكننا تبعناك بعد ذلك. التزمنا الصمت. ولكن ما الذي كان قد حل بنا؟ راحت الريح وقتئذٍ تشتدّ، وتهب في وجوهنا مباشرة، وأخذت أغصان شجر الزان على حافتي الطريق تتمايل هنا وهناك، فتسقط منها قطرات الماء. جرى بعضها على لياقة معطفي، فشعرت بهدرها على ظهري.

كنت قد انتظرت عند أحد التقاطعات، حيث كانت هناك أريكة للاستراحة. أشرت إلينا في صمت لكي نجلس إلى جوار بعضنا، لكننا تحاشينا أن يمس أحدنا الآخر. كانت الشمسية محشورة بين ركبتيك. أخذنا نحملق في شجر السرو أمامنا، وقد انتابتني القشعريرة. مرت بنا إحدى العائلات، كان أحدهم يحمل إناءً من البنفسج المزهر.

قلت: «كان علينا نحن أيضاً أن نهتم بإحضار بعض أكاليل الزهور، إن المرء ينسى دائماً أشياءً كثيرة».

فردّت طوني بصوت خفيض مثل صوتي: «سأتولى أنا ذلك».

فشرعت أنت في الحديث: «ما أردت أن أقوله، هو أن المال القليل المتبقي، يتم توزيعه بالتساوي بيننا. لابد أنكما تعرفان ذلك». ـ كنت

تتنحنح بتَكلُّف ـ «بإمكانكما أن تقسّما تركة أمي فيما بينكما. إنها تتمنى في وصيّتها أن تتوافقا بطريقة وديّة. أنا عن نفسي لا أريد شيئاً».

«خطاباتها» ـ قالت طوني فجأةً، ملتفتةً إليّ ـ «أنا قرأتها. لقد عانت أكثر بكثير مما كنت أتخيّل يوماً».

«لقد كنا فعلاً كل ما لها» ـ همهمت أنت بذلك، بضحكة خفيفة بائسة. وبعد وقفة قلت: «أعتقد أن الناس في ألمانيا لابد أن يعرفوا، كيف يكون حال امرأة، حين تكون مضطرة لتدبر أمرها في عالم غريب عليها تماماً».

مدت طوني ذقنها: «تعني أن علينا نشر الخطابات؟ كنص موازٍ للمذكّرات؟»

أومأت متردداً: «وسوف يكون للكتاب قراء كثر، أنا على يقين بذلك».

«تقصد إنه سيجلب لنا بعض العائدات؟» وعلى الفور بدا في ملاحظةِ طوني تلميح حاد.

قلتُ إن خطابات أمنا حميمية جداً، وإن حزنها لا يجب أن يخرج للعلن، فهو لها وحدها ولنا، نحن أبناؤها. وقد وافقتني طوني.

«اثنتان لواحد» ـ سجّلت أنت ذلك، لنفسك أكثر منه لنا نحن الأختين ـ «حُسم الأمر إذَن».

«إلا إذا». ـ قالت طوني على غير ما توقعتُ ـ «إذا وثقتما في، لكي أكتب قصة حياة أمنا، وأقوم بحذف كل المواضع الحساسة. فإن لدي من الخبرة في مجال النشر ما يكفي، كما أن..».

فقاطعت أنت كلامها: «وأنا أيضاً»

وأنا أيضاً، كان بإمكاني أن أقول ذلك، فأنا من كنت قد صححت لها مذكراتها. لكنكما لم تكونا تعرفان ذلك من الأساس.

ثم أضفت أنت: «الأفضل أن ندع ذلك. فإننا لسنا على مسافة كافية من هذه القصة».

استشعرت بالفعل كيف تصلبت طوني إلى جواري، وخشيت اندلاع الشجار من جديد. لكنني أوليتك الحق في هذه النقطة، هكذا نجحت في تهدئة النفوس.

استمر الصمت بيننا لوقت طويل، كان من الصعب احتمال الأمر. ثم قلت أنت بنبرة حيادية: «في الحقيقة كانت تود أن تعود للشرق لتموت هناك. كانت تنجذب إلى هناك، كانت تعرف أن روحها لا تنتمي إلى هنا».

كنت أنا أيضاً أعرف ذلك. لكن كان الأمر غريباً، بدأنا أنا وطوني نبكي في اللحظة نفسها، وقد أفشى لي صفير أنفاسك عن أنك أنت أيضاً كنت تكابد دموعك.

قالت طوني: «إنني أتساءل أحياناً، أين ننتمي نحن الثلاثة». صمتنا مجدداً، ثم قالت طوني: «إذا عشتما أطول مني، فإنني أنا كذلك أريد أن أدفن هنا. فلتعملا على ذلك، أرجوكما».

أعتقد أننا أنا وأنت أومأنا في صمت. أما أين انتهى الحال بطوني الآن، فأنا لا أعرف؛ أظن أنها لاتزال على قيد الحياة، فنحن جنس صعب المراس.

كانت السماء في تلك الأثناء قد تلبدت تماماً بالغيوم، بدأ المطر يقطر، والرياح تدفع بالأوراق الذابلة على الطريق، كأنما كان الطقس خريفاً وليس قبَيل الربيع. كان ليحلو لي أن أمد يدي إلى أياديكما.

لكنني لم أفعل. وقفنا، ثم سرنا على مسافة من بعضنا، إلى جوار بعضنا البعض، إلى المخرج. كان بإمكانك أن تفتح الشمسيّة، كنا أنا وطوني لنجد لنا مكاناً تحتها، لكن الأمطار كانت خفيفة على أية حال. في طريق العودة لم نتبادل سوى بعض الجمل غير الملزِمة. كان الوداع قصيراً، وحيادياً تماماً، لم نشرب حتى القهوة سوياً.

كنا قد سلكنا دروباً مختلفة إلى هذا الحد في حيواتنا، إلى هذا الحد كانت قد باعدت بيننا، بحيث لم تكد تعود هناك أي نقاط تقاطع بيننا. أما المعاملات المالية فقد كان بالإمكان إنجازها كتابيّاً، مع التحيات المليئة بالمجاملات. أما مخطوطات الخطابات فقد احتفظت بها عندك، ثم تركتها بعد ذلك في أيدٍ أمينة، لدى مستشرق هولندي، كنت تتبادل المراسلات معه منذ سنين؛ وقد آلت مكتبتك إلى هناك أيضاً. فمن الذي كان ليهتم بها اليوم؟

لقد طاردني الشجار الذي ظلل زيارتنا لوضع جرّة الرماد في القبر طيلة سنين في أحلامي. في أحد أسوأ تلك الأحلام تركت الجرة تسقط مني. وقد تكسّرت فانساب الرماد على حذائي، كان رطباً، فالتصق به.

لم أحكِ أبداً لا ل «ت» ولا للبنات عن هذه الفقرة البغيضة. لابد أنك أنت أيضاً قد احتفظت بها لنفسك. عندما كنت قد عدت إلى البيت سألني «ت»، إن كان كل شيء قد مر بشكل جيّد.

«نعم» ـ أجبته ـ «إن جاز التعبير».

«لقد رَحَلَت عنا في سلام على كل حال». ـ قال ـ «في سلام».

ثم وضع يده بشيء من الطيش على وجنتي، يده الباردة ذات الأنامل العريضة، فبدأت أبكي مجدّداً كما كنت أفعل على الأريكة في المدافن. كانت يدك أنت أيضاً يا أخي الحبيب لتواسيني، إنني لا أعرف ملمسها.

كنا أنا وطوني ـ وذلك منذ زمن بعيد ـ حارستيك. هل تذكر ذلك؟ لقد كنت مسكيناً جداً، لا حيلة لك، سريع الاستجابة لاهتمامنا بك. كنا مرتبطين ببعضنا جداً. فلمَ انحلت تلك الروابط؟ ذنب من هذا؟ القدر؟ أم نحن أنفسنا؟

أرسل إليك تحياتي وأذكرك دائماً

أختك روز

١٧

يا أخي، إنني أرسل إليك التحية بكل الحب، رغم كل ما كتبته حتى الآن، وسوف أبقى أنا أختك، سلمى بنت سعيد بن سلطان. يرسل إليك ابني وأختاه التحية كذلك. تحيات كثيرة، كثيرة.

في هذا اليوم الماطر، الحادي والثلاثين من شهر مارس ١٩٤٦، تناول الإفطار في قاعة الطعام، وليس في الغرفة. في المقدمة جلست السيدة بلوخ على المائدة، في مكانها المعتاد، زاحت تخز البيض المخفوق في طبقها، ثم قالت إنها لا تشعر بشهية للأكل اليوم.

«ولا أنا أيضاً» ـ ردّ عليها رودولف وطلب شريحة من الخبز مع الزبد والمربى، ومعهم الشاي الأسود ـ «ثقيل لو سمحت!» كان يقول ذلك كل يوم، لكن الشاي لم يكن أبداً ثقيلاً وعطرياً مثلما كان في بيروت أو في القاهرة.

سألته السيدة بلوخ: «كيف حال الصحة؟»

فهز كتفيه: «الآلام المعتادة» ـ وضع يده على منطقة الصدر ـ «لم تعد المضخة موثوق بها كما كانت في السابق. السن كما نعرف نحن الاثنين».

«وكيف حال زوجتك؟»

«بين بين. لكن هناك احتمال لصرفها من المستشفى قريباً».

«لابد أنك ستسرّ لذلك. عندما يكون المرء قد عاش مع زوجه كل هذا الزمن، لابد أنه يفرح بالأوقات المشتركة المتبقية لهما معاً». لوت شفتيها قليلاً كالطفل الحزين، وضبطت عقد اللؤلؤ، الذي كاد ينزلق في تقويرة ملابسها. كانت قد صارت أرملة قبل عشر سنوات، ومع ذلك فلم تكن قد تصالحت مع الموقف بعد. أما الآن فلسوف تسرد له ـ إن لم يستطع إيقافها ـ قصة معاناة زوجها، الذي مات جراء مضاعفات خرّاج في الضرس. كانت قصة مسار المرض معروفةً له، ولم يكن يودّ سماع نسخة جديدة منها.

أشار إلى النافذة، التي كانت السحب تتدافع خلفها فوق البحيرة. قال: «طقس غير صالح للرحلات. وأنا كنت قد خططت للقيام برحلة بالمركب إلى فيغيس أو حتى إلى فلويلين».

أشرق وجهها. «يعجبني ذلك، حتى وإن كان الجو ماطراً. أتعرف، إنني حينئذٍ أشعر في الصالون بأنني في مأمن حقاً. بإمكاننا أن نقوم بالرحلة معاً، ما رأيك؟»

لم تغرِ رودولف كثيراً فكرة قضاء نصف النهار مع السيدة بلوخ، لكنه أومأ على سبيل الأدب. ظهر نزيل آخر، بيكوك، ضابط قوات الاحتلال، الذي يقضي فترة إجازته، كانت حالته المزاجية جيدة، فوافق على الفور بحماس، حين اقترحت عليه السيدة بلوخ فكرة الرحلة البحرية. كذلك الدكتور فايتسمان، الذي دخل القاعة بصحبة زراسين، أراد أن ينضم إلى ذلك الحفل. أما زراسين فقد تحجج في البداية بانشغاله ببعض المسائل المتعلقة بالعمل، إلا أنه استسلم لإقناع الآخرين له في النهاية.

حين كان رودولف في الغرفة مرة أخرى، فكّر في كيفية التراجع عن موافقته المتعجّلة، لكنه عاد وخطر له إن الهواء النقي سوف يخفف قليلاً من وطأة ضيق التنفس، الذي عاد ينهكه مجدداً. كانت السيدة بلوخ قد طلبت من مكتب الاستقبال أن يحجز لهم خمسة مقاعد في المركب الذي ينطلق بعد الظهيرة. وقد استقبل الرسالة الهاتفية، بأن المركب «أوري» سوف تنطلق في الساعة الواحدة وأربعين دقيقة، دون مقاومة.

في الساعات المبكرة من بعد الظهيرة، انشقت كتل السحاب جراء الرياح الشديدة هنا وهناك؛ فأشرقت الشمس لمدة دقائق، ساطعةً، فيما يشبه مشهداً من عرض أوبرا، حيث تضيء كشافات الأضواء القوية.

جلسوا في صالون الباخرة الدولابية، المكسوّ بالألواح الخشبية بإتقان، وقد تم اتخاذ نفس ترتيب الجلسة كما في فندق شفايتسرهوف. صوت ضرب الماكينات، وحفّ دواليب التجديف الدائرة، تسللا إليهم، وطغيا لبعض الوقت على أصوات الركاب المتداخلة. حين كانت السماء تعتم مرة أخرى، كان رودولف يتعجب، كم كانت الجبال التي كانت الباخرة متجهة نحوها داكنة؛ بالكاد يمكن للمرء أن يصدق أنه على هذه الكتلة الجبلية المنفّرة، كانت هناك مراعٍ خضراء، وقطعان بقر، وأكواخ جبال الألب. أنشودة رعوية مثالية. كأن قد جابها جميعها مع تيريز، وفيرنر في يده. أحياناً لا يعرف المرء سوى لاحقاً، كم كان يشعر بالسعادة في لحظات بعينها.

سارت الرحلة عبر فيغين مرورا بفيتسناو حتى فلويلين، ثم عودةً إلى لوتسيرن. كان من المفترض أن تستغرق خمس ساعات ونصف، وقتاً كافياً لشرب زجاجة من نبيذ كوت دي رون، ثم زجاجة ثانية، أصر بيكوك بإلحاح أن يتولى دفع ثمنها؛ كانت هناك إلى جانب ذلك بعض

اللحوم الباردة، والمخللات، والخبز، الذي كان للأسف ـ كما انتقدته السيدة بلوخ ـ يابساً بعض الشيء. كانت تضع دثاراً من الفراء، فأخذت تطويه مرة بعد مرة في محاولة لإبداء بعض الغنج. تدفق الحديث، إلا أن السيد زراسين حوّله على نحو غير متوقع إلى خطبة تشيرشيل في جامعة زيوريخ، والتي كانت الصحف في هذا اليوم قد تناولتها. رأى زراسين أنه كان قد قال كلاماً وجيهاً، ذلك الأسد العجوز، قائد غزوات هيتلر، كان يدعو للمصالحة، المصالحة تحديداً بين فرنسا وألمانيا، بل إنه كان يناشد دول أوروبا للتوحّد لتجنب اندلاع الحروب في المستقبل. الولايات المتحدة الأوروبية، مزدهرة، تنعم بالسلام؟ تصوّر جميل بلا شك، لكنه مع ذلك بعيد جداً عن الواقع، الذي تبديه قارة مدمّرة، ملايين بلا مأوى، ملايين الجوعى، بالإضافة إلى تطلع موسكو للهيمنة على الشرق. قال إنه لا يعرف أي معتقدات طفولية كانت قد حلت به.

قالت السيدة بلوخ إنها هي أيضاً لا تؤمن بفكرة الوحدة تلك، فلطالما كانت القوى الأوروبية تنسّر بعضها البعض على مدى قرون. كما يقال في اللاتينية: «Homo Homini lupus». الإنسان ذئب في مواجهة أخيه الإنسان وسوف يظل كذلك.

مسح فايتسمان على فمه بالمنديل، كأنما كان يفسح المجال للرد. وأدار بيكوك نظره بين الجالسين، أما رودولف، الجالس إلى جواره، فقد راح يترجم بصوت خفيض ما كان قد قيل بالألمانية.

أمسك فايتسمان بطرف الحديث: «لا بد من قليل من التجرؤ على فعل شيء ما. فإن الأسلحة تصير أكثر تدميراً. ولابد لهيروشيما أن تبعثنا على ذلك الإدراك، أليس كذلك؟ لمَ لا يتسنى للأعداء الألدّاء أن

يصيروا إخوة؟ فنحن نتمنى بالفعل للفرنسيين وللألمان أن يكون ذلك ممكناً، وبنفس القدر لليهود وللعرب».

نسي رودولف الترجمة. «أنا أيضاً موافق على هذا الرأي» ـ تدخل في الحديث، وبدا صوته أكثر حماساً مما كان يحبّ ـ «إنها سياسة واقعية من ناحية. ومن ناحية أخرى فهي أفكار مقنعة. السلام العالمي ليس ضرباً من الخيال. والسعي إليه هو الاستراتيجية الوحيدة التي تضمن نجاتنا في القرن العشرين. إنني أريد أن أؤمن بإمكانية وجود أوروبا الموحّدة، بل إنني أؤمن كذلك، بأن الأمم المتحدة التي بدأت عملها بالفعل الآن، تستطيع أن تشكّل درع آمان، يمكن في ظله لهذه التحالفات أن تتحقق».

هز زراسين رأسه بقوة. «اسمحوا لي أيها السادة المثاليون، إن هذا تفكير حالم. إن الدول، لاسيما الكبرى، لا تقاد بأفكار السلام، وإنما بمنتهى البساطة بما يحقق مصالحها، وفرص هيمنتها، وبغريزة حب السلطة. إنني أقول لكم مقدّماً إن الأمم المتحدة لن تكون سوى نمر من ورق. ألا تذكرون عصبة الأمم، كيف أخفقت عندما أغارت إيطاليا على الحبشة؟ أفتظنون إن النسخة الجديدة من هذا الاتحاد سوف تكون أكثر فاعلية؟ أتظنون إن موسكو سوف تسمح، بتكوّن مثل هذه الكتلة الخطيرة من الدول الأوروبية إلى جوارها؟ هل أنتم جادون في اعتقادكم أنه من الممكن دفن العداوات الممتدة على مدى قرون وتجاوزها؟» كان زراسين قد صار يتحدث بغضب عارم؛ كان صوته قد علا لدرجة أن توقف كل الكلام والضجيج على الطاولات المجاورة، وكان الجميع ينظر إليه بانزعاج.

«اسمح لي» ـ كان صبر رودولف قد نفد، ولم يستطع أن يمنع نفسه

من التصادم مع ذلك الصفير كالفتى الصغير. «بالطبع إن اللعبة مليئة بمصالح السلطة. لكن تلك تحديداً هي أهمّ مهمة لسياسة السلام، خلق توازن بين المصالح. وإن هذا يتطلب الضبط المتواصل للعمل: هنا تكمن البراعة في فن السياسة».

انحبست أنفاس السيدة بلوخ، ثم قاطعت حديث رودولف». وكيف تريد أن تبعث ديكتاتور معدوم الضمير مثل هيتلر على تحقيق توازن المصالح؟ مثل هذا الرجل لديه شهوة الهيمنة، ولا شيء غير ذلك. لقد اتبع تشيمبرلين وصفتك يا سيد سعيد رويته، وبكل أسف اضطر لأن يعاني المُرّ للتكفير عن ذلك».

شعر رودولف بنبضات قلبه تدقّ حتى صدغيه، حتى أطراف أصابعه. «أترين؟ إننا الآن نتخندق وراء وجهات نظرنا، ونبدأ في قصف بعضنا البعض. هل نريد ذلك؟ يمكن للمرء أن يكون مثالياً، ومع ذلك يمكنه أن يميّز ما هو واضح. إن هناك لحظة مناسبة لوجود الاستعداد للتصالح، للاستسلام، كما أن هناك لحظة خاطئة. لا يجب على المفاوض المسالم أن يسمح بالإيقاع به. كان تشيمبرلين ساذجاً، مصاباً بالعمى».

سُمِع صوت الدكتور فايتسمان: «إن السيد سعيد ـ رويته ليس مخطئاً تماماً، أنا أقترح أن نشرب نخب وينستون تشيرشيل العظيم، وأن نعترف له برغبته في المصالحة بعد مسيرته القتالية». رفع الكأس، الذي كان قد أعيد ملؤه للتو، ودار بنظره داعياً الآخرين للشرب.

أما بيكوك، الذي تابع الجدل منزعجاً، من دون أن يفهمه بدقة، فقد تبع فايتسمان مثله مثل الآخرين، وأعلن بلهجته الغليظة: «موافقة! إن علينا أن نلتزم بذلك الواجب اللعين، ألا وهو أن نتمنى مستقبلاً أفضل!»

ساد الهدوء برهة في الدائرة، وقد نظر كلٌّ أمامه على الطاولة متحيراً. همهمت السيدة بلوخ بشيء ما، لم يفهمه أحد، وأشعل فايتسمان لنفسه السيجار.

شعر رودولف أنه بحاجة لبعض الهواء، راودته الرغبة في الاستسلام للطقس والريح لبعض الوقت على السطح. وقف بالأعلى، رافعاً لياقة المعطف، ضاغطاً قبعته على جبينه بشدة، وحيداً تماماً. هبت الرياح في وجهه، جالبة معها أحياناً بعض قطرات المطر، التي تولّد شعوراً بالوخز على الجلد. كانت الأمواج حينئذٍ أعلى منها في خليج لوتسيرن، أخذت السفينة ـ التي كان خيط الدخان الطويل يتصاعد فوقها من المدفئة ـ تتأرجح بصورة أقوى مما كان هو معتاداً، ومع ذلك فقد كان ذلك تسحُّباً مستمراً، كان االمرء يتقدم للأمام، كان يُحمَل. بين الحين والآخر وقفة في إحدى المحطات، كانت صلصلة السلاسل تُسمع، كلما تم دفع لوح العبور من الشاطئ على السفينة، كذلك توجيهات الربان، وأصوات الركاب القادمين.

أخذ النقاش يدوي في نفسه بصدى هزلي. لماذا سمح بأن يستفزه زراسين تاجر الحرير إلى هذا الحد؟ أهي معتقدات طفولية، حين يؤمن المرء بالسلام؟ أجل، وكيف لا! لقد كان عناداً بائساً، ذلك الذي دفعه لأن يتمسك بتلك المعتقدات الطفولية ضد كل ماهو ظاهر، وأن يصونها مثل شعلة شمعة هزيلة في مهب الريح. هكذا اشتعلت بداخله رغم كل شيء قناعاته القديمة، ولم يكن يعلم إن كان عليه أن يفرح بذلك.

اشتدت حركة التأرجح، وحاول هو مقاومة إحساسه بالدوار، وأخذ يتذكر بشجن تلك الرحلة على متن سفينة «النسر»، وذلك التسحُّب المختلف تماماً، بمنتهى الهدوء، عبر قناة السويس. ثم تلك العاصفة

قبل زنجبار. كانت رحلة إلى مستقبل مجهول، كل شيء كان ممكناً آنذاك. كونه كان صغيراً في السن وقتها، كان يعني أن الآمال تتبعه مثل أسراب الطيور فوق الإسماعيلية. رحلة عبور أخرى أطلت كذكرى مشوّشة من وسط كل ما هو شبه منسي. عند طيبة، كان جالساً في عبّارة في النيل، كان المراكبي صغيراً في السن، كانت له رأس، بدت منحوتةً بقسماتها الحادة؛ ابن أحد الفراعنة، هذا ما خطر لسعيد. على الضفة الغربية كانت مقابر الملوك. كان يودّ الذهاب إليها. كان سينزل إليها في الظلام، ليترك الحاضر، والحرارة الشديدة وراءه. كان مصباح الزيت في يد الدليل ليضيء الجداريات، والنقوش الهيروغليفية، والتوابيت الفارغة. كانت رحلة عبر آلاف السنين. هل كان ذلك سبب شعوره بكل هذا الخوف؟

لبعض الوقت أخذ يشاهد ـ محنياً إلى الأمام فوق السطح ـ دواليب التجديف الكبيرة، التي كانت المياه تسيل من بين جواريفها مرغيةً. حاول أن يثبُت، والأرض تتزلزل تحت قدميه. تحدث شخص ما إليه؛ كان الدكتور فايتسمان قد جاء، لكي يصطحبه إلى الصالون مرة أخرى. قال: «سوف تصاب بالبرد، يا سيد سعيد ـ رويته. إنك ترتعش». ثم أضاف بعد بعض تردد: «اسمح لي بملاحظة: عليك ألا تنفعل إلى هذا الحد». تبعه رودولف نازلاً الدرج شديد الانحدار، وكاد ينتفض ضد تلك الوصاية. لكنه تخلى عن الأمر، بل إن القلق الذي استشعره على المائدة أشعره ببعض الإطراء. لامته السيدة بلوخ على أنه قضى أكثر من ساعة على سطح الباخرة حيث الرياح الشديدة، قالت إن عليه أن يتدفأ، والأفضل أن يشرب كأساً من الروم المخلوط بالماء الساخن.

«لكن الجو ليس بارداً إلى هذه الدرجة». همهم بذلك بينما شعر بالعرق وقد غطى جبهته. رشف حذِراً من كأس الروم الساخن الذي

كان قد وُضِع أمامه، لأجل خاطر السيدة بلوخ، ولم يطب له مذاقه، بل إنه بعثه على السعال.

ربت بيكوك على كتفيه». حسناً الآن، لا تبالغ، هناك ما هو أقوى».

حاول رودولف أن يضحك، وكتم السعلة بوضع يده أمام فمه».

كان الظلام يخيم حين وصلوا إلى لوتسيرن. كان المطر قد توقف، في فندق شفايتسر هوف كانت الأنوار مضاءةً. صفوف نوافذ منيرة، في أماكن أخرى كذلك، وقد تداخلت صفوف الضوء مع دوائر النور التي كوّنتها مصابيح الشوارع.

بدت له المسافة من لوح عبور السفينة إلى الفندق أطول من المعتاد، وقد أمسك بيكوك بذراعه لبضعة خطوات، إذ خشي أن يتعثر رودولف. ودّع كلٌّ منهم الآخر سريعاً، إذ كانوا سوف يلتقون مرة أخرى على العشاء في الساعة السابعة.

وحيداً في الغرفة، في قاعة القراءة، للمرة الكم؟ كانت الأشياء تعوم في ضوء الغسق، وهو يريد أن يحل الظلام. السحب والبحيرة كوحدة مائجة، والعين تبحث عن نقطة ثبات، عن الأضواء على جبل ريغي، ولا تجدها. مرهق جداً الآن، مستنزف، كان ليقول ذلك في الماضي، آلام في الصدر، لكنها محتملة. أما الطرق فلا يفاجئه. يأتي متأخراً عن المرات السابقة؛ من يزوره اليوم فقد فوّت بالفعل الغسق. لم تخرج منه كلمة «ادخل»، لكنه يعرف أن الباب سوف ينفتح رغم ذلك. يسمع الخطى، لكن هذه المرة، حفيف تنورة على الأرض الخشبية. أم أنه شيء آخر؟ يجلس أحد ما إلى جواره، شخص ما يتنفس، يمكن كذلك تمييز الأسلوب، وإيقاع الأنفاس مرة أخرى.

«لم أكن أتوقع مجيئك». قال ذلك دون أن يحوّل نظره عن النافذة.

لم تأت إجابة، بل مجرد صوت، ربما كان ينوّه عن ضحكة وربما يكون سؤالاً.

«ليس هذا حقيقياً» ـ يعدّل قوله ـ «بل إنني كنت أنتظر مجيئك كل يوم. حين كنت صغيراً. وحين كبرت في السن. كل يوم».

تدق أجراس الكنيسة الساعة السادسة، دقات طويلة مجلجلة.

يقول: «هناك الكثير جداً، مما كان عليّ أن أشهده، لكي أكون ابنك على حق، لكي أكون قريباً منك، كما يتمنى أي ابن أن يكون».

يستشعر الضغط على صدره، ودقات القلب المتسارعة. «قولي لي شيئاً: كيف يمكن للمرء أن يحب شخصاً إلى هذا الحد، بحيث يقذف بحياته الماضية من أجله؟» يشبك يديه متشنجاً، ويضغطهما بين فخذيه. «لم أكن لأستطيع ذلك. لقد اكتفيت بحبٍّ على نار هادئة. ألهذا لم تحبي تيريز أبداً من قلبك؟»

تلتزم الصمت، تتحرك بهدوء على كرسيها. صرير خفيف، من الخارج ضحيح محرّك، يتباعد بسرعة، ثم أصوات مكتومة آتية من الممر.

يودّ لو يمد يده إلى يدها، يعرف أنه غير مسموح له بفعل ذلك، كان ليخاف أن تكون اليد باردة، جافة وباردة، وأن تتحسس يده التجاعيد، والبشرة المترهلة، والكاحل المدبب. فإنها إيميلي العجوز، التي تزوره، وليست الشابة. أم أنها تتحول بين هذه وتلك، كما كانت في صندوق صور العائلة؟

يقول: «كنت أغضب منك أحياناً. حمير بيضاء بياض الثلج من أجل الأميرات، يا إلهي! يجرها العبيد! جامعو القرنفل السود على سلالمهم المتمايلة. وعنادك!» يتوقف، ثم يجبر نفسه على محاولة أخرى: «كنت

مراراً، وأنا فتى صغير، قد تساءلت بالفعل، إن كنت حاضرة حقاً. ذات مرة تخيّلت إنك دمية يدوية في حجم إنسان، يحركها مارد خفي. كان هذا فظيعاً. وحين كنت مريضاً، وكنت تأتين إلى سريري، كنت أسأل نفسي: من تكون تلك التي تلمسني الآن؟ هل هي أنت؟

يذهب الحديث ـ الذي لم يكن من الأساس ـ بعيداً جداً، يستشعر الأمر، ويمسح عينيه بكمّه، يتجاهل الألم الذي يخز صدره، والذي يمتد لأعلى ذراعه. «أعرف أنني ظالم، يا أمي، لقد عانيتِ، لم تكن لديك رغبة في أن تصيري من أصبحتِ. لكنك مع ذلك كنت قد اخترت بنفسك الوجهة التي اتخذها مصيرك. وأنا؟ لقد وُلدت وسط تناقضاتي. لم يكن لديّ خيار». يفقد الخيط، ثم يجده مرة أخرى. «أم أنه بالفعل كان لدي؟ كان بإمكاني أن أظلّ جندياً. كان عليّ ألا أختار تيريز زوجة لي. كان بوسعي البقاء في ألمانيا. كان بإمكاني أن ألتزم الصمت، بدلاً من أن أرفع صوتي ضد الحرب... أي نعم، كان بإمكاني أن أوفّر على نفسي الكثير... »

انتابته رعشة تشبه تلك التي أصابته في دلتا النيل، عندما ظنّ إن الملاريا قد استحوذت عليه. بصعوبة استطاع كبح رعشة أطرافه، وصرير أسنانه. «اذهبي الآن مرة أخرى يا أمي، اذهبي، أينما شئتِ، ما الذي لايزال بوسعنا أن نقوله لبعضينا بعد؟»

تراجُع الكرسيّ، ثم خطواتها، بالكاد مسموعة. يبدو له أن تياراً هوائياً يمس جبينه، أو طرف إصبع. يبقى عبق ما عالقاً برهةً. البحر، وخشب الصندل، وجوز الهند. تتركه برشاقة، تلك السيدة العجوز. ينفتح الباب وينغلق. يغمض عينيه.

عبر الصحراء على ظهر جمل، بخطى متأرجحة على الكثبان؛ لم

يكن قد امتطى دابة هكذه مرات عديدة، لكنه يفعل ذلك الآن في الذاكرة، في الحلم. أم أنه بالفعل يمتطي حماراً أبيض بياض الثلج؟ البحر، وأطلال أحد القصور، وأطفال يلعبون هناك، وهي معهم، سلمى، فتاة جميلة، تجري هنا وهناك برشاقة، يصعب أن يسميها بـ«أمي»، فهي صغيرة جداً على ذلك. لايزال هناك سور كبير وله شرفة. على سياجه يتكئ أبوه، يلوّح، ويقول شيئاً. هل هو حقاً هاينريش؟ هل هو السلطان؟ يبهت المشهد. ينظر إلى الأعلى، إلى أحد الأشرعة. يقف الملازم دومبروفسكي إلى جواره؟ هو أيضاً كان قد فقد أباه مبكراً، يتعانقان بالزي العسكري، في هذا عزاء، عزاء مُحرّم.

يتحمل الألم، الذي يزداد سوءاً الآن. وهو مصرّ، أن أحداً سوف يطرق الباب مجدداً الآن على الفور.

تذييل

معظم الشخصيات المذكورة في تلك الرواية كانت تعيش فعلاً. وقد قمت بتركيب الحقائق المعروفة عنهم، داخل مسارات الأحداث. أما الفجوات الخاصة بالسير الذاتية، فقد أتاحت لي مساحة حرة، لتتبع خيالي، وابتداع ما بدا لي محتملاً. بالطبع فإنني أقوم بتأويل الوقائع وخصائص الشخصيات على طريقتي أنا الذاتية. مما يعني: إن شخصيات الرواية مستوحاة من الأشخاص الحقيقيين، لكنهم ليسوا متطابقين معهم. وإن الملامح العامة حقيقية بالفعل، إلا أنها خلال رسمها تحولت إلى صورتي أنا الشخصية عنها.

أما الفقرات المائلة في بداية كل فصل فهي مأخوذة عن رسالة مكتوبة باللغة العربية، كانت إيميلي رويته قد أرسلتها، في عام ١٨٨٣، إلى أخيها غير الشقيق، السلطان برغش. وهي منشورة على شكل نسخة طبق الأصل في كتاب «*أميرة عربية بين عالمين*» *(An Arabian Princess between two Worlds)*، وهو عبارة عن مجلد به عدة مخطوطات تعود إلى إيميلي رويته، وقد قام بنشره وتحقيقه إيميري فان دونزل. كما قام السِير جون كيرك بترجمة الرسالة إلى الإنجليزية، وبناءً عليها قمت أنا بكتابة الصياغة الألمانية.

لوكاس هارتمان

جدول زمني للأحداث

- ١٨٣٩/٠٣/١٠ : مولد رودولف هاينريش رويته في هامبورغ، ابن الدكتور أدولف هيرمان رويته، من زوجته الأولى السيدة فرانسيسكا روزالي، سليلة عائلة فولش.

- ١٨٤٤/٠٨/٣٠ : مولد سلمى بنت سعيد، ابنة سعيد بن سلطان، حاكم عُمان وزنجبار، وزوجته الثانية الجركسية جلفدان، في بيت المتوني.

- ١٨٥٥ : يلتحق هاينريش رويته كمتدرب بشركة هانزينغ وشركاه، ويصبح بعد فترة قصيرة وكيلها في عدن.

- ١٨٥٦ : يموت والد سلمى، ويصير أخوها غير الشقيق ماجد سلطاناً. وتقوم هي - وهي في سن المراهقة - على إدارة العديد من المزارع، التي ورثتها، وتتورط في المؤامرة التي يدبرها أخوها الآخر غير الشقيق برغش، الذي يريد أن يطيح بماجد. لكن محاولة الانقلاب تفشل.

- ١٨٦٦ : يتم نقل هاينريش إلى زنجبار، فيتعرف على الأميرة سلمى بطريقة غامضة، ويقع في غرامها.

- ١٨٦٦/٠٨/٢٤ : سلمى حبلة في شهرها الرابع، تهرب على متن السفينة الحربية الإنجليزية «هاي فلاير» إلى عدن، لتفلت من الحكم عليها بالإعدام. في عدن تنتظر هاينريش طيلة شهور.

- ١٨٦٦/١٠/٠٧ : مولد ابن سلمى - هاينريش - الذي يموت لاحقاً خلال الرحلة إلى هامبورغ.

- ١٨٦٧/٠٥/٣٠ : يصل هاينريش رويته إلى عدن. في اليوم نفسه تتحول سلمى إلى المسيحية، وتتخذ لنفسها اسم إيميلي بعد تعميدها، وتتزوج هاينريش. يرحلان إلى هامبورغ.

- ١٨٦٨/٠٣/٢٤ : مولد الابنة أنطوني طوقة في هامبورغ.

- ١٨٦٩/٠٤/١٣ : مولد الابن رودولف سعيد.

- ١٨٧٠/٠٤/١٦ : مولد الابنة روزالي غادة.

- ١٨٧٠/٠٨/٠٦ : يتوفى هاينريش إثر حادث أليم.

- السلطات الألمانية في هامبورغ تضع إيميلي تحت الوصاية.

- ١٨٧٠/١٠/٠٧ : يموت السلطان ماجد في زنجبار، ويأتي خلفاً له أخوه برغش، الذي ينكر حق سلمى / إيميلي في الميراث.

- ١٨٧٠/ ٧١ : الحرب الألمانية الفرنسية، تنتهي باستسلام فرنسا. في قاعة المرايا بقصر فرساي تتأسس الإمبراطورية الألمانية يوم ١٩. يناير ١٨٧١، ويتم تتويج فيلهيلم الثاني - الذي كان حتى ذلك الحين ملك بروسيا - قيصراً لألمانيا. يصير أوتو فون بيسمارك مستشاراً للإمبراطورية الألمانية.

- ١٨٧٢ : تنتقل إيميلي رويته للعيش بصحبة أبنائها الثلاثة في دريسدن.

- ١٨٧٥ : تسافر إيميلي إلى لندن، حيث يقوم برغش بزيارة رسمية. يتم إحباط محاولتها للصلح مع أخيها من قبل الإنجليز. فتعود بخيبة أمل كبيرة إلى ألمانيا.

- ١٨٧٧ : انتقال العائلة إلى رودولشتات، بسبب انخفاض تكاليف المعيشة هناك. تحاول إيميلي كسب بعض المال عن طريق إعطاء دروس في اللغة العربية. يتم دعمها من قِبَل بعض الرعاة من النبلاء.

ـ ١٨٧٩ : الانتقال إلى برلين.

(تقريباً)

ـ ١٨٨٠ ـ ١٩٠٠ : سباق القوى الأوربية على المستعمرات الأفريقية. الإمبراطورية الألمانية الجديدة تقحم نفسها كذلك، وتسعى لامتلاك المستعمرات في جنوب غرب وفي شرق أفريقيا، وتتنافس مع بريطانيا العظمى لكسب التأثير الأكبر والامتيازات التجارية في زنجبار.

ـ ١٨٨٢ : يلتحق سعيد بمدرسة بينسبرغ الحربية بجوار كولونيا.

ـ ١٨٨٥ : تسافر إيميلي، في حماية الأسطول الألماني، بصحبة أبنائها، إلى زنجبار. يستخدم بيسمارك إيميلي، وسعيد على وجه الخصوص، كأداة ضغط، لدفع برغش للتوقيع على إحدى الاتفاقيات، التي تحفظ لألمانيا السيادة على المناطق الساحلية الشرق أفريقية. يرضخ السلطان للمطالب الألمانية في ظل وجود السفن الحربية، لكنه يرفض استقبال إيميلي، ويظل متعنتاً إزاء ذلك. تتبيّن إيميلي أنه كان يتم استخدامها دميةً في لعبة المكائد السياسية. فإن خطة تنصيب سعيد سلطاناً، كان من المستحيل فرضها على أية حال.

ـ ١٨٨٦ : يتم نشر «مذكرات أميرة عربية» من تأليف إيميلي رويته، عن دار فريدريش لوكهارت في برلين، فتثير الانتباه في ألمانيا على نحو كبير. تتم ترجمة الكتاب إلى لغات عدة.

ـ ١٨٨٨ : بعد أن يكون برغش قد مات، تسعى إيميلي للتصالح مع خليفته خليفة. تسافر للمرة الثانية إلى زنجبار، هذه المرة بصحبة روزالي فحسب. لكنّ كل محاولاتها لكسب السلطان في صفها تفشل. بالإضافة إلى ذلك، فإنها تشعر بالإذلال إزاء سلوك الألمان الذي يتسم بالصدّ في زنجبار. تقرر عدم العودة إلى ألمانيا، وتستقر، بصحبة بنتيها في الشرق الأوسط، في يافا بدايةً، ثم في القدس، ثم في بيروت.

ـ ١٨٨٨ ـ ١٨٩٠ : يتوفى القيصر فيلهلم الأول في عام ١٨٨٨. ثم لا يلبث خليفته فريدريش الثالث أن يتوفى بعد ٩٩ يوماً، إثر صراع مع مرض السرطان. فيصير ابنه فيلهلم الثاني، ذو التسعة والعشرين عاماً، قيصراً، وهو الذي يتبع منذ البداية ـ على غير رغبة بيسمارك ـ سياسة خارجية توسعية.

ـ ١٨٩٠/٠٧/٠١ : توقيع معاهدة هيلغولاند ـ زنجبار، بين الإمبراطورية الألمانية، ومملكة بريطانيا العظمى المتحدة، وأيرلندا. تعترف ألمانيا بحق الحماية البريطانية على زنجبار وبمبا. في المقابل تنازلت بريطانيا عن جزيرة هيلغولاند لألمانيا. بهذا صار أمراً محسوماً أن إيميلي رويته لم يعد يمكنها أن تنتظر أي دعم من الجانب الألماني.

ـ ١٨٩٣ : سعيد ـ الذي صار الآن ملازماً في وحدة تورغاو العسكرية ـ يأملفي مساعدة أمه عن طريق وساطة بيسمارك، للحصول على ميراثها الزنجباري رغم كل المعوقات، كما أنه في الوقت نفسه يرغب في أن يتم نقله إلى بيروت، للعمل في القنصلية الألمانية. وينجح في إيصال صوته للمستشار السابق.

ـ ١٨٩٨ ـ ١٩٠٠ : يودع سعيد الحياة العسكرية، ملازماً أول، بعد عشر سنوات في الخدمة. يصير على نحو مفاجئ مفتشاً عاماً في السكك الحديدية بمصر.

ـ ١٨٩٨/٠٤/٣٠ : تتزوج أنطوني في بيروت من المسئول الكولونيالي أويجن برانديس (١٨٤٦ ـ ١٩٣٠)، الذي تم تعيينه والياً على جزر مارشال. تسافر معه إلى منطقة جنوب المحيط الهادئ.

ـ ١٩٠٠/٠٩/٠٦ : مولد ابنة أنطوني ماري مارجاريتا، وشهرتها جريتشن، في جالويت.

ـ ١٩٠١/٠٩/١٦ : يتزوج سعيد في برلين من ماريا ـ تيريزيا (تيريز) ماتياس

(١٨٧٢ ـ ١٩٤٧)، التي كانت أصولها من عائلة يهودية ثرية. خالها هو لودفيغ موند (١٨٣٩ ـ ١٩٠٩)، الذي أسس مصانع اصودا التي لاقت رواجاً كبيراً في إنجلترا، كما اشتهر بكونه راعياً للفنون.

ـ ١٩٠٢/٠٥/٢٢: مولد فيرنر هاينريش ماتيسّين، ابن سعيد، في برلين.

ـ ١٩٠٢/١٢/٠٩: تتزوج روزالي في بيروت من ضابط المدفعية مارتين ترومر، من مدينة يينا (١٨٦٢ ـ ١٩٤٠)، الذي سوف يترقى حتى رتبة لواء.

ـ ١٩٠٣/١٠/٠٦: مولد إيميلي، ابنة روزالي، في برلين.

ـ ١٩٠٤/٠٨/١٠: مولد يولي يوهانا، ابنة أنطوني، في جالويت.

ـ ١٩٠٤/٠٩/١٨: مولد بيرتا، ابنة روزالي، في برلين.

ـ ١٩٠٥: تعود أنطوني براندايس ـ رويته بصحبة زوجها من منطقة جنوب المحيط الهادئ. تنشط في العمل على نحو قيادي في الرابطة النسائية للمجتمع الكولونيالي الألماني، وتعدّ من بين المؤسّسات للمدرسة الكولونيالية للنساء في ريندسبورغ.

ـ تنشر في عام ١٩٠٧ كتاب الطبخ للمناطق الاستوائية الذي يروّج للتغذية الصحية أثناء العيش في المستعمرات الألمانية.

ـ ١٩٠٦ ـ ١٩١٠: يحصل سعيد على تصريح من مجلس الشيوخ الألماني ليصبح اسمه مستقبلاً رودولف سعيد ـ رويته. يقيم في القاهرة لمدة أربع سنوات مديراً للبنك الألماني في الشرق. بعد استقالته يعيش بين لندن ولوتسيرن كواحد من الأعيان، المحسنين، ويكرس حياته لقضية التفاهم بين الشعوب. على وجه التحديد يودّ أن يكون وسيطاً بين اليهود والعرب في الشرق الأوسط؛ يولي اهتمامه لأفكار تيودور هيرتسل، الذي يطالب بإقامة موطن لليهود في فلسطين.

ـ ١٩١٠/٠٥/٠٨: مولد أولجا سلمى ماتيلدا، ابنة رودولف ـ سعيد، في لندن.

- ربيع ١٩١٤: تترك إيميلي مسكنها في بيروت، وتستقر لدى روزالي في برومبرغ، محافظة بوزن (التي صارت اليوم بيدغوسك في بولندا). لن تعود بعدها ثانية إلى الشرق الأوسط.

- ٢٧/٠٦/١٩١٤: اغتيال ولي العهد النمساوي فرانس فرديناند في سارايفو. يسفر ذلك الحادث من خلال تضافر مجموعة من وسائل التعبئة االواضحة وضوح الشمس، عن قيام الحرب العالمية الأولى، والتي تسبب في مقتل مايزيد على تسعة ملايين قتيل، وتنتهي بانهيار القيصرية الألمانية. بالإضافة إلى ذلك تخسر ألمانيا مستعمراتها؛ وتختفي الدولة العثمانية، التي تضم بيروت كذلك، من على الخريطة.

- ١٩١٤ - ١٩١٨: أثناء الحرب يظل رودولف - سعيد - رويته يكتب الخطابات لبريد قراء جريدة NZZ السويسرية، وينادي بحماس شديد بعقد اتفاقية سلام على الفور بين «الأمم ذات الثقافات المشتركة»، لاسيما بين ألمانيا وإنجلترا. يجلب له ذلك سمعة سيئة في الدوائر القومية الألمانية بوصفه خائناً للوطن. لكنه - كألماني في لندن - غير مرغوب فيه، لذلك فإنه يعيش خلال سنوات الحرب مع أسرته في لوتسيرن.

- ١٩٢٠: تنفصل أنطوني براندايس - رويته عن زوجها، الذي يعيش بعدها عشر سنوات في زيكينغن.

- ٢٩/٠٢/١٩٢٤: تتوفى إيميلي رويته في يينا، في بيت آل ترومر، إثر التهاب رئوي مضاعف. يتم دفن جرة الرماد الخاصة بها في مدافن عائلة رويته في أولسدورف، بالقرب من هامبورغ.

- ١٢/١٠/١٩٢٩: تتزوج إيميلي ترومر - الحاصلة بالفعل على درجة الدكتوراه في القانون - في برلين، من المحامي إيريش شفينغه (١٩٠٣ - ١٩٩٤)، الذي يلعب دوراً حاسماً لاحقاً في تشكيل قانون العقوبات

العسكري في الرايخ الثالث، ويصدر كقاضي أحكاماً بالإعدام على الهاربين من الخدمة العسكرية.

- ٣٠/٠١/١٩٣٣: تعيين هيتلر مستشاراً للإمبراطورية الألمانية. يبدأ القوميون الاشتراكيون، على نحو منظّم، في ملاحقة كل من هو ليس آرياً، لاسيما من كان من الشعب اليهودي.
- ١٩٣٤: يحصل رودولف سعيد ـ رويته على الجنسية الإنجليزية، فتسقط عنه الجنسية الألمانية.
- ٠١/٠٩/١٩٣٩: اندلاع الحرب العالمية الثانية، وتغير قوات هيتلرعلى بولندا؛ تعلن كل من فرنسا وإنجلترا الحرب على ألمانيا. تحقق القوات الألمانية في الشهور التالية انتصارات كبرى، حتى استسلام فرنسا.
- ١٩٣٩ ـ ١٩٤٥: أثناء الحرب العالمية الثانية تقيم أسرة سعيد ـ رويته في لندن بشكل أساسي. يحاول رودولف وتيريز مساعدة المهاجرين الألمان.
- ٢٤/٠٤/١٩٤٥: أنطوني براندايس ـ رويته تلقى مصرعها إثر قصف للطيران البريطاني، في باد أولدِسلوَه، بالقرب من هامبورج.
- ٣١/٠٣/١٩٤٦: يتوفى رودولف سعيد ـ رويته في فندق شفايتسرهوف في لوتسيرن.



معظم الشخصيات المذكورة في تلك الرواية كانت تعيش فعلاً. وقد قمت بتركيب الحقائق المعروفة عنهم، داخل مسارات الأحداث. أما الفجوات الخاصة بالسير الذاتية، فقد أتاحت لي مساحة حرة، لتتبع خيالي، وابتداع ما بدا لي محتملاً. بالطبع فإنني أقوم بتأويل الوقائع وخصائص الشخصيات على طريقتي أنا الذاتية. مما يعني: إن شخصيات الرواية مستوحاة من الأشخاص الحقيقيين، لكنهم ليسوا متطابقين معهم. وإن الملامح العامة حقيقية بالفعل، إلا أنها خلال رسمها تحولت إلى صورتي أنا الشخصية عنها.


ISBN 978-993335288-2

